
كتابى
44
إميلى برونتى
مرتفعات ويذرنج
الجزء الأول
تليجرام : هنا سور الأزبكية
الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع



مرتفعات ويذرنج

النص الكامل لقصة «إميلى برونتى»

الجزء الأول

الشقيقات الخالدات !

عزيزى القارىء ..

منذ قدمت لك الترجمة الكاملة لقصة « شارلوت برونتى » الخالدة (جين إير) وانا اتوق إلى ان اقدم لك هذه القصة « الشقيقة » بدورها ، (مرتفعات ويذرنج) التى تفوق (جين اير) روعة وخلودا .. بل وتفوقها مكانة فى موازين التراث الأدبى العالمى الذى تعتز به الانسانية جمعاء ..

وحين اضع هاتين القصتين « الكلاسيكيتين » الخالدتين فى مرتبة « الشقيقتين » فإنما اعنى بذلك معناه المزدوج : فهما شقيقتان فى « جوهما » القصصى ، ولونهما الأدبى ــ كما سترى ــ من ناحية .. وهما من الناحية الأخرى نتاج عبقرية مؤلفتين شقيقتين هما « شارلوت برونتى » ــ مؤلفة (جين اير) ــ و « اميلى برونتى » ، مؤلفة (مرتفعات ويذرنج) .

اسرة العبقرية .. والفواجع !

وهذا يسوقنى إلى كلمة قصيرة عن اسرة « برونتى » التى انجبت الشقيقات الثلاث ، بل العبقريات الثلاث ، والمؤلفات الثلاث : « شارلوت » ، و « اميلى » ، ثم صغراهن « آن » برونتى !

ومن عجب ان الشقيقات الثلاث تشابهن فى .. كل شىء تقريبا !.. تشابهن فى نبوغهن الأدبى ، وهزالهن البدنى ، وقصر اعمارهن ، كما تشابهن فى خلودهن بعد الموت !

.. تشابهن فى نبوغهن الأدبى ، وخلودهن ، فاقترن اسم كل منهن بقصة من روائع الأدب الإنسانى ــ وكان نصيب صغراهن « آن » من هذا الإنتاج قصة (آجنس جراى) ، التى تروى قصة مربية للأطفال ، وإن كان نصيب هذه القصة من الشهرة اقل من نصيب (جين اير) و (مرتفعات ويذرنج) ..

.. وتشابهن فى هزال ابدانهن ، وقصر اعمارهن ، بل وفى اصابتهن بنفس المرض الذى قضى على ثلاثتهن بالتعاقب ــ وهو مرض السل ــ فماتت به شارلوت فى سن التاسعة والثلاثين (١٨١٦ ــ ١٨٥٥) .. وماتت به « اميلى » فى سن الثلاثين (١٨١٨ ــ ١٨٤٨) .. ثم ماتت به « آن » فى سن التاسعة والعشرين (١٨٢٠ ــ ١٨٤٩) !

طفولة حزينة

والواقع ان فواجع اسرة « برونتى » لا تقف عند هذا الحد ، (ولعل هذه الفواجع هى المسئولة عن الجو القاتم الذى تتسم به قصصهن جميعا !) .. فقد كانت اسرة برونتى تتألف فى الأصل من ثمانية أفراد : الأب ، وهو قس « ابروشية » بجهة (هاروث) بانجلترا .. وزوجته ، ثم أطفالهما الستة ، وكانوا خمس بنات وولد ، هم بالترتيب : ماريا ، اليزابيث ، شارلوت ، برانويل (وهو الابن الذكر) ، ثم اميلى ، وأخيرا « آن » . وكانت تفصل بين كل من الأطفال الستة والذى يليه نحو سنة واحدة فقط ، فلما ماتت الأم كانت ابنتها الكبرى « ماريا » فى سن السابعة ، والصغرى « آن » فى عامها الأول !

وهكذا صارت « ماريا » ، وهى بعد فى سن السابعة ، بمثابة « الأم » للصغار الخمسة الآخرين !.. وبعد اربع سنوات ، ألحق الأب الحزين ابنتيه الكبيرتين « ماريا » و « اليزابيث » بمدرسة داخلية – هى المدرسة الرهيبة التى وصفتها شارلوت فى قصة جين اير ، باسم «لووود» .. لذلك لم يكن غريبا أن ماتت الأختان الكبريان فى تلك المدرسة ، تاركتين لأبيهما الثاكل شقيقاتهما الثلاث ، وشقيقهما الوحيد « برانويل » .

فضل البيئة ، والتربية ، على موهبتهن الأدبية

وجلب القس شقيقته لترعى اطفاله الأربعة . وكان بيته فى « الأبروشية » فسيحا متعدد الحجرات ، تحيط به فى الخارج الأحراش والغابات ذات الجمال الأخاذ ، فى كافة فصول العام . وفى داخل الدار كانت الخادمة « تابى » تروى للصغار قصص العائلات الغريبة الأطوار التى تقطن القصور والضياع المتباعدة فى تلك المنطقة من مناطق مقاطعة (يوركشاير) !.. كما كان الأب يعنى بتعليم صغاره ويتحدث إليهم كما لو كانوا كبارا .. وعودهم ان يطالعوا الكتب والصحف ، ويناقشوه فى محتوياتها .. وهكذا شبوا وقد أنمى الاطلاع فيهم ملكة الخيال والتصور ..

ومنذ صباهن اتجهت ميول الشقيقات الثلاث نحو الأدب .. بينما مال شقيقهن الوحيد « برانويل » إلى الرسم ، بالإضافة إلى مواهبه الأخرى فى الكتابة ، والدراسة ، والحديث

البارع !.. على انه حين جاء أوان ترجمة هذه المواهب فى الحياة العملية ، منى بفشل ذريع فى جميع الميادين ، فأدمن الخمر .. ثم برزت موهبته الكبرى فى العثور على مبررات لهذا الفشل !.. وهكذا صار الفتى الذى كان موضع فخر شقيقاته ، وآمالهن ، مجلبة للخجل والعار !.. وإذ يئسن من ان يصبح مصدر دخل للأسرة ، عمدن إلى البحث عن أعمال كمربيات لدى الأسر الثرية ، وهى المهنة الوحيدة الشريفة للعوانس الفقيرات فى ذلك العصر .. ثم رحلت شارلوت واميلى إلى (بروكسل) حيث اشتغلتا زمنا بالتدريس ، لكن صحة اميلى بدات فى التدهور ، واشتد بها الحنين إلى احراش (يوركشاير) ، فعادتا إلى وطنهما .. وهناك بداتا تمارسان مع شقيقتهما الثالثة كتابة القصة ونظم الشعر ، فنشرن ديوانهن الأول بتوقيعات مستعارة لثلاثة أشقاء وهميين – من الرجال – بأسماء : « كارر ، وايليس ، واكتون بيل » !

وبرغم فشل الديوان من حيث الزواج ولفت انظار النقاد ، فإن مجرد رؤية الشقيقات الثلاث لإنتاجهن مطبوعا على الورق ، كان كافيا لإشعال حماسهن من أجل تحقيق احلامهن الأدبية الواسعة ، فلم تعد تستطيع قوة أن توقف انطلاقتهن ! .. وهكذا عكفت « شارلوت » على كتابة (جين اير) ، و « آن » على كتابة (آجنس جراى) ، و « اميلى » على كتابة (مرتفعات ويذرنج) .. وكانت الأخيرة هى أول قصة من الثلاث ترى النور .. نور المطبعة !

وكانت « اميلى » قد « حملت » هذه القصة زمنا فى عقلها وقلبها ، وهى راقدة فوق احواض نبات (الخلنج) ، تحت اشعة شمس الربيع ، أو وهى ترقب دوامات الجليد فى أيام ديسمبر القارسة . وبرغم ان القصة نشرت تحت ذلك الاسم « الرجالى » المستعار ، فقد رجح القراء أن المؤلفة امراة ، لكنهم تخيلوها امراة مغامرة عركت الحياة الصاخبة ، وإلا لما استطاعت تصوير العواطف « بهذا العنف ، والجموح ، والقوة الدافقة ! » .. وما درى الواهمون ان المؤلفة لم تعش إلا حياة الراهبات الناسكات !

وبدأت اميلى تسعل .. لكنها ابت الاستكانة لعلاج ، بل رفضت زيارة الطبيب .. فسارت نحو النهاية بخطى حثيثة . وحتى فى يوم وفاتها ذاته ، ارتدت ثيابها ، وهبطت من غرفتها ، وجلست تكتب كالعادة !.. فماتت « واقفة » ، او « على خشبة المسرح » كما يشتهى الممثلون !

ولم يستطع احد ان يتعرف فى ابطال (مرتفعات ويذرنج) على اشخاص عرفتهم « اميلى » فى حياتها .. لكنهم اشخاص يستطيع أن يتعرف عليهم كل من يعرف الانسانية .. فى كل زمان ومكان !.. فمن بوتقة احراش (يوركشاير) الضارية الغامضة ، وبقايا قصص المربية « تابى » نصف المنسية ، وببصيرة المتصوفة التى تنفذ إلى حقائق الحياة والموت .. كتبت اميلى برونتى عن .. حب اقوى من الموت !

هل هى قصة حب ؟

على انها ليست قصة حب ، وإن كانت هى قصة عن

الحب !.. فلقد عرفت اميلى بوحى من قلبها المستوحش أن الحب ليس على الدوام رقيقا ، سعيدا .. وإنما هو قد يكون قاسيا ، ضاريا ، لا ضمير له !.. وقد يمزق سكينة النفس كما تمزق العاصفة سكون الغابة !.. لكنها عرفت أيضا أنه قد يتسامى فيغدو أعظم ، واجل قدرا من المحبين انفسهم !

.. وتتوالى الأجيال ، ويشب كل جيل فيجد (مرتفعات ويذرنج) تنتظر نفرا منه ليجد فيه مصداقا لحبه ، العنيف ، العفيف ، المتسامى .. وسيظل هناك دائما عشاق يرون فيها مرآة لعواطفهم الشخصية ، التى تهيم فى وديان بعيدة عن تلك التى تهيم فيها عواطف عامة الناس !

وقد يروق لك إذا زرت انجلترا أن ترى البيت الذى يقولون انه مسرح احداث هذه القصة .. وإن لم تجد شخصا يؤمن حقا بأن شبح « كاترين » قد تسلق يوما نافذته !

وقد يروق لك ان تزور البيت الذى عاشت فيه اسرة « برونتى » بضاحية (هاورث) ، وكتبت فيه « اميلى » (مرتفعات ويذرنج) .. الخ .. ومن اجل هذا حرصت على ان ازود هذه الطبعة بكل ما استطعت الحصول عليه من صور نادرة لتلك الأماكن التاريخية ..

والآن ، دعنى اخلى بينك وبين البدء فى قراءة هذه التحفة الأدبية الإنسانية الرائعة ، التى ستوافيك ترجمتها الكاملة الأمينة هذه فى ثلاثة أجزاء من هذا الحجم ..

والله ولى التوفيق ؟

حلمى مراد

الفصل الأول

١٨٠١

عدت للتو من زيارة مالك الدار التى استأجرتها ، وهو الجار الوحيد الذى يكدر صفو العزلة التى انشدها .. ولعمرى إن هـذه قطعة من الريف رائعة الجمال حقا ، وما احسبنى كنت مهتديا ـ فى انجلترا كلهـا ـ إلى مكان ينأى عن ضجة المجتمع وضوضائه مثلما ينأى هذا المكان .. انه الفردوس المنشود لعـدو البشر !.. وانا ومستر « هيثكليف » خير اثنين اتفقت مشاربهمـا بحيث نقتسم هـذه الوحشة فيما بيننا .. يا له من شخص عظيم !.. إننى لا اظنه قد ادرك كيف هفا إليه قلبى ومال ، عندما رايت عينيه السوداوين تضيقان فى حذر وريبة ، وتنسحبان تحت حاجبيه ـ بينما كنت ادنو منه على ظهر جوادى ـ ثم عندما توغلت اصابعه فى عزم وإصرار داخل اغوار صدريته ـ وانا اعلن اسمى له ـ كأنما تحتمى بها حتى لا تمتد لمصافحتى ..

قلت : « مستر هيثكليف ! »

فكان الجواب إيماءة يسيرة .. واستطردت اقول :

ـ اننى مستر لوكوود ، المستأجر الجديد لبيتك ياسيدى . وقد بادرت إلى الحضور للتشرف بزيارتك فى اول فرصـة اتيحت لى بعـد مقدمى ، لأعبر لك عن رجائى فى الا اكون قد اثقلت عليك بإلحاحى فى طلب استئجار (ثرشكروس جرانج) ، إذ علمت بالأمس انك كنت تفكر فى ..

فقاطعنى وهو يرتد إلى الوراء مجفلا : « ان (ثرشكروس جرانج) مملوكة لى يا سيدى ، وما كنت لاسمح لمخلوق بأن يثقل على مادام فى استطاعتى ان احول دون ذلك . ادخل .. » .

وقد انطلقت هذه الكلمة الأخيرة من بين أسنانه المطبقة وكأنما كانت تعبر عن رغبته فى ان « اذهب إلى الشيطان » ! بل ان البوابة التى كان يستند اليها لم تبـد اية حـركة ودية تستجيب بها لهذه الدعوة .. واحسب ان هذا الموقف منه إنما حفزنى وشد من عزمى على تلبية دعوته ، إذ شعرت بالميل نحو رجل يبدو اشد منى غلوا فى التحفظ والنفور من الناس ..

وإذ راى صـدر جوادى يدفع الحاجز فى رفق ، مد يده فأزاح السلسلة التى كانت البـوابة مغلقة بهـا ، ثم استدار دفعة واحدة ، ومضى يتقدمنى فى الممر المرتفع .. حتى اذا ما بلغنا الفناء صاح مناديا : « جوزيف .. خذ جواد مستر لوكوود ، واحضر بعض النبيذ »

وقد اوحى لى هذا الأمر المزدوج بفكرة خامرتنى وحدثت بها نفسى قائلا : « لاريب أن هذا كل ما فى المؤسسة من خدم وحشم ! .. فلا عجب اذا ترعرع العشب بين البلاط وكانت الماشية هى الأداة الوحيدة لتشذيب الأسوار النامية ! »

اما جوزيف فكان رجلا مسنا ، لا بل شيخا عجوزا .. أو لعله كان مفرطـا فى الشيخوخة برغم ما يبدو عليه من صحة قوية وعضلات مفتولة .. فتمتم فى همهمة مكتومة تنم عن السخط ، وهو يأخذ بعنان جوادى : « ليكن الله فى عوننا » ..

بينما اخذ فى الوقت نفسه يحملق فى وجهى فى غلظة وتبرم ، بحيث حدست ـ إمعانا منى فى السماحة ـ أنه لابد فى حاجة إلى « العون الإلهى » ليساعده على هضم غذائه ، وأن ابتهالاته التقية لا شأن لها بمقدمى المفاجىء غير المنتظر !

و « مرتفعات ويذرنج » هو اسم الدار التى يسكنها مستر هيثكليف . وكلمة « ويذرنج » اصطلاح اقليمى ذو دلالة خاصة فى وصف جلبة الرياح التى يتعرض لها موقع الدار فى الأجواء العاصفة . وهم ولا ريب يستمتعون بالهواء النقى المنعش طوال ايام العام فى هذا المكان المرتفع ، كما أن فى وسع المرء ان يحدس قوة الرياح الشمالية التى تهب على حافة المرتفعات حين يتأمل ذلك الانحناء الشديد لسيقان أشجار (الشربين) الضامرة القليلة المتناثرة خلف الدار ، وتلك السلسلة من الأغصان المدببة الخالية من الأوراق ، وقد مدت اطرافها جميعا فى اتجاه واحد كانها تستجدى الشمس حرارتها ودفاها .. ومن حسن الحظ ان المهندس الذى شيد الدار كان من بعد النظر بحيث اقامها متينة قوية ، وجعل نوافذها ضيقة غائرة فى الجدران ، ووقى زوايا البناء بأحجار كبيرة بارزة .

وقبل أن أجتاز عتبة الدار تمهلت قليلا لأتأمل فى إعجاب عددا من النقوش الغريبة الشكل المتناثرة فوق الواجهة ، وعلى الأخص فوق الباب الرئيسى ، حيث تبينت ـ وسط غمرة من الرسوم تمثل سباعا ذات اجنحة ومناقير ، وغلمانا عراة بغير حياء ـ تاريخا محفورا هو « ١٥٠٠ » ، واسما هو

« هيرتون ايرنشو » .. وكنت اود أن أبدى بعض التعليقات او اطلب نبذة موجزة عن تاريخ المكان من صاحبه المتجهم الوجه ، لولا ان هيئته عند الباب كانت تبدو كأنما تريد منى التعجيل بالدخول أو المبادرة إلى الرحيل .. ولم يكن بى ميل او رغبة فى الاستزادة من ضيق صدره وحدة خلقه قبل ان اتفحص خفايا مسكنه من الداخل .

وإن هى إلا خطوة خطوتها حتى وجدت نفسى فى حجرة الجلوس العائلية التى تلى الباب مباشرة ، دون أن يتوسطهما دهليز أو ردهة .. وهم يطلقون عليها فى هذه الأنحاء اسم « البيت » تجوزا ، إعلاء لقدرها عندهم ، وتشمل عادة المطبخ وحجرة الجلوس معا . ولكنى أعتقد ان المطبخ فى (مرتفعات ويذرنج) يقع فى مكان آخر من الدار ـ او هذا على الأقل ما تبينته ـ اذ بلغت مسامعى من مكان سحيق غمغمة الكلام وقعقعة الآنية ، وفى الوقت نفسه لم اجد حول الموقد الضخم اثرا للشواء والسليق او خبز الفطائر ، ولم المح على الجدران بريق القدور النحاسية او المصافى اللامعة الحديثة الطلاء .. ومع ذلك كان احد أركان القاعة يعكس الضوء والحرارة من صحاف واسعة مصنوعة من الصفيح السميك ، تناثرت بينها اباريق وقنانى من الفضة ، وقد رصت صفوفا طبقة بعد طبقة فوق (بوفيه) عريض يرتفع حتى يبلغ السقف .. وكان هذا الأخير غفلا لم تمسسه يد بطلاء أو دهان ، ودقائقه الداخلية ظاهرة للعيون المتفحصة ، إلا رقعة منه كان يخفيها اطار من الخشب مثقل بما يتدلى منه من فطائر دقيق

الشوفان المجففة وافخاذ البقر والضأن والخنازير المقددة . وكانت على الجدار فوق المدفأة بنادق عتيقة مختلفة الأشكال قبيحة المنظر ، ومسدسان هائلان داخل جرابين من الجلد ، كما رصت على رف المدفأة ثلاث علب ذات رسوم زاهية صاخبة وضعت على سبيل الزينة .. وكانت ارضية القاعة من حجر أبيض مصقول ، والمقاعد من طراز عتيق ذات طلاء اخضر وظهور مرتفعة مستقيمة ، الا مقعدا او اثنين من المقاعد السوداء الثقيلة كانا فى ركن معتم من القاعة .. وكانت تقبع فى فجوة تحت (البوفيه) كلبة رائعة الخلقة من كلاب الصيد ، ذات لون أحمر قاتم ، حديثة عهد بولادة فوج من صغارها ، وقد احاط بها سرب من الجراء الصغيرة التى لا تكف عن الصراخ ، على حين كان عدد آخر من الكلاب ، رابضا فى بعض منافذ الحجرة الأخرى .

ولم يكن المسكن والأثاث يلوحان على شيء من الغرابة او الشذوذ لو انهما كانا لريفى بسيط من اهل الشمال ، من اولئك الرجال ذوى الأسارير التى تنضح بقوة الشكيمة . والسيقان القوية التى تنبض عضلاتها فى السراويل المحكمة الضيقة عند الركبتين ، و « الطزالق » الطويلة اللامعة .. ولو انك تجولت فى دائرة محيطها خمسة اميال او ستة بين هذه التلال ، فى الوقت الملائم بعد العشاء ، لوجدت الكثيرين من امثال هذا الانسان ، وقد جلس كل منهم فى مقعده المريح ذى المسندين ، وقدح الجعة يفور امامه بالزبد والحبب فوق مائدة مستديرة .. أما مستر هيثكليف فان التباين العجيب كان

واضحا بينه وبين مسكنه وطراز معيشته : فهو فى هيئته داكن البشرة أشبه بالفجر ، بينما هو فى ثيابه ومسلكه سيد مهذب لا يختلف عن سراة الريف ونبلائه . وقد يكون قليل الاحتفال بهندامه إلى حد ما ، ولكنه ، مع ذلك الاهمال فى العناية بنفسه ، لا يبدو شاذا او منفرا للأبصار ، إذ كان ممشوق القوام رشيقا .. وهو إلى ذلك يبدو مكتئبا ضيق الصدر دواما ، وربما خاله بعض الناس على قدر من الكبر والخيلاء السوقية التى تنم عن ضعة الأصل ، ولكن شعورا من الميل اليه انبعث من اعماقى يحدثنى بأن الأمر لم يكن كذلك البتة ، وادركت بغريزتى ان تحفظه انما ينبع من نفوره من اظهار عواطفه فى ضجيج وعجيج ، ومن تبادل العواطف والمجاملات فى مظاهرات علنية ! .. فهو يسدل على حبه وبغضائه ستارا من الكتمان ، كما يرى ان إبداء الحب او البغضاء نحوه ضرب من القحة .. ولكن لا أحسبنى أعدو سريعا نحو النتائج قبل الأوان ، وأرانى اغدق عليه من صفاتى الشخصية فى سخاء ، فقد تكون لدى مستر هيثكليف أسباب اخرى تختلف كل الاختلاف عن تلك التى لدى ، عندما يقبض يده ويخفيها فى طيات ثيابه حين يرى من يسعى إلى التعرف به .. ومالى لا أعترف بأن تكوينى يكاد يكون غريبا غير مألوف ؟.. لقد اعتادت أمى العزيزة ان تقول لى إننى لن يكون لى بيت مريح تسكن إليه نفسى . وقد ثبت لى فى الصيف الماضى اننى لا استحق البتة ان يكون لى بيت واسرة . فبينما كنت استمتع بشهر من الطقس الجميل على شاطيء البحر ، القت إلى المصادفة برفقة مخلوقة من اروع ما خلق الله فتنة

وسحرا ، وكانت تلوح فى ناظرى الهة معبودة طالما انها لم تكن
تعيرنى انتباها .. على انى لم اصارحها بحبى بالكلمات قط ،
ومع ذلك فان كانت للنظرات لغة مفهومه فلا بد ان اشد
الناس غباء أدركوا اننى غارق فى حبها حتى اذنى ! .. وقد
شعرت الفتاة بعاطفتى أخيرا ، وراحت ترد لى النظرة بالنظرة
وتنطق عيناها بأحلى واشهى ما يتخيله إنسان .. فما الذى
فعلته انا ؟ .. اننى اعترف بذلك والخجل يملؤنى .. لقد
انكمشت فى نفسى فى برود عجيب . اشبه بانكماش القوقعة !
.. كنت لدى كل نظرة منها أزداد انزواء وبرودا وانكماشا .
حتى أخذت البريئة المسكينة تشك فى صدق حدسها .
وتكذب ما انبأتها فراستها وحواسها ، وما لبثت ان غمرها
الخجل والارتباك لخطئها المزعوم ، فاغرت امها بالرحيل عن
المكان ! .. وهكذا وصمنى هذا التحول الغريب فى مسلكى
بصفة الرجل المجرد عن المشاعر الذى يتعمد القسوة ليحطم
قلوب العذارى ، وانا وحدى الذى اعلم كم كنت مظلوما فى
هذه السمعة ..

***

واتخذت مجلسى عند طرف المدفاة قبالة المقعد الذى كان
مضيفى يتقدم نحوه ، وأردت ان اقطع فترة الصمت الذى
ساد بيننا لحظة ، فحاولت ان اربت على الكلبة الأم التى كانت
قد فارقت صغارها وانت تتشمم اقدامى من الخلف فى ضراوة ،
وقد قوست شفتها إلى اعلى وكشفت عن انياب بيضاء يسيل
منها اللعاب اشتهاء لشىء تنشبها فيه ! .. ولكن مداعبتى لم



فحاولت أن أربت على الكلبة الأم التى كانت قد فارقت
صغارها وأنت تتشمم أقدامى من الخلف فى ضراوة ..

تلق منها قبولا ، وإنما اثارت زمجرة طويلة مخيفة ما ان انبعثت من حلقها حتى تلتها زمجرة أخرى من مستر هيثكليف الذى ركلها ركلة شديدة وهو يقول لى :

ـ خير لك أن تدع الكلبة وشأنها ، فانها لم تعتد أن نفسدها بالتدليل ، كما اننا لا نقتنيها لتكون مسلاة لنا ..

ثم مضى فى خطوات سريعة نحو باب جانبى وهو يصيح من جديد : جوزيف ! .. فغمغم جوزيف من اعماق القبو بالفاظ غير مفهومة ، ولكنه لم يبد ميلا الى الصعود ، فاندفع سيده يهبط الى القبو خلفه ، وتركنى وجها لوجه مع الكلبة الخبيثة ، وقد انضم اليها اثنان من كلاب الرعاة الخشنة الشعر البشعة المنظر ، شاركاها فى فرض رقابة دقيقة على حركاتى .. وإذ كنت لا اتوق إلى الاتصال من قرب أو من بعد بانياب هذه الطغمة ومخالبها ، فقد جلست ساكنا بلا حراك . غير اننى وقد مللت السكوت وخيل إلى ان الكلاب لا تفهم الاهانات الضمنية ، عكفت ـ لسوء الحظ ـ على تحريك وجهى حركات ساخرة من « الثلاثى الأثيم » .. وكانما اثار « السيدة » شىء ما فى محياى ، فاذا بها تنقض على ركبتى فجاة وقد تملكها غضب شديد .. ودفعتها إلى الخلف دفعة قوية ، واسرعت اضع المائدة حائلا بينى وبينها ، غير أن هذا المسلك اثار « الخلية » بأسرها ضدى ، فاذا بستة من الأعداء ذوات الأربع ، من جميع الأحجام والأعمار ، تتدفق إلى ميدان المعركة من أوكار خفية ، واذا بى احس

بأعقابى واطراف سترتى هدفا لهجوم المعتدين .. فتناولت محرك النار من المدفاة ، ورحت أدفع به عنى كبار المحاربين بقدر ما وسعنى من جهد وحيلة ، غير انى اضطررت فى الوقت نفسه إلى الصياح عاليا فى طلب النجدة من بعض سكان المنزل ليعيد الأمن والسلام إلى الحجرة !

وصعد مستر هيثكليف وخادمه سلم القبو فى تثاقل وقد لاح عليهما الغضب والحنق ـ ولست اظنهما قد اسرعا فى خطوهما ثانية واحدة عما الفاه ـ برغم ان منطقة المدفاة كانت مسرحا لعاصفة عاتية من الزمجرة والنباح وصيحات الغضب ! .. ولكن احد سكان المنزل كان ـ لحسن حظى ـ اسرع منهما إلى المبادرة بنجدتى ، فقد اندفعت نحونا سيدة قوية البنية ذات ساعدين عاريين وثوب مشمر عند الوسط ، ووجنات متوردة من لفحات النار ، ومضت تفرق بينى وبين أعدائى وهى تستخدم مقلاة فى يدها تلوح بها ، ولسانا بليغا كان له أثره الحاسم فى وقف العدوان ، إذ هدأت الزوبعة فجاة كانما مستها عصا ساحر بارع ! .. وكانت السيدة ما تزال تلهث كأمواج البحر حين تهب عليها عاصفة عاتية ، عندما دخل سيدها إلى المسرح ، سألنى وهو يحدجنى بنظرة سخط لم يكن فى وسعى أن احتملها بعد هذه المعاملة الجافية :

ـ ماذا حدث بحق الشيطان ؟

فأجبته صاخبا : « بحق الشيطان فعلا يا مستر هيثكليف ! »

.. فان قطيعا من الخنازير تملكته الشياطين لا يؤوى فى جوفه من الأرواح الشريرة ما تؤويه حيواناتك هذه يا سيدى ! .. إنك كمن يترك شخصا غريبا بين فصيلة من النمور .. ! ».

فقال وهو يضع الزجاجة أمامى ، ويعيد المائدة إلى مكانها :

ـ انها لا تتحرش بالأشخاص الذين لا يمسون شيئا .. والكلاب اذا كانت يقظة ساهرة انما تؤدى واجبها المفروض .. هل لك فى كأس من النبيذ ؟

ـ كلا وشكرا ..

ـ انها لم تعضك ، اليس كذلك ؟

ـ لو انها فعلت لكنت قد تركت اثرا منى لا يزول على الفاعل الخبيث !

فلانت أسارير مستر هيثكليف فيما يشبه ابتسامة عابرة وقال :

ـ هيا .. هيا .. لقد استبد بك الانفعال يا مستر لوكوود ، فخذ قليلا من النبيذ .. والحق ان الضيوف فى هذه الدار نادرون ، وهم من القلة بحيث لا نعرف ، انا والكلاب التى قنيتها . كيف نستقبلهم .. فى صحتك ياسيدى !

فانحنيت أمامه أرد له التحية ، ثم شربت نخبه ، وقد بدأت أتبين مبلغ السخف فى ان أجلس متجهما عبوسا بسبب

سوء مسلك حفنة من الكلاب الأوغاد . وفضلا عن ذلك كرهت أن اتيح لمضيفى المزيد من التسلية على حسابى بعد أن اتجهت سخريته إلى هذه الوجهة .. ولعله رأى بفطنته أن من الحمق ان يغضب مستأجرا طيبا، فإنه اطلق نفسه على سجيتها وانطلق يتحدث إلى فى أسلوبه المقتضب ، عن الموضوع الذى خاله مشوقا لى ، وهو الحديث عن مزايا الدار التى استأجرتها لأعتكف فيها واستجم . وعما قد يكون فيها من مساوىء .. ولقد وجدته جم الذكاء بارع الحديث ، يجيد معالجة المواضيع التى طرقناها ، حتى بلغت الجراة ـ قبيل انصرافى ـ حدا جعلنى اندفع فاعده بزيارة اخرى فى اليوم التالى .. وما من ريب فى انه لم يكن راغبا فى المزيد من تطفلى عليه ، ولكنى سوف اذهب لزيارته برغم ذلك ، فمن المذهل حقا أن احس بنفسى رجلا اجتماعيا يحب الاختلاط ومعاشرة الناس ، بالمقارنة به !

* * *

الفصل الثانى

كان عصر الأمس قارس البرد كثيف الضباب ، فأحسست ميلا إلى قضاء الأمسية بجوار المدفاة فى مكتبى ،بدلا من خوض الوحول والأحراش إلى (مرتفعات ويذرنج) .. فلما فرغت من تناول غذائى (ملحوظة : اننى أتغدى هنا بين الثانية عشرة والواحدة ، اذ أن مدبرة المنزل ـ وهى سيدة فى منتصف العمر ، تسلمتها مع البيت كأنها بعض أثاثه الثابت ! ـ لم تستطع ، أو لم تشأ ، أن تفهم رغبتى فى تناوله فى الخامسة) .. صعدت الدرج متثاقلا إلى الطابق العلوى ، تتراوحنى هـذه النية المتكاسلة ، ثم خطوت إلى حجرتى ، ففوجئت بفتاة من الخدم تبرك أمام المدفاة وقد أحاطت بها الفرش ودلاء الفحم ، محاولة إطفاء اللهب بأكوام من الرماد أثارت حولها غبارا كثيفا مروعا .. فردنى هذا المنظر على أعقابى ، وأسرعت بتناول قبعتى ، وما لبثت بعد مسـيرة أربعة أميال أن بلغت بوابة حديقـة « هيثكليف » فى اللحظة المناسبة بحيث نجوت من ندف الثلج الذى بدأ ينهمر فيملأ الجو بما يشبه الريش المتطاير ..

وكانت الأرض ، عند قمة التل الكئيبة الباردة ، صـلبة يغطيها جليد أسود ، بينما كان البرد يبعث القشعريرة فى كل جارحة من بدنى .. واستعصت على السلسة ولم استطع نزعها ، فتسلقت البوابة وانطلقت أعدو فوق الممر المرصوف بالبلاط ، والذى تتاخمه من الجانبين شجيرات عنب الديب المتنـاثرة بغير نظام أو ترتيب .. فلمـا بلغت الباب رحت

اطرقه ، وما من مجيب ، حتى آلمتنى مفاصل أصابعى ، وكان الجواب الوحيد الذى تلقيته من داخل المنزل هو نباح الكلاب وزمجرتها .. !

وجعلت أقول فى نفسى سـاخطا : « لعنة الله عليكم أيهـا الأنذال المناكيد سكان هذا المنزل ! .. والله إنكم لتستحقون النفى الأبدى عن أمثالكم من البشر جزاء جلافتكم وسوء لقياكم للضيوف .. اننى ، على الأقل ، ماكنت لأدع بابى موصـدا فى رائعة النهار ، ولكنى لن أبالى وسوف أدخل المنزل على كل حال ! »

واذ استقر عزمى على ذلك ، أمسكت بسقاطة الباب ورحت أهزها فى قوة وعنف ، فاذا بجوزيف ذى السحنة الكئيبة يطل برأسه من كوة مستديرة فى مخزن الغلال ، ويصيح بى :

ـ ماذا تريد ؟ .. ان السيد هناك فى الحقل ، وعليك أن تنعطف عند نهاية الممر اذا أردت أن تتحدث اليه ..

فهتفت أجيبه :

ـ الا يوجد فى المنزل من يفتح لى الباب ؟

ـ لا يوجد سوى السيدة ، ولن تفتح لك ولو مكثت تطرق الباب حتى الليل !

ـ لماذا ؟ .. ألا يمكنك أن تخبرها من أكون يا جوزيف ؟

ـ محال أن أفعل ، فلا شأن لى بهذا ..

وما لبث رأس الوغد أن توارى داخل الكوة !

وبدأ الثلج ينهمر غزيرا كثيفا ، فأمسكت بمقبض البـاب لأشرع فى محاولة اخرى ، عندما اقبل من الفناء خلفى شاب فى مقتبل العمر ، لا يرتدى معطفا ، ويحمل فوق كتفه مذراة للدراس ، فصـاح بى ان أتبعه .. وبعـد أن اجتزنا حجرة للغسيل ومررنا بساحة مرصوفة تحوى مخزن فحم ، ومضخة مياه ، وبرج حمام ، وصلنا اخيرا إلى القاعة الفسيحة الدافئة التى استقبلت فيها اول مرة . وكانت تشع بهاء وبهجة فى وهج النار العظيمة المستعرة فى المدفأة ، والتى تندلع من كتل الفحم وشرائح الحطب واوراق الشجر الجافة .. وشـد ما سررت إذ لمحت بجوار المائدة ـ التى كانت محملة بالكثير من الطعام المعد للعشاء ـ تلك السيدة التى ذكرها جوزيف ، فاذا بى ارى مخلوقة لم يخطر ببالى قط اننى ملاقيها فى هذا المكان .. وانحنيت امامها محييا ، وانتظرت ان تدعونى للجلوس ، الا انها راحت تتطلع إلى وقد استندت إلى ظهر مقعدها ، وظلت جامدة فى مكانها لا تريم ولا تنبس ببنت شـفة ! .. فقلت :

ـ يا له من جو فظيع ! .. اخشى يامسز هيثكليف ان يكون الباب قد حمل عواقب إهمال خدمكم وتراخيهم ، فقد لقيت عناء شديدا فى إسماعهم صوت طرقاتى ...

ولكنها لم تفتح فمها بكلمة . كنت انظر اليها متفرسـا ، فكانت تحدجنى بانظارها دون ان تطرف عيناها ! .. ومهما يكن من أمر فانها ظلت تحملق فى بنظرات ثابتة باردة خالية من اى معنى أو اكتراث ، حتى انتابنى الضيق والحرج ..

وعندئذ قال الشاب فى غلظة : « اجلس .. سوف يحضر عما قليل .. » .

فأطعته وجلست صامتا .. ثم تنحنحت وحاولت ان أنادى (جونو) الشريرة التى تنازلت فى هذا اللقـاء الثانى وهزت طرف ذيلها هزات يسـيرة دليلا على سابق تعارفنا .. وما لبثت ان قلت :

ـ هذه كلبة جميلة حقا ! .. هل تنوين التخلى عن الصغار ياسيدتى ؟

فقالت ربة الدار الجميلة فى اقتضاب : « انها ليست ملكى » .. ولكنها نطقت بهذه العبارة فى لهجة اشد تحفظا ونفورا مما كان يمكن ان يجيبنى بها هيثكليف نفسه ! .. ومع ذلك فقد استطردت أقول وقد تحولت نحو كومة تقبع فى مكان معتم وتكتظ بما يشبه القطط :

ـ آه ! .. ان حيواناتك الأليفة المفضلة بين هذه إذن ؟

فاجابتنى فى ازدراء : « ما اعجبها نخبـة من الحيـوانات المدللة ! » ـ فقد شاء سوء طالعى ان يكون ما اشرت اليـه كومة من الأرانب الميتـة ! ـ وارتبكت ، فتنحنحت ثانيـة واقتربت بمقعدى من النار ، ثم عدت اكرر تعليقاتى على سوء الحالة الجوية فى تلك الأمسية ، فقالت :

ـ ما كان ينبغى أن تغادر منزلك ..

ثم نهضت ومشت إلى رف المدفأة وهى تهم بتناول اثنتين من العلب الملونة الموضوعة فوقه .. وكان مجلسها محجوبا عن

الضوء ، أما الآن فقد استطعت أن أرى وجهها وقوامها فى جلاء . كانت نحيلة الجسم لا يكاد يبدو عليها أنها جاوزت سن المراهقة ، كان قوامها فاتنا ، اما وجهها فكان ابدع وارق وجه اتيح لى ان أراه من قبل : دقيق الملامح ، ناصع البياض ، وكانت خصلات شعرها الشبيهة بلون سنابل القمح ، أو بالأحرى الذهبية اللون ، تنسدل على عنقها البض الجميل .. وكانت لها عينان لو لانت نظراتهما قليلا لغدا لهما سحر لا يقاوم ! .. ومن حظ قلبى السريع التأثر والحساسية ان العاطفة الوحيدة التى كانت تطل منهما كانت تتذبذب بين الزراية والاستخفاف وقلة الاكتراث ، وبين نوع من اليأس والقنوط كان وجوده فيهما أمرا بالغ الغرابة والشذوذ !

كانت العلب بعيدة نوعا عن متناول يدها ، فبدرت منى حركة لمعاونتها ، واذا بها تستدير نحوى فى وحشية كما يفعل البخيل الشحيح اذا هم احد بمعاونته فى احصاء ذهبه ، وهى تندفع قائلة :

– لست فى حاجة لمعونتك ، ففى وسعى أن آخذها بنفسى ..

فأسرعت أقول لها : « أرجو المعذرة .. » .

وأخذت تربط مرولة فوق ثوبها الأسود الأنيق ، ثم أمسكت بملعقة ملأى بأوراق الشاى كانت تهم بوضعها فى الابريق ، غير انها توقفت لتسألنى : « هل دعيت لتناول الشاى ؟ » .

فأجبتها : « يسرنى أن أنال قدحا منه .. » .

فعادت تقول : « ولكن هل دعيت ؟ » .

عندئذ قلت وأنا أحاول الابتسام : « كلا .. ولكنك صاحبة الشأن فى دعوتى » . فطوحت بالشاى والملعقة معا إلى داخل العلبة ثانية ، وعادت إلى مقعدها فى نفور واشمئزاز ، وقد تغضن جبينها ، واختلجت شفتها السفلى القانية كطفل يهم بالبكاء !

وفى الوقت نفسه كان الشاب قد القى على كتفيه سترة رثة بادية القدم ، ثم وقف بقامته المنتصبة أمام النار المتاججة ، وهو يحدجنى من عل من ركنى عينيه بنظرة تفيض بالحقد والضغينة ، كأن بيننا ثأرا قاتلا لم ينتقم له بعد ! .. وبدأت أتساءل إن كان من الخدم أو السادة ، فقد كان ثوبه وحديثه كلاهما سواء فى الخشونة والغلظة ، كما كان خاليا تماما من مظاهر الرقى التى تبدو على مستر ومسز هيثكليف .. وكان شعره الأسمر كثيفا مجعدا خشنا غير منسق ، شعر فوديه(1) يتدلى فوق صدغيه كالدببة ! .. أما يداه فكانتا سمراوين خشنتين أشبه بأيدى الفعلة والعمال .. ومع ذلك كان مسلكه يتسم بالحرية والانطلاق ، بل بالتعالى والأنفة ، لا يظهر شيئا من ذلك الاحترام والاهتمام اللذين يبديهما الخدم نحو سيدة الدار .. وإذ كنت لا املك دليلا واحدا على حقيقة مركزه ، فقد رأيت من الأفضل ان اكف عن الالتفات إلى مسلكه العجيب .. وما لبث مقدم هيثكليف ، بعد دقائق خمس ، أن خلصنى من حيرتى وارتباكى إلى حد ما ، فقلت له وأنا اصطنع الجذل لرؤيته :

(1) الفود : ما يلى الأذن من شعر الرأس .

ـ هانت ذا ترى يا سيدى أننى حضرت وفاء بوعدى .. ولكنى أخشى أن يحبسنى هذا الجو الصاخب فى منزلك نصف ساعة ، اذا وسعنى رحابك هذه الفترة ..

فاجاب وهو ينفض رقائق الثلج البيضاء عن ثيابه :

ـ نصف ساعة ؟.. انى لأعجب كيف تختار ذروة العاصفة الثلجية للتجول خارج منزلك خلالها ! .. هل تعلم أنك انما تخاطر بتعريض نفسك للضياع وسط المستنقعات ؟ .. ان الذين الفوا هذه البرارى غالبا ما يضلون الطريق فى ليلة كهذه ، وفى وسعى ان اوكد لك بانه لا ينتظر ان تتغير حالة الجو عن قريب ..

ـ ربما استطعت أن آخذ دليلا من بين غلمانك ، على أن يبقى فى (الجرانج) حتى الصباح .. فهل يمكنك أن تستغنى عن أحدهم ؟

ـ كلا .. لا يمكننى ذلك .

ـ آه .. حقا ؟ .. حسنا لا بد لى إذن من أن أعتمد على فطنتى ..

ـ هراء !

وفى تلك اللحظة صاح ذو السترة البالية وهو يحول نظراته الثاقبة الضارية عنى إلى السيدة الشابة : « الا تريدين إعداد الشاى ؟ »

ولكنها قالت تسأل هيثكليف عنى : « هل سيتناول «هو» شيئا منه ؟ »

ـ اسرعى باعداده حالا !

وقد انثالت هذه الكلمات من فمه فى وحشية منقطعة النظير بحيث انتفضت مجفلا .. وكانت اللهجة التى قيلت بها تنم عن خلق حاد وصدر ضيق ، حتى لم اعد ميالا إلى وصف هيثكليف بانه شخص عظيم كما خلته فى بادىء الأمر !

***

فلما تم اعداد المائدة دعانى اليها فى جفاء بقوله : « هيا ياسيدى .. قرب مقعدك إلى الأمام » . وهكذا اجتمعنا جميعا حول المائدة ، بما فى ذلك هذا الشباب الفظ الخشن ، واخذنا نلوك طعامنا وقد ران علينا صمت كئيب ..

وظننت من واجبى أن ابدد تلك السحابة التى تخيم فوقنا ، ما دمت السبب فى انعقادها فى الجو ـ فما أحسب من المعقول ان يجلسوا كل يوم على هذه الحال من العبوس والعزوف عن الكلام .. كذلك من المحال ، مهما يكن من حدة طباعهم وسوء خلقهم ، ان يكون ذلك التجهم الشامل هو طابع أساريرهم المألوف ـ وهكذا بدأت اقول فى الفترة بين ارتشاف قدح من الشاى واستقبال قدح آخر :

ـ ما اغرب ما تطبعه العادة من اثر فى اذواقنا وافكارنا ! .. ان الكثيرين لا يمكنهم ان يتصوروا امكان وجود السعادة فى حياة تقضى على هذا النمط من النفى المطلق عن العالم ، كالحياة التى تقضيها يامستر هيثكليف .. ومع ذلك أستطيع القول بأنك وقد احاطت بك أسرتك ، ومعك زوجتك المحبوبة كالملاك الحارس على بيتك وقلبك ..

فقاطعني قائلا ، وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة شيطانية ساخرة :

ـ زوجتي المحبوبة ؟ .. اين هي .. زوجتي المحبوبة ؟

ـ أعني مسز هيثكليف .. زوجتك !

ـ حسنا .. نعم .. آه ! . لعلك تقصد ان روحها قد تولت مهام الملاك المشرف على (مرتفعات ويذرنج) ، وحامى اقداره ومصائره حتى بعد ان فنى جسدها .. هل هذا ما تعنيه ؟

وإذ ألفيتنى قد ترديت فى زلة حمقاء ، رحت احاول ان اصلحها .. وكان ينبغى لى أن الحظ التفاوت العظيم فى السن بين الاثنين ، بما لا يجعلهما خليقين بان يكونا رجلا وزوجته . كان احدهما فى نحو الأربعين ، وهى سن النضج العقلى التى قلما ينتاب الرجل فيها هوس الزواج عن حب من الفتيات الصغيرات ـ فاننا انما نحتفظ بهذه الأحلام لتكون عزاءنا وسلوانا فى سن الشيخوخة الأخيرة ! ـ اما الأخرى فلا يبدو أنها بلغت السابعة عشرة !

وعندئذ ومضت الحقيقة أمام خاطرى فقلت لنفسى : « لعل زوجها هو هذا المهرج الذى يجلس عند مرفقى ، ويشرب نصيبه من الشاى فى طست ، ويأكل خبزه دون ان يغسل يديه ! .. انه هيثكليف الصغير ولا ريب ، وهذه عاقبة من تدفن نفسها حية ! .. قد ألقت بنفسها بين يدى هذا الحيوان الشرس لمجرد أنها تجهل وجود أشخاص خيرا منه بكثير .. يا لرحمة السماء ! .. لا بد لى من ان اكون على حذر مما

قد أسببه لها من ندم على سوء اختيارها ! » .. وربما لاح هذا الخاطر الأخير مليئا بالغرور والخيلاء من جانبى ، ولكن الواقع انه لم يكن من ذلك فى شىء ، فقد روعنى من جارى أنه ادنى إلى ان يكون منفرا حقا ، تعافه النفس .. اما انا فكنت اعلم ، من تجاربى الماضية ، اننى ادنى إلى ان اكون ساحرا جذابا !!

وفى تلك اللحظة كان هيثكليف يستطرد قائلا :

ـ ان مسز هيثكليف هى زوجة ابنى ..

فكان فى قوله ما طابق حدسى وتخمينى .. ولكنه إذ قال ذلك ، تحول نحوها يرمقها بنظرة غريبة تفيض بالحقد والكراهية ، الا ان تكون عضلات وجهه قدخلقت بالغة الشذوذ والانحراف بحيث لا تعبر ـ كسائر الناس ـ عما يعتمل فى نفسه ! وعندئذ تحولت إلى جارى الفتى قائلا فى خفة ونزق :

ـ آه ! .. طبعا ، لقد فهمت الآن ، فانت المالك المحظوظ لهذه الحورية الساحرة !

ولكن تلك الزلة الثانية كانت أدهى وامر ! .. فقد رايت وجه الفتى يحتقن بالدماء ، ورايته يستجمع قبضته وينم مظهره عن النية المبيتة للانقضاض على .. غير انه ما لبث أن استعاد سيطرته على مشاعره وانفثات عاصفة غضبه فى سيل من اللعنة القاسية التى وجهها لشخصى ، فحرصت على التظاهر بعدم الالتفات إليها .. بينما قال مضيفى :

ـ لم تكن موفقا فى ظنونك يا سيدى ، فان احدا منا لم

يوهب حظ امتلاك حوريتك الساحرة .. لقد مات زوجها ، وسبق أن قلت انها زوجة ابنى ..

ـ وهذا الشاب هو ؟

ـ انه ليس ابنى قطعا ..

وابتسم هيثكليف ثانية ، كما لو كانت نسبة أبوة هذا الدب إليه ضربا من المزاح الجرىء .. وفى الوقت نفسه كان الفتى يزمجر :

ـ ان اسمى هيرتون ايرنشو .. وانصح لك أن تحترمه !

فاجبته : « اننى لم ابد نحوه شيئا من عدم الاحترام » .

وكنت أضحك فى سرى من تلك الخيلاء التى أعلن بها اسمه .. ورأيته يحدجنى بنظرة طويلة لم أعن بمبادلته اياها طويلا خشية أن يبعثنى الاغراء على صفعه ، أو تنطلق منى قهقهة السخرية عالية مدوية ..

وبدات اشعر عن يقين بأن المكان يضيق بى فى محيط هذه العائلة البهيج ! .. فقد طغت كآبة الجو النفسى للمكان على المباهج المادية المحيطة بى وجردتها من سحرها الدافىء الجميل ، وعزمت على ان التزم الحذر فى الإقدام على زيارة هذا البيت مرة ثالثة ..

وإذ كانت مهمة الأكل قد انتهى امرها ، ولم ينبس واحد منهم بكلمة فى حديث مما يتبادله الناس فى مثل هذه الاجتماعات ، فقد اقتربت من النافذه لاتبين حالة الجو .. ويا لسوء ما رايت ! .. كانت ظلمة الليل قد أسدلت أستارها

قبل الأوان ، واختلطت معالم السماء والتلال فى دوامة واحدة رهيبة من الرياح الصاخبة والثلج الكثيف الخانق .. فلم أتمالك نفسى من الصياح :

ـ ما أحسبنى استطيع العودة لمنزلى الآن بغير دليل ، فالثلج يوشك ان يغمر الطرق ويخفى معالمها ، وحتى لو ظلت مكشوفة ، فان الظلام من الحلكة بحيث لا اكاد اميز خطوة واحدة امامى !

وكان هيثكليف يقول للشاب : « هيرتون .. عليك ان تسوق هذه الشياه الاثنتا عشرة إلى رواق المخزن ، وتضع امامها لوحا من الخشب ليمنع تسربها منه .. فسوف يغمرها الجليد اذا بقيت فى الحظيرة طوال الليل .. »

واستطردت اقول وقد تزايد انفعالى :

ـ ماذا ترانى فاعلا الآن ؟

ولم يجب احد على سؤالى ، فلما التفت خلفى لم اجد غير جوزيف وقد اتى يحمل دلوا به عصيدة للكلاب ، بينما كانت مسز هيثكليف منحنية فوق نار المدفاة وهى تتسلى بإشعال حزمة من عيدان الثقاب كانت قد سقطت من فوق رف الموقد عندما أعادت علبة الشاى إلى موضعها فوقه .. فلما وضع جوزيف حمله على الأرض اخذ يجيل فى الحجرة نظرات فاحصة ناقدة ، وما لبث ان قال بصوته الحاد الذى يشبه الصرير :

ـ شد ما أعجب كيف يطيب لك الوقوف هنا فى بلادة وخمول بينما انصرف الجميع لشأنهم .. ولكنك طبعت على

السوء ولا فائدة من الكلام معك ، فلن يجدى ذلك فى إصلاح مسلكك الذميم الذى سينتهى بك إلى الشيطان راسا كما سبقتك إليه أمك من قبل !

وخيل إلى لحظة أن هذه الدرة من درر الفصاحة كانت موجهة لشخصى ، وإذ كنت قد بلغت من الحنق والسخط حدا لا يحتمل المزيد ، فقد خطوت نحو الوغد العجوز وفى عزمى أن أركله بقدمى ركلة تلقى به إلى خارج الحجرة ، لولا أن مسز هيثكليف ردتنى إلى الصواب عندما سمعتها تجيبه :

ـ الا تخشى ايها الشيخ المنافق المفترى ان يصيبك مس من الشيطان كلما ذكرت اسمه على لسانك ؟.. إننى انذرك بأن تكف عن إثارتى وإلا رجوته ان يختطفك فيسدى إلى بذلك جميلا خاصا !.. مهلا .. انظر يا جوزيف ..

وتناولت من فوق أحد الأرفف كتابا طويلا أسود اللون ، ثم استطردت تقول : « سوف اريك كيف تقدمت فى دراسة السحر الأسود وممارسته شأوا بعيدا ، لن البث ان اجعل منه عما قريب موطئا سهلا لى !.. إن البقرة الحمراء لم تمت بمحض الصدفة يا جوزيف ، وآلام الروماتيزم التى تحل بك ليست من نفحات العناية الإلهية ! »

فغمغم الشيخ لاهثا : « آه !. الشريرة !. الشريرة !. اللهم نجنا من السوء ! »

ـ كلا ايها الخبيث .. فانت طريد رحمته !.. امش من هنا وإلا أصابك منى أذى جسيم .. سوف اصنع لكم جميعا

تماثيل من الشمع والصلصال ، ومن يجرؤ منكم على تجاوز الحدود التى أرسمها فسوف .. لا ، لن اقول ماذا سيحل به ، ولكنكم سوف ترون .. اذهب .. امش من هنا ، فهأنذا اسلط عليك نظراتى ..

واصطنعت الساحرة الصغيرة نظرات تفيض بالحقد والكراهية ملأت بها عينيها الجميلتين ، وإذا بجوزيف يهرول خارجا ، وقد سرت فى بدنه رعدة فزع حقيقى ، وهو يتمتم اثناء انصرافه بالصلوات والدعوات التى تتخللها كلمة «يا للشريرة !.. يا للشريرة !» .. بينما كنت اغالب الضحك ظنا منى بأن مسلكها ليس إلا نوعا من المزاح الرهيب ..

فلما وجدت بعد ذلك أننا أصبحنا منفردين ، حاولت أن أثير اهتمامها بما أنا فيه من كرب .. فقلت فى لهفة :

ـ أرجو ان تغفرى لى إزعاجك يامسز هيثكليف ، فإنى على يقين من أنك ـ وأنت صاحبة هذا الوجه الصبوح ـ لا يسعك إلا أن تكونى طيبة القلب عطوفا .. فهلا أرشدتنى إلى بعض علامات الطريق حتى أستهديها السبيل إلى منزلى؟.. إننى الآن ليست لدى اية فكرة عن طريق الوصول إليه ، اكثر مما يمكن ان يكون لديك عن طريق الوصول إلى لندن !

فأجابت وهى تتهاوى على أحد المقاعد ومعها شمعة موقدة وذلك الكتاب الطويل الأسود مفتوحا :

ـ خذ الطريق الذى قدمت منها !.. هذه نصيحة موجزة ولكنها الوحيدة المجدية التى أستطيع ان أسديها إليك ..



واصطنعت الساحرة الصغيرة نظرات تفيض بالحقد والكراهية ملأت بها عينيها الجميلتين ، واذا بجوزيف يهرول خارجا ..

ـ وإذا سمعت اننى وجدت ميتا فى بركة ماء أو حفرة مليئة بالجليد ، فهلا يهمس لك ضميرك بانك مسئولة عن ذلك إلى حد ما ؟

ـ وكيف ذلك ؟.. ليس فى وسعى أن ارافقك بنفسى ، وهم لن يسمحوا لى بالذهاب إلى نهاية سور الحديقة ..

فهتفت قائلا :

ـ انت ؟.. انه ليسوؤنى ان اسالك اجتياز عتبة هذه الحجرة ، مرضاة لى ، فى مثل هذه الليلة .. إنما وددت ان تدلينى على الطريق لا ان تريني إياها .. او تقنعى مستر هيثكليف بأن يرسل معى دليلا يرشدنى ..

ـ من تريد ؟ .. ليس هنا سواه وسوى ايرنشو وزيلا وجوزيف .. فاينا تريد أن يكون الدليل ؟

ـ الا يوجد غلمان فى المزرعة ؟

ـ كلا ، هذه جماعتنا كلها ..

ـ إننى إذن مضطر إلى البقاء هنا ..

ـ هذا امر يمكنك أن تتفق عليه مع مضيفك . اما انا فلا شان لى به ..

وعندئذ انبعث صوت هيثكليف الصارم من ناحية المطبخ وهو يصيح بى :

ـ لعل لك فى ذلك درسا يعلمك الا تقوم بمزيد من تلك الجولات الطائشة بين هذه التلال . اما عن بقائك هنا ، فليس

لدى معدات لإيواء الضيوف ، وعليك أن تشاطر هيرتون أو جوزيف فراشه إذا فعلت ..

ـ يمكننى ان انام على مقعد فى هذه الحجرة ..

فأجابنى الشقى البذىء اللسان :

ـ كلا .. كلا .. فالغريب غريب سواء اكان غنيا أم فقيرا .. وليس مما يوافقنى أن أبيح حرمات مسكنى لكائن من كان عندما اكون غافلا عنه !

وبلغ صبرى نهايته بهذه الإهانة الصارخة ، فصحت معربا عن اشمئزازى ، واندفعت أتخطاه نحو الفناء ، مرتطما بأيرنشو فى عجلتى ، فقد كان الظلام من الحلكة بحيث لم اتبين مسالك الخروج .. وبينما كنت أهيم على وجهى فى الظلام سمعت (عينة) أخرى من المجاملات الرقيقة المهذبة التى يتبادلونها فيما بينهم !.. فقد لاح الشاب بادىء ذى بدء مظاهرا لى متطوعا لنصرتى ، إذ قال :

ـ سوف أذهب معه حتى المتنزه ..

فصاح به سيده ـ أو كيفما كانت الصلة التى بينهما ـ قائلا :

ـ سوف تذهب معه إلى الجحيم ! .. ومن الذى سيعنى بالجياد ؟

فغمغمت مسز هيثكليف فى رقة كانت أكثر مما توقعت :

ـ إن حياة رجل لهى أكثر اهمية من إهمال الجياد ليلة واحدة .. ولا بد لشخص ما أن يذهب معه ..

فتحول هيرتون نحوها قائلا فى غلظة :

ـ لن اذهب بامر منك ! .. وإذا كنت تقيمين وزنا له ، فخير لك أن تصمتى ..

فأجابته فى حدة :

ـ ارجو أن يراود شبحه أحلامك إذن ! .. كما ارجو الا يجد مستر هيثكليف مستأجرا آخر للجرانج حتى يصبح ركاما وانقاضا !

وعندئذ غمغم جوزيف ، الذى كنت أتقدم ناحيته ، قائلا :

ـ اسمعوا ! . اسمعوا ! . انها تصب اللعنات عليهم !

وكان يجلس على مرمى السمع منا ، يحلب الأبقار فى ضوء فانوس يضعه على الأرض بجانبه ، فبادرت إلى التقاطه دون استئذان او اعتذار ، واندفعت نحو أقرب باب جانبى فى السياج ، وانا أهتف بهم اننى سوف أعيده لهم فى الغد ..

ولكن الشيخ المأفون انطلق يصيح وهو يطاردنى :

ـ يا سيد ! .. يا سيدى ! .. لقد سرق الفانوس ! .. هيا يا « جناشر » ، هيا يا وولف اذهبا وراءه .. أمسكاه !

وهكذا ما كدت اهم بفتح الباب الصغير ، حتى كان الوحشان ذوا الشعر الكثيف قد انقضا على عنقى ، فالقيا بى الى الأرض ، وانطفأ المصباح ، بينما انفجر هيثكليف وهيرتون معا يقهقهان فى سرور وابتهاج جعل شعورى بالغضب والهوان يبلغ الذروة .. ومن حسن الحظ أن الوحشين كانا اكثر اهتماما بالزمجرة والنباح ،ونشر مخالبهما ، والتلويح بذيليهما ،

من تذوق لحمى وهما ينهشانى حيا ! .. ولـكنهما ما كانا يطيقان منى حركة او نهوضا ، فاضـطررت برغمى أن اظل راقدا فى مكانى حتى طاب لسادتهما الأشرار ان يخلصونى من هذا الكرب .. ووقفت انتفض حنقـا وغيظا ، وقد طارت قبعتى ، فرحت أهيب باللئام أن يدعونى أنصرف على الفـور - وإلا تعرضوا لخطر جسيم اذا احتجزونى دقيقة واحدة أخرى ! ـ كمـا انثالت من فمى عبارات الوعيـد والتهديد ، مختلطة غير متناسقة أشبه بالهذيان ، منذرة إياهم بالانتقام الرهيب ، فكانت بما تنطق به حقد عميق غير ذى قرار ، أشبه بأقوال الملك « لير » بطل شكسبير المعروف !

واشتد بى الانفعال ، واستعر اوار الغضب ، حتى سـال الدم من أنفى غزيرا ، وما زال هيثكليف يتهقـه مسرورا ؛ وما زلت ماضيا فى التعنيف والتأنيب .. ولست أدرى كيف كان يمكن ان ينتهى هذا المشهد ، لولا تدخل شخص اكثر منى تعقلا وأكثر من مضيفى رحمة واحسانا .. تلك هى زيللا ـ مدبرة المنزل البدينة ـ التى اندفعت اخيرا من داخل الدار لتسأل عن سبب هذه الجلبة .. وكانت تظن أن بعضهم قد اعتدى على اعتداء عنيفا ، وإذ كانت لا تجرؤ على مهـاجمة سيدها ، فقد مضت تطلق « مدفعية » لسانها على الوغـد الصغير ، وهى تصرخ قائلة :

ـ الله الله يامستر أيرنشو ! .. انى لاتسـاءل عما أنت بسبيله بعد ذلك ! .. ترى هل بلغ بنا الأمر إلى حـد ذبح

الناس على عتبة دارنا ؟ .. أرى أن هذا المنزل لم يعد يصلح لى بعد الآن ! .. انظر إلى الفتى المسكين .. انه يوشك على الاختناق .. تعال يا هذا .. تعال .. فما ينبغى أن تذهب وأنت على هذه الحال .. ادخل ، وسوف أعالجك مما حل بك .. والآن ، امسك نفسك !

وإذ كانت تنطق بهذه الكلمات الأخيرة ، اراقت فوق راسى فجاة اناء من الماء المثلج ، انحدر فوق ظهرى ، ثم جذبتنى إلى داخل المطبخ .. وتبعنا مستر هيثكليف ، وقد تلاشى مرحه العارض سريعا ، وحل محله ذلك التجهم المالوف ..

ولما كنت فى اسـوا حالات المرض ، وقد حـل بى الدوار والاعياء ، فقد اضطررت برغم انفى إلى قبول البقـاء تحت سقف منزله .. واما هو فقد أمر « زيللا » بأن تعطينى كأسا من البراندى ، وما لبث ان توارى فى الحجرات الداخلية .. وفيما كانت المراة الطيبة تشاطرنى الأسى على ما أصابنى من سوء الحال ، وقد بدات انتعش قليلا على اثر الشراب الذى قدمته لى تلبية لامر سيدها ، راحت تساعدنى فى الوصـول إلى الفراش ..

***



الفصل الثالث

اوصتنى زيللا ، وهى تتقـدمنى على الدرج ، بأن اخفى ضوء الشمعة ، والا احدث صوتا يكشف أمرى ، إذ ان لسيدها رايا عجيبا فى الحجرة التى كانت تود ان تضعنى فيها ، ولا يرضى بالسماح لأى انسان بأن يدخلها .. وسألتها عن السبب فأجابتنى بأنها لا تعرف لذلك سببا ، فلم تقض فى هذا المنزل إلا عاما أو عامين ، كما أن أعمالهم الغريبة المحيرة كانت من الكثرة بحيث لا تستطيع ملاحقتها بالفضول وحب الاستطلاع !

وإذ كان الإعياء والحذر قد نالا منى بما لا يجعلنى أهـلا للفضول بدورى ، فقد أغلقت باب الحجرة وتلفت حولى باحثا عن الفراش .. كان أثاث الحجرة كله مؤلفا من مقعد واحد وصوان صغير للشباب ، ثم خزانة كبيرة من خشب البلوط ذات فتحات مربعة فى أعلاها اشبه بنوافذ العربات .. فاقتربت من تلك الخزانة وتطلعت بداخلهـا فوجدتها نوعا فريدا من المضـاجع العتيقة الطـراز ، اقيمت على نحو ملائم لتماشى ضرورة تخصيص حجرة لكل فرد من أفراد العائلة .. والواقع انها كانت مخدعا صغيرا ، كما كانت قاعدة النافذة التى تقع بداخلها تصلح كمنضدة .. ودفعت مصراع الباب المنزلق ، ثم دخلت تلك المقصورة ومعى الشمعة المضيئة ، ورددت الباب إلى مكانه فأغلقته .. وعنـدئذ فحسب شـعرت بالطمأنينة والأمن من رقابة هيثكليف الصارمة ، وكل إنسان سواه !

وكانت قاعدة النافذة ، حيث وضعت شمعتى ، تحوى فى ركن منها كومة من الكتب قليلة العدد تعلوها الرطوبة والعفن ، كما كانت هى نفسها مغطاة بكتابة مختلفة تخدش طلاءها .. ومع ذلك فلم تكن تلك الكتابة إلا اسما واحدا تكرر نقشـه بمختلف أنواع الحروف ، الكبيرة والصغيرة ، فكنت ارى تارة « كاثرين أيرنشو » ، ثم يتغـير إلى « كاثرين هيثكليف » ، ويتغير من جديد إلى « كاثرين لينتون » .. الخ .

أسندت رأسى إلى النافذة فى تراخ وخمول ، ومضيت أعيد هجاء اسم كاثرين أيرنشو ـ هيثكليف ـ لينتون ، مرة تلو الأخرى ، حتى غمضت عيناى .. ولكنى ما كدت أغفو خمس دقائق ، حتى انبثق من الظلام وميض ساطع من الحروف البيضاء التى راحت تتراقص كالأشباح الوثابة وتملأ الجـو باسم كاثرين على مختلف صوره واشكاله ! .. فجاهدت حتى أيقظت نفسى لأطرد ذلك الاسم الدخيل ، وعندئذ تبينت أن ذبالة الشمعة قد مالت على احد الكتب العتيقة وعطرت المكان برائحة الجلد المحترق !.. فسحقت طرف الفتيل بين أصابعى ، وجلست مكروبا مما أعانيه من البرد والغثيان ، ناشرا الكتاب المعطوب فوق ركبتى ، فوجـدته نسـخة من التـوراة طبعت بحروف صغيرة ، تفوح منه رائحة العطن المروعة ، ووجدت فى أوله صفحة بيضاء تحمل هذه العبارة : « هذا كتاب كاثرين ايرنشو » ، ثم تاريخا يصل إلى ربع قرن مضى .. وما لبثت أن تركته ورحت أتناول باقى الكتب واحدا بعد الآخر ، حتى فحصتها جميعا ، ووضح لى أن « كاثرين » هذه كانت تعنى

بانتقاء مكتبتها ، كما تبينت من رثاثة الكتب أن صاحبتها كانت
تحسن استعمالها ، وإن كان ذلك فى غير أغراض القراءة
فحسب .. فقلما كان يخلو فصل من فصول هذا الكتاب أو
ذاك من تعليقات ـ أو هذا ما يبدو ، على الأقل ـ كتبت
بالمداد فى كل فراغ تركته المطبعة ! .. وكان البعض لا يعدو
جملا غير متماسكة ، بينما اتخذ البعض الآخر شكل مذكرات
يومية منتظمة ، كتبت بخط صبيانى سقيم .. وشد ما
ابتهجت عندما رأيت فى الجزء العلوى من ورقة بيضاء خالية
من الكتابة ، (لعلها اعتبرت كنزا ثمينا عندما اكتشف أمرها
أول مرة) ، رسما كاريكاتوريا بديعا لصديقنا جوزيف ، كان بالغ
الاتقان برغم بدائيته ! .. وكأنما أضرم ذلك نيران الاهتمام فى
نفسى بكاثرين المجهولة ، فبدأت على الفور أفك رموز خطها
الهيروغليفى الباهت ، وكان أول ما طالعنى منه :

« انه يوم احد فظيع ! .. ولكم يود أن يعود أبى ثانية ،
فان (هندلى) ينوب عنه على نحو بغيض .. ومسلكه نحو
هيثكليف يزداد شناعة ... لذا عزمت انا وهيثكليف على
التمرد .. وخطونا الخطوة الأولى هذا المساء . كان المطر
ينهمر طوال اليوم غزيرا ، فلم نستطع الذهاب إلى الكنيسة ،
ومن ثم كان لا بد لجوزيف من ان يجمعنا للصلاة فى المخزن
العلوى الصغير .. وبينما كان هندلى وزوجته يستمتعان
بالجلوس فى الطابق السفلى امام نار المدفأة المريحة ـ وأقسم
انهما كانا يفعلان اى شىء إلا القراءة فى الانجيل ـ كنت انا
وهيثكليف وصبى الحقل المسكين نتلقى الامر بحمل كتب

الصلوات والصعود إلى المخزن العلوى حيث جلسنا صفا
واحدا ، فوق زكيبة ملأى بالقمح ، ونحن نئن ونتأوه ونرتجف
من البرد ، وندعو الله ان تمشى القشعريرة فى بدن جوزيف
ايضا لعله يوجز فى العظة التى سيلقيها على مسامعنا .. ولكنه
كان أملا خائبا ! .. فقد دام القداس ثلاث ساعات كاملة ..
ومع ذلك كان اخى من الصفاقة بحيث صاح متعجبا ، وهو
يرانا نهبط الدرج : « ماذا ؟ .. هل انتهت الصلاة بهذه
السرعة ؟ »

«وكان مباحا لنا عادة ، فيما مضى ، أن نقضى امسيات
أيام الآحاد فى اللعب ، على شرط الا نثير جلبة او ضوضاء ..
اما الآن فالضحكة الخافتة تكفى لإرسال كل منا ليركع فى ركن
قصى . وكان الطاغية يقول : « انكما تنسيان ان لكما سيدا هنا
.. ولكنى سوف أسحق أول من تسول له نفسه أن يخرجنى
عن طورى .. اننى مصر على الهدوء الشامل والصمت المطلق
.. آه ! . هل أنت الذى فعلت هذا يا ولد ؟ .. فرانسيس
يا عزيزتى ، شديه من شعره عند مرورك به فقد سمعته
يطقطق اصابعه ! .. » فجذبته فرانسيس من شعره عن طيب
خاطر ، ثم مضت لتجلس على ركبتى زوجها ، حيث مكثا
ساعة يتضاحكان ويتبادلان القبل والأحاديث الفارغة كأنهما
طفلان غريران ، فى مداهنة سخيفة يخلق بنا ان نخجل منها !
.. اما نحن فقد قبعنا فى فجوة (البوفيه) ، ودبرنا لنفسينا
جلسة مريحة بقدر ما سمحت به إمكانياتنا فى هذا المكان الضيق
.. وكنت قد ربطت مرولتينا معا ، وعلقتهما ستارا ، عندما

قدم جوزيف من جولته فى حظائر الماشـية ، فاذا به يجذب الستار فينتزعه من مكانه ، ثم يلطمنى ويقول فى صوت كنقيق الضفادع : « إن السيد لم تجف دماؤه فى قبره بعـد ، ولم ينقض يوم الأحد المقدس ، وما زال صوت تلاوة الانجيل فى آذانكما ، ومع ذلك تجسران على اللعب والضحك ؟ .. العار لكما واللعنة عليكما ! .. اجلسـا فى سكون أيها الطفـلان الفاسدان ، فهناك كتب طيبة تكفيكما للقراءة إذا أردتما .. اجلسا خاشعين وفكرا فى صلاح روحيكما الشريرتين ! »

«وإذ قال ذلك أرغمنا على الجلوس فى وضع يتيح لنا ان نتلقى شعاعا خافتا من وهج المدفاة البعيدة يكفى لأن نتبين سطور الكتب السخيفة التى القى بها إلينا .. ولم أسـتطع احتمال هذا التكليف . فامسكت بالكتاب القذر الذى كان من نصيبى وطرحت به إلى وجار الكلب مقسمة على اننى أمقت الكتب الطيبة ! .. اما هيثكليف فقد رمى بكتابه إلى نفس المكان ولكن بركلة من قدمه .. وعندئذ انقضت الصاعقة ، فقد صاح قسيسنا الورع :

ـ يا سيد .. يا مستر هندلى ! .. تعال إلى هنـا حالا ! .. لقد مزقت مس كاثى ظهر غلاف « درع الخلاص » .. ووضع هيثكليف قدمه على الجزء الأول من « الطريق الفسيحة نحو الدمار ! » .. انه لعار كبير ان تتركهما يمعنان فى هـذا المسلك الدميم .. آه ! .. ان الرجل العجوز ما كان ليدعهما دون علقة ساخنة .. ولكنه ذهب !

« فاسرع الينا هندلى من فردوسه بجوار المدفاة ، وامسك احدنا من قفاه ، والآخر من ذراعه ، ثم قذف بنا إلى المطبخ الخلفى حيث أكد لنا جوزيف تأكيدا قاطعا بأن الشيطان سوف يأتى فى طلبنا .. وإذ ارتاح بالنا إلى ذلك ، مضى كل منا إلى أحد الأركان وجلسنا ننتظر مقدمه ! .. اما انا فقد اخـذت هذا الكتاب ومحبرة كانت فوق رف فى المطبخ ، وفتحت باب المنزل قليلا ليسمح بدخول الضـوء ، وظللت اكتب نحـو عشرين دقيقة .. واما رفيقى فقد نفد صـبره واقترح أن نستولى على معطف المراة التى تمخض الزبد ، ونحتمى به من المطر ثم نمضى لنركض بين البرارى ـ وهو اقتراح لطيف حقا ، فلو حضر عندئذ العجوز ذو السحنة الكئيبة فربما اعتقد ان نبوءته قد تحققت ـ ولن نزداد بللا أو بردا تحت المطر عما نحن عليه هنا .. »

* * *

احسب أن كاثرين قد نفذت مشروعها . لأن العبارة التى تلت ذلك طرقت موضوعا آخر .. ويبدو انها كتبتها والدموع تنهمر من عينيها ، قالت :

« ما كنت أحلم البتة ان هندلى سوف يجعلنى ابكى بمثل هذه الحرقة يوما من الأيام ! .. ان رأسى يؤلمنى ألما شـديدا حتى لا أكاد أطيق وضعه فوق الوسادة ، ومع ذلك لا أستطيع ان اكف عن البكاء .. يالهيثكليف المسكين ! .. ان هندلى يصفه بالمتشرد ، ولا يريد ان يدعه يجلس معنا أو يأكل معنا بعد الآن ... كذلك يقول إننى وهيثكليف لا ينبغى أن نلعب

معا ، وينذر بطرده من المنزل إذا عصينا أوامره .. بل لقد راح يوجه اللوم لوالدنا (رباه ! كيف يجرؤ على ذلك ؟) لأنه أحسن معاملة هيثكليف ، ثم أقسم بأنه يلزمه حده ويضعه فى الموضع اللائق به ! » .

***

وبدأ النعاس يراود اجفانى ، فهومت فوق صفحة الكتاب المعتمة ، وسرح بصرى من الكتابة المخطوطة إلى الحروف المطبوعة ، فرأيت عنوانا طبع بالمداد الأحمر على سبيل الزخرفة ، كان نصه : « سبعون فى سبعة (1) ، وأول الواحد والسبعين الأولى ! .. عظة تقية القاها المحترم جابس براندرهام فى كنيسة جيمردون صو » . وبينما كنت اكد عقلى ، وانا بين النوم واليقظة ، لاستنتاج ما يمكن أن يعالجه جابس براندرهام فى موضوعه هذا ، تهاويت على الفراش واستغرقت فى النوم .. ولكن واأسفاه ! .. لقد تآمرت على آثار الشاى الردىء والخلق السيىء ! والا فأى شىء آخر يمكن أن يجعلنى اقضى مثل هذه الليلة المروعة ؟ .. اننى لا اذكر البتة ليلة اخرى استطيع مقارنتها بهذه ، منذ أن أدركت معنى الاحساس بالالم والفزع .. !

---

(1) اشارة الى عدد المرات التى أوصى الانجيل بأن يغفرها الانسان لمن يخطىء اليه ، فقد ورد فى انجيل متى (١٨ ــ ٢١) : « حينئذ تقدم بطرس الى المسيح وقال : يا رب كم مرة يخطىء الى اخى وانا اغفر له . هل الى سبع مرات؟ قال له يسوع لا أقول لك الى سبع مرات بل الى سبعين مرة سبع مرات . »

وقد بدأت الأحلام تطيف بى ، حتى قبل أن انقطع عن الشعور بالمكان الذى ارقد فيه .. فخيل إلى أن الصباح قد حل ، واننى خرجت منصرفا إلى منزلى ، ومعى جوزيف مرشدا لى .. وكان الثلج يغمر طريقنا ، عميقا كثيفا ، فكنا نتخبط فى مسيرنا ، عند ما أخذ رفيقى يضجرنى بلومه المتكرر لى إذ لم احضر معى « عكاز الحاج » ، قائلا اننى لن استطيع دخول الدار مالم يكن معى واحد منها ، بينما كان فى الوقت نفسه يلوح فى زهو بهراوة ضخمة ذات رأس ثقيل ، ففهمت انها هى التى يطلق عليها هذا الاسم .. وظللت لحظة أعدها سخافة بالغة منه أن يزعم احتياجى لمثل هذا السلاح حتى استطيع دخول منزلى الخاص .. ما لبثت ان ومض فى فكرى خاطر جديد : اننى لست ذاهبا إلى هناك ، وانما نحن نمضى إلى حيث نسمع السيد جابس براندرهام الشهير يلقى عظته : « سبعون فى سبعة » ، وأن واحد منا ــ جوزيف ، أو الواعظ أو أنا ــ قد يكون « أول الواحد والسبعين الأولى » .. واننا سوف يشهر بنا علانية ، وتوقع علينا عقوبة الحرمان من الكنيسة ..

ووصلنا إلى الكنيسة .. وكنت قد مررت بها فى اليقظة أثناء جولاتى بين البرارى ، مرتين أو ثلاثا .. وهى تقع فيما يشبه الكهف المرتفع ، على مستشرف من الأرض ، بين تلين ، بالقرب من مستنقع يقال أن النفايات الرطبة التى تملؤه تفى بجميع اغراض التحنيط للجثث القليلة التى أودعت الأرض هناك ! .. وقد ظل سقف الكنيسة قائما حتى الآن ، ولكن

لما كانت مخصصات القس لا تعدو عشرين جنيها فى العام ، ومنزلا من حجرتين ينذر الجدار الفاصل بينهما بتحويلهما عاجلا إلى حجرة واحدة ، فان أحدا من رجال الدين لم يعد يقبل القيام بأعباء وظيفة القس لهذه الكنيسة ، سيما وقد ذاع امر تلك الحقيقة الواقعة ، وهى ان قطيع رعيته يفضل ان يدعه يموت جوعا على زيادة راتبه بنسا واحدا يدفعونه من جيوبهم ! .. ومهما يكن من امر ، فقد كان الاجتماع الذى عقده جابس ، فى الحلم ، حافلا بحشد من المستمعين الذين ارهفوا سمعهم له .. وبدأ يلقى عظته .. يا الهى ! .. اى قداس هذا ؟ .. لقد قسمه إلى اربعمائة وتسعين قسما . كل منها من الامتلاء بحيث يكفى خطبة منبرية عادية ، وكل يناقش خطيئة مستقلة ! .. ولست ادرى من أين اتى بكل هذا العدد من الخطايا ؟ .. كذلك كانت له طريقته الخاصة فى تفسير عبارته ، فكان يبدو أن « الأخ » منا لابد أن يأثم عدة آثام مختلفة فى أية مناسبة .. وكانت كلها ذات طابع مفرط فى الغرابة ، وكلها خطايا عجيبة لم تخطر لى على بال قط من قبل !

أواه ! .. ما أشد الكلال الذى حل بى ! .. فكم تلويت ، وتثاءبت ، وهومت ، ثم انتعشت ! .. وكم قرصت نفسى ، ونخست جلدى ، وفركت عينى ، وكم نهضت ثم جلست ، وكم وكزت جوزيف بمرفقى ليخبرنى بما اذا كان القس المحترم سوف يفرغ من عظته قط ! .. ولكن كان قد قضى على بأن اسمعها كلها .. وأخيرا بلغ « أول الواحد والسبعين الأولى » !

.. وعند هذه المصيبة الداهمة ، هبط على الوحى فجأة وشعرت بدافع يحركنى للقيام واتهام جابس براندرهام باقتراف الخطيئة التى لا يحتاج المؤمن معها إلى غفران .. فهتفت اقول :

ـ لقد احتملت يا سيدى ، وانا اجلس بين هذه الجدران الأربعة فى وضع واحد لا يتغير ، رؤوس مواضيع خطبتك الاربعمائة والتسعين ، وغفرتها لك ! .. كنت ، سبعين مرة فى سبع ، اختطف قبعتى وأوشك على الانصراف .. ولكنك كنت ، سبعين مرة فى سبع ، ترغمنى ــ على نحو لا يصدقه العقل ــ على استعادة مقعدى .. والاربعمائة والتسعون الأولى هى اكثر مما نطيق .. أيها الاخوة الشهداء ، عليكم به ! .. جروه من منبره ، واسحقوه سحقا حتى تحولوه إلى ذرات ، وحتى لا يعود المكان الذى طالما عرفه من قبل يعرفه بعد ذلك ..

وتمهل جابس لحظة وهو يحدجنى فى رصانة وقد اتكأ على وسادته ، وما لبث أن صاح فجأة :

ـ انت الرجل المنشود ! .. لقد كنت ، سبعين مرة فى سبع ، تفغر فاك متثائبا ، فيتقلص وجهك .. ولكنى ظللت ، سبعين مرة فى سبع ، اراجع نفسى ، واتشاور مع روحى ! .. انظروا .. هذا ضعف بشرى ! .. وهو ايضا مما يمكن غفرانه ! .. لقد اتى اول الواحد والسبعين ، أيها الاخوة ، فهاكم نفذوا فيه العقاب المكتوب .. انه شرف لا يناله إلا القديسون !

وعند هذه العبارة الختامية ، اندفع الجمع كله محيطا بى فى كتلة واحدة ، وقد رفع كل منهم « عكاز الحاج » الذى يحمله .. وإذ كنت لا أحمل سلاحا أرفعه دفاعا عن نفسى ، فقد بدأت أناضل جوزيف ، الذى كان أقرب المهاجمين لى وأشدهم ضراوة ، محاولا انتزاع عكازه .. وفى غمرة هذا الحشد الزاخر ، كانت الهراوات تتقارع معا ، وكانت اللطمات الموجهة إلى تهوى على رؤوس وجماجم أخرى ! .. وما لبثت الكنيسة كلها أن أصبحت تردد صدى رنين الطرقات والطرقات المضادة ، وأصبحت يد كل رجل مرفوعة على جاره .. أما براندرهام ، الذى لم يرد البقاء عاطلا ، فقد تدفقت حميته فى وابل من الدقات العالية على ألواح منبره ، كان لها دوى ورنين بحيث أدت فى النهاية ، لفرط ارتياحى الصامت ، إلى إيقاظى من النوم ! .. وماذا كان ذلك الشىء الذى أوحى بهذه الضجة الهائلة ؟ .. ما الذى لعب دور جابس فى ذلك الشغب؟ .. إنه لم يكن إلا غصنا من شجرة شربين ، كان يمس نافذتى كلما هبت الريح ، فتقرع ثماره الجافة زجاج النافذة .. ورحت أصغى لحظة ، بين الشك واليقين ، حتى تحققت من سبب انزعاجى ، فاستدرت فى الفراش وأغفيت من جديد .. وعندئذ بدأت أحلم ثانية ، فكان حلما أشد سوءا من سابقه !

فى هذه المرة رأيتنى أرقد فى خزانة البلوط ، وأسمع فى وضوح زفيف الرياح وهطول الثلوج ، وأسمع كذلك غصن الشربين اللعين وهو يعود إلى معاكساته الصوتية السابقة ، فكنت أنسبها إلى مصدرها الحقيقى .. لكنه أضجرنى كثيرا

إلى حد جعلنى أصمم على إسكاته ما استطعت .. وخيل إلى أننى نهضت من رقادى ، وحاولت رفع مزلاج النافذة . فوجدت الخطاف مثبتا فى الحلقة باللحام ـ وهى حالة لاحظتها فى يقظتى ونسيتها فى الحلم ! ـ فغمغمت محنقا : « لابد لى من إسكاته مع ذلك » .. ثم دفعت قبضة يدى فى النافذة دفعة قوية اخترقت الزجاج ، ومددت ذراعى إلى الخارج لأمسك بالغصن اللجوج ، فإذا بأصابعى تطبق ـ بدلا منه ـ على أصابع يد صغيرة باردة كالجليد ! .. وأصابنى هذا الكابوس بفزع هائل غزير ، وحاولت أن أجذب يدى إلى داخل النافذة ، ولكن اليد الصغيرة تعلقت بها فى قوة ! وإذا بصوت يفيض بالحزن والألم يغمغم بما يشبه الأنين ، قائلا : « دعنى أدخل .. دعنى أدخل » ، فسألت وأنا لا أكف عن النضال لتخليص يدى : « ومن أنت ؟ » فأجاب الصوت فى نبرات متهدجة : « كاثرين لينتون » .. (لست أدرى لماذا فكرت فى اسم « لينتون » مع أننى قرأت اسم « إيرنشو » أكثر من لينتون عشرين مرة ؟ !) . واستطرد الصوت الحزين يقول : « ها أنذا أعود إلى منزلى ، وكنت قد ضللت طريقى بين البرارى والأحراش » ، وبينما كان يقول ذلك تبينت وجه طفلة صغيرة ، غير واضح المعالم تماما ، يطل على من خلال النافذة .. فأمدنى الفزع المروع بقسوة رهيبة ، فإننى عندما وجدت محاولاتى لدفع هذا المخلوق الفظيع بعيدا ، غير مجدية . جذبت معصمه نحو حافة الزجاج المحطم ورحت أحكه ذهابا وجيئة حتى انبثق الدم منه وتدفق على الفراش .. وكان ما يزال ينوح : « دعنى أدخل » ، وهو يتشبث

بقبضته الباردة على أصابعى . فكاد الفزع يؤدى بى إلى الجنون ، وأخيرا قلت : « وكيف أستطيع ؟.. حل عنى أولا إذا شئت أن أدعك تدخل ! » .. وعندئذ تراخت الأصابع النحيلة . فاسرعت بسحب يدى إلى الداخل خلال الثغرة ، واخذت اكوم الكتب فى صف هرمى أمامها ، ثم سددت أذنى لأحول دون بلوغ هذه التوسلات الأليمة إلى مسامعى .. وخيل إلى أننى مكثت اسدهما زهاء ربع ساعة ، ومع ذلك ففى اللحظة التى رحت أصغى فيها ثانية ، عادت صيحات الأنين الأليمة تتردد من جديد . فصحت قائلا : « اذهبى لحالك ، فلن أدعك تدخلين قط ، ولو ظللت تتوسلين عشرين عاما ! » .. فقال الصوت الحزين : « انها عشرون عاما ! .. عشرون عاما ! .. لقد لبثت ضالة شريدة عشرين عاما !.. » وفى الوقت نفسه بدات أسمع صرير احتكاك خافت فى الخارج، وأخذت كومة الكتب تترنح كأن يدا تدفعها .. فحاولت ان اقفز من الفراش ، لكننى عجزت عن تحريك جارحة فى جسدى ، فأطلقت صيحة مدوية ، وقد غمرنى فزع جنونى .. وسرعان ما تبينت ، فى خزى وارتباك ، أننى انما أرسلت صيحة حقيقية ، ليست من تصوير الخيال فى الحلم ، إذ سمعت وقع اقدام مسرعة تقترب من باب الحجرة ، وإذا بشخص يدفع الباب بيد قوية فيفتحه ، بينما اخذ بصيص خافت من الضوء يلوح خلال الفتحات المربعة بأعلى الخزانة . وجلست فى الفراش ، والرعدة ما تزال تسرى فى بدنى ، أجفف العرق المتصبب من جبينى .. وبدا التردد على الداخل ، وكان يغمغم بكلمات غير مفهومة كأنما يحدث نفسه ، حتى قال

أخيرا فيما يشبه الهمس ، وفى لهجة من لا يتوقع ان يسمع جوابا : « هل من أحد هنا ؟ » وقدرت أن من الخير انأعترف بوجودى ، لأننى تبينت صوت هيثكليف ولهجته ، وخشيت ان يمضى فى تفتيش الحجرة لو لبثت صامتا .. وإذ استقر عزمى على ذلك ، استدرت وفتحت باب الخزانة المنزلق ..

ولن أنسى ما حييت ما احدثته هذه الحركة من اثر !

وكان هيثكليف يقف بالقرب من المدخل ، يرتدى قميصه وسراويله ، ويحمل فى يده شمعة تتساقط قطراتها الذائبة على أصابعه ، وقد شحب وجهه حتى غدا فى لون الجدار الأبيض القائم خلفه ! .. وما ان انبعث صرير الخشب وانا افتح الباب ، حتى أجفل مرتاعا كأنما أصابته صدمة كهربائية، وطارت الشمعة من يده إلى مسافة بضعة اقدام ، فبلغ من شدة اضطرابه انه لم يستطع التقاطها إلا بصعوبة بالغة ..

ووددت ان اجنبه هوان الظهور بمظهر الجبان الرعديد بعد ذلك ، فهتفت قائلا : « انه ليس إلا ضيفك ياسيدى ! .. ومن سوء الحظ انى صرخت اثناء نومى بسبب كابوس مخيف اصابنى .. وانى آسف اذا كنت قد أزعجتك ! »

فوضع مضيفى الشمعة على احد المقاعد ، بعد ان تبين استحالة حملها فى يده ثابتة ، وبدأ يقول : « يا الهى ! .. أخزاك الله يامستر لوكوود ! .. الا ليتك كنت فى .. »

وكان يغرس اظافره فى راحتيه ، ويشدد الضغط على اسنانه ليخفى رعدة فكيه ، وهو يستطرد قائلا :



ـ ومن الذى أرشدك إلى هذه الحجرة ؟ .. من هو ؟ ..

فقد استقر عزمى على طرده من البيت فى التو واللحظة !

فقفزت من الفراش إلى الأرض ، ورحت أجمع ثيابى فى عجلة وأهم بارتدائها ، قائلا :

ـ إنها خادمتك زيلا .. ولن ابالى إذا طردتها يا مستر هيثكليف ، فإنها تستحق ذلك عن جدارة ! .. واحسبها ارادت الحصول على دليل جديد ـ على حسابى ـ بأن المكان تسكنه الأرواح الشريرة .. حسنا ! .. انه يموج بالأشباح والعفاريت فعلا ! .. وقد احسنت صنعا باغلاقك هذه الحجرة ومنعك احدا من دخولها ، فإن احدا لن يحمد لك أن تاخذه سنة من النوم فى وكر الشياطين هذا !

فقال هيثكليف : « ما الذى تعنيه ؟ .. وما هذا الذى تفعله ؟ .. الا عد إلى فراشك واتمم ليلتك مادمت هنا .. ولكن بحق السماء لا تكرر هذه الضجة الفظيعة ، فما من شىء يمكن ان يبررها إلا أن يكون هناك من حاول ذبحك ! »

ـ لو أن تلك الشيطانة الصغيرة استطاعت الدخول من النافذة لخنقتنى على الأرجح ! .. ولكن ليس فى نيتى أن احتمل المزيد من قسوة اسلافك الكرام الميامين مرة أخرى . الم يكن المحترم جابس براندرهام من أخوالك ؟ .. وتلك الشيطانة الصغيرة ، « كاثرين لينتون » ـ أو « ايرنشو » ، أو كيفما كان اسمها ـ لا ريب أنها كانت ذات روح خبيثة متقلبة . لقد أخبرتنى أنها ظلت تذرع الأرض طوال هذه

الأعوام العشرين ، ولعمرى إنه لجزاء حق على خطاياها المميتة ، ما فى ذلك شك او ريب !

وما كدت انطلق بهذه الكلمات حتى ذكرت اقتران اسم هيثكليف باسم كاثرين فى الكتاب الذى كان قد تسرب من ذاكرتى حتى عاد إليها ثانية على هذا النحو .. وأحسست بالخجل والخزى لقلة تبصرى ، ولكنى ، دون أن اظهر شيئا من الشعور بجرمى ، أسرعت اتابع القول : « الحقيقة ياسيدى هى اننى قضيت الشطر الأول من الليل فى .. »

وعند هذا الحد توقفت ثانية ، فقد كنت على وشك أن اقول : « فى تصفح هذه الكتب القديمة » ، وبذلك كنت أفشى علمى بمحتوياتها من الكتابة المطبوعة والمخطوطة .. فتراجعت ومضيت اقول : « .. فى هجاء الإسم المنقوش على حافة النافذة ، مرة بعد مرة ، وهى كما ترى مهمة رتيبة قصدت منها جلب النوم إلى جفونى ، كعد الأرقام أو .. »

.. وإذا بهيثكليف يقاطعنى فى صوت كقصف الرعد ، وقد تملكته سورة غضب ضارية : « ماذا يمكن أن يكون قصدك من مخاطبتى على هذا النحو ؟ .. كيف ؟ .. كيف تبلغ بك الجراة إلى هذا الحد ، وتحت سقف بيتى ؟ .. يا الهى ! .. لابد أنه مجنون إذ يقول ذلك ! »

وراح يقرع جبهته فى غضب مروع .. اما انا فقد حرت بين استنكار لهجته ، او متابعة تفسيرى لما حدث .. ولكنه كان يبدو من شدة التأثر وعمقه ، بحيث أشفقت عليه

واستطردت فى الحديث عن أحلامى ، مؤكدا أننى لم أسمع قط باسم « كاثرين لينتون » من قبل ، ولكن إدمانى قراءته مرة بعد مرة طبع فى ذهنى أثرا لم يلبث أن تجسد على هيئة شخص عندما لم تعد لى أية سيطرة على خيالى ..

وكان هيثكليف ، أثناء حديثى ، يتقهقر خطوة بعد أخرى إلى ما وراء الفراش ، ما لبث أخيرا أن جلس على الأرض حتى كاد الفراش يحجبه عن أنظارى .. وأدركت من أنفاسه اللاهثة المتقطعة أنه يناضل نضالا شاقا فى سبيل التغلب على تأثره العنيف المفرط ، وإذ كنت لا أحب أن أظهر له أننى قد لحظت نضاله هذا ، فقد رحت أتابع ارتداء ملابسى ، محدثا جلبة مقصودة ، ثم نظرت فى ساعتى ، وناجيت نفسى عن طول الليل ، قائلا :

ــ ماذا ؟ .. الساعة لم تبلغ الثالثة بعد ؟ .. لقد كدت أقسم أنها تجاوزت السادسة ! .. إن الوقت فى ركود هنا ، ولا بد أننا أوينا إلى فراشنا حقا فى الثامنة !

فأجابنى مضيفى ، وهو يكتم أنينه ، ويكفكف عبرة ترقرقت فى عينيه ، كما وضح لى من حركة ذراعه التى رأيت ظلها على الجدار : « بل دائما نأوى إلى الفراش شتاء فى التاسعة ، ونستيقظ فى الرابعة » .

ثم أضاف بعد لحظة : « يمكنك أن تذهب إلى حجرتى يامستر لوكوود .. فنزولك الآن فى هذا الوقت المبكر سوف يحدث ارتباكا فى المنزل؛ كما أن صرختك الصبيانية قد ذهبت بالنوم من عينى إلى الشيطان ! »

ــ ومن عينى أيضا .. ولكن سوف أتمشى فى الفناء حتى يطلع النهار ثم أنصرف لشأنى .. ولا حاجة بك لأن تخشى تكرار تطفلى عليك بالزيارة ، فقد شفيت تماما الآن من داء نشدان المتعة بصحبة الناس ، سواء فى الريف أو المدن .. فالعاقل إنما ينبغى له أن يجد فى نفسه صحبة كافية !

فغمغم هيثكليف : « انها صحبة ممتعة ! .. والآن ، خذ الشمعة واذهب حيثما تشاء ، سوف الحق بك بعد قليل .. ولكن عليك أن تتجنب الفناء لأن الكلاب مطلقة السراح فيه ، وحجرة الجلوس لأن (جونو) تقوم بالحراسة هناك .. ويمكنك أن تقصر طوافك بين السلالم والممرات .. ولكن اذهب عنى الآن ، وسوف أنزل بعد دقيقتين .. » .

فاطعته ، لمجرد رغبتى فى مغادرة هذه الحجرة .. ولكنى إذ وقفت حائرا لا أدرى إلى أين تقودنى تلك الممرات الضيقة، شهدت ــ برغم أنفى ــ منظرا أشبه بتمثيلية عن الخرافات والخزعبلات يقوم بها مضيفى ، ويناقض ــ على نحو عجيب ــ ما يبدو عليه من عقل واتزان .. فقد مضى نحو الفراش ، وانتزع رتاج النافذة من مكانه ففتحها على مصراعيها ، وهو ينفجر فى نوبة من النشيج والبكاء المتصل ، كأنما أفلت منه زمام سيطرته على مشاعره ، ويقول فى عويل : « ادخلى ! .. ادخلى ! .. تعالى ياكاثى .. آه ! . تعالى مرة أخرى ! . أواه ! .. يا حبيبة القلب .. أصغى إلى هذه المرة يا كاثرين أخيرا ! » .

غير ان الشبح اظهر تلك النزوة المألوفة لدى الأشباح ، فلم يبد اية إشارة تنم عن وجوده .. وهكذا الأشباح إذا دعيت لم تلب ! .. ولكن الثلج والرياح كانت قد اقتحمت النافذة وراحت تزمجر فى أنحاء الحجرة ، وإذ بلغت مكانى اطفأت لهب شمعتى ..

وكان فى ذلك الفيض من اللوعة والأسى ، الذى صاحب هذيانه ، ما ينم عما يلاقيه من عذاب فظيع ، بحيث أخذتنى الشفقة عليه ورثيت لحاله ، واغضيت عن جنونه ، فبادرت إلى الانسحاب وقد تملكنى الأسف إذ أنصت له ، واستبد بى الضيق إذ قصصت عليه ذلك الكابوس المضحك ، بعد أن شهدت ما سببه له من حزن بالغ ، وإن كان سبب ذلك مما يدق على فهمى .. وهبطت الدرج فى حذر إلى الطابق الأسفل ، حتى استقر بى المقام فى المطبخ الخلفى ، واستطعت ان اشعل شمعتى ثانية من لهب نار خافتة كومت جذواتها فى المدفأة .. ولم يكن فى المكان حس او حركة إلا قطة رمادية اللون مخططة الفراء ، نهضت فى تراخ من مجثمها بجوار المدفأة ، وحيتنى بمواء يفيض بالتذمر والسخط !

وكان امام الموقد دكتان خشبيتان ، على شكل قوسين ، يكادان يحيطان به ، فاستلقيت على احداهما ، بينما ارتقت القطة (جريمالكين) الدكة الأخرى .. وكنا كلانا نهوم من النعاس قبل ان يغزو احد مكان خلوتنا هذه ، ثم إذا بجوزيف يهبط علينا فوق سلم خشبى كان يختفى فى السقف خلال باب مسحور ، احسب انه يؤدى إلى مخزنه العلوى ، فألقى



وانتزع رتاج النافذة من مكانه ففتحها على مصراعيها ، وهو ينفجر فى نوبة من النشيج والبكاء المتصل ..

نظرة منكرة على اللهب الضئيل الذى كان يتراقص بين قضبان الموقد بعد أن حركت جذوات الفحم ، ثم ازاح القطة عن مرقدها المرتفع بحركة من يده ، واحتل مكانها ، وبدأ يحشو بالطباق غليونه القصير ، الذى لا يعدو الثلاث بوصات طولا . . وكان من الواضح ان وجودى فى خلوته المقدسة كان يعد ضربا من القحة المخجلة التى تجاوزت الحد بحيث لا يجدى معها احتجاج أو اعتراض . . ومن ثم فقد وضع انبوبة الغليون بين شفتيه دون أن ينطق بكلمة ، وشبك ذراعيه فوق صدره . وراح ينفث الدخان فى قوة . . فتركته ستمتع بلذته دون أن اعكر عليه صفوه ، حتى إذا ما فرغ من امتصاص آخر حلقات الدخان ، واطلق من صدره تنهدة عميقة ، نهض من مجلسه وغادر المكان فى رصانة ووقار مثلما جاء . .

وما لبثت أن ولجت المطبخ خطوات اخرى اكثر خفة ومرونة ، ففتحت فمى لاقول : « صباح الخير » ، ولكنى اطبقته ثانية دون ان انطق بهذه التحية ، فقد كان هيرتون ايرنشو يتمتم «بصلواته » فى غمغمة خافتة ، وفى سلسلة من اللعنات يوجهها لكل شىء يلمسه ، بينما كان ينقب فى أحد الأركان عن معول او مجرفة ليزيح بهما الجليد او ليشق طريقا خلاله ؛ بعد أن القى على الأريكة نظرة خاطفة ، وهو يبسط منخريه ، دون أن يفكر فى تبادل التحية معى او مع القطة ! . . وحدست ، من هذه الاستعدادات التى يقوم بها ، ان الخروج أصبح مباحا ، فتركت مقعدى الصلب ، وهممت بأن اتبعه إلى الخارج . . ولكنه لحظ حركتى هذه ، فأشار بطرف

معوله نحو باب داخلى ، مبينا لى فى تمتمة غير مفهومة أن ذلك هو المكان الذى ينبغى ان اذهب إليه إن أردت تغيير موضعى .

ووجدت الباب يؤدى إلى حجرة الجلوس ـ أو «البيت» كما يسمونها ـ حيث كانت نساء الدار قد استيقظن فعلا وانصرفن إلى شئونهن . . كانت « زيللا » تستحث الشرر المتطاير من لهب الموقد على دخول المدخنة ، بواسطة منفاخ كبير الحجم ، بينما ركعت مسز هيثكليف بجوار المدفأة ، وهى تقرأ فى كتاب على وهج النار ، وترفع يدها أمام عينيها لتتقى حرارة الموقد . وكانت تبدو مستغرقة فى القراءة ، لا تنقطع عنها إلا لتؤنب الخادمة عند ما يتطاير الشرر ناحيتها ، أو لتدفع عنها ، بين آن وآخر ، أحد الكلاب الذى كان يمد انفه إلى الأمام ليتشمم وجهها . ودهشت إذ رأيت هيثكليف أيضا هناك . كان يقف بجوار النار ، وظهره إلى ناحيتى ، وهو يختتم مشهدا عاصفا مع « زيللا » المسكينة التى كانت بين الحين والآخر تتوقف عن عملها لترفع طرف مرولتها وتكتم بها أنينا مؤلما . .

وفى اللحظة التى ولجت فيها باب القاعة كان يتحول نحو زوجة ابنه ، وينفجر صائحا فيها ، مستخدما صفة لا يمكن إثباتها كتابة :

ـ وانت . . انت ايتها الـ . . الحقيرة ! . . ها انت ذى تعودين إلى كسلك وخمولك ثانية . . إن الباقين يخدموننى نظير لقمتهم ، اما انت فتعيشين على صدقتى وإحسانى ! . . دعى هذه النفايات التى فى يدك ، وابحثى عن عمل تؤدينه . . سوف

تدفعين لى غاليا ثمن ابتلائى بوباء وجودك أمام ناظرى دائما .. هل تسمعين أيتها الفاجرة اللعينة ؟

فأطبقت السيدة الشابة كتابها ورمت به فوق أحد المقاعد ، وقالت :

ـ سوف أدع النفايات التى فى يدى ، لأن فى وسعك ان ترغمنى على ذلك لو رفضت .. ولكنى لن اعمل شيئا ، مهما اطلقت لسانك بالسباب والشتائم ، إلا مايروق لى ان افعله !

فرفع هيثكليف يده ، بينما وثبت السيدة إلى مسافة تامن فيها تلك اليد التى يبدو من الواضح انها ذاقت وطأتها من قبل .. وإذ كنت لا أحب ان استقبل بمشهد عراك كالذى ينشب بين القطط والكلاب ، فقد تقدمت إلى الأمام بغتة ، كأننى متلهف إلى مشاركتهم دفء النار ، وكأننى خالى الذهن عن اى شىء من هذا الشجار الذى قطعته عليهم . والحق ان كلا منهما كان من الكياسة بحيث أرجأ إظهار المزيد من هذه الخصومة ، ووضع هيثكليف قبضتيه فى جيوبه ، ليكون بمنجاة عن الإغراء باستخدامهما ، أما مسز هيثكليف فقد قوست شفتها ، ومشت إلى مقعد بعيد حيث وفت بوعدها الا تفعل شيئا بأن جلست ساكنة كالتمثال خلال بقية الفترة التى مكثتها بينهم . ولم تكن فترة طويلة ، فقد رفضت مشاركتهم فى طعام الإفطار وانتهزت فرصة بزوغ أول شعاع من الفجر للفرار إلى الهواء الطلق الذى وجدته وقتئذ صافيا ، ساكنا ، شديد البرودة كالثلج ..

وهتف بى مضيفى يستوقفنى قبل ان أبلغ نهاية الحديقة ، ثم عرض على ان يرافقنى خلال البرارى والمستنقعات .. وحسنا فعل ! .. فإن سفح التل من الناحية الأخرى كان أشبه ببحر عجاج من الجليد الأبيض .. وكانت النتوءات والفجوات لاتكشف عما يقابلها من مرتفعات أو منخفضات فى الأرض .. اما الكثير من الحفر فقد امتلأت إلى حافتها ، على حين اختفت سلاسل باكملها من الأكمات والروابى ـ مما تلفظه المحاجر ـ من الصورة التى ارتسمت فى ذهنى أثناء مسيرى بالأمس . وكنت قد لاحظت على جانب من الطريق صفا من الحجارة القائمة ، تفصل بين الواحد والآخر ست ياردات أو سبع ، يمتد على طول البرارى المقفرة ، وقد اقيمت تلك الحجارة وطليت بالجير لتكون مرشدا للمارة فى الظلام ، أو عندما ينهمر الثلج كما حدث بالأمس فيطمس معالم المستنقعات العميقة على كلا الجانبين فلاتبين من الطريق الصلدة .. ولكن ، فيما عدا نتوء قذر يبدو للاعين هنا وهناك ، فقد اكتفت قوائم الحجارة حتى لكأنها تلاشت من الوجود !

وكان رفيقى كثيرا ما يجد من الضرورى أن يحذرنى ويطلب منى أن أتحول إلى اليمين او إلى اليسار ، بينما كان يخيل إلى اننى اتبع المنعرجات الصحيحة للطريق . ولم نتبادل إلا القليل من الحديث حتى توقف عند مدخل حديقة (ثراشكروس) ، قائلا إننى لن اكون عرضة للخطأ بعد ذلك .. وكان وداعنا قاصرا على انحناءة سريعة ، ما لبثنا ان افترقنا بعدها . وتابعت مسيرى معتمدا على معلوماتى

الشخصية ، إذ كان كوخ الحارس مهجورا لم يجد من يسكنه بعد . وكانت المسافة من البوابة حتى « الجرانج » لا تعدو ميلين ، ولكنى اعتقد أننى جعلتها أربعة أميال بما حدث لى من التيه بين الأشجار ومن الغوص حتى رقبتى فى حفائر الثلج ! ــ وهى حالة لا يقدرها إلا اولئك الذين خبروها فعلا ! ــ ومهما يكن من امر ، وكيفما كان تجوالى فى الحدائق ، فقد كانت الساعة تدق الثانية عشرة عندما كنت الج باب المنزل ، ومعنى ذلك اننى قطعت فى كل ساعة ميلا واحدا من المسافة العادية بين منزلى ومرتفعات ويذرنج ..

واندفعت مدبرة منزلى وتوابعها لتحيتى وهن يهتفن فى ضجة عالية انهن قد قطعن الأمل نهائيا فى عودتى سليما . كان كل إنسان يظننى قد هلكت فى الليلة الماضية ، وكانوا فى حيرة من طريقة البحث عن جثمانى ! .. فطلبت إلى الجميع ان يركنوا إلى الهدوء والسكون بعد ان راونى ارجع سالما ، ثم مضيت اجر قدمى المتثاقلتين إلى الطابق العلوى ، وقد سرت البرودة فى جسدى حتى شغاف قلبى ، فأصابته بالمخدر .. وبعد ان استبدلت بملابسى ثيابا جافة ، ورحت اذرع الأرض ذهابا وجيئة نحو ثلاثين او اربعين دقيقة استجلابا للدفء ، مضيت إلى حجرة المكتب خائر القوى كأننى قطيطة صغيرة .. بل لقد كنت من الضعف والخور بحيث لم اشعر بمتعة النار المتأججة فى الموقد ، ولا بالقهوة الساخنة ، التى ينبعث البخار منها ، والتى أعدتها لى الخادم لأستعيد بها قواى الضائعة ..

***

الفصل الرابع

الا ما أعجب تقلباتنا مع الاهواء ، كأننا ديك « دوارة الريح » المختال ! .. فأنا .. أنا الذى كنت عاقدا العزم على الاحتفاظ بنفسى بمناى عن اية صلة اجتماعية ، والذى حمدت حسن طالعى إذ هدانى إلى النزول ببقعة تكاد مثل هذه الصلة فيها ان تكون مستحيلة عمليا .. انا ، ذلك التعس الضعيف الارادة. قد اضطررت فى النهاية إلى الاستسلام وإلقاء السلاح ، بعد أن ظللت حتى الغسق أصارع الوحدة والسأم ، فاتخذت من الرغبة فى الاستفسار عن بعض الشئون الخاصة باحتياجات المنزل ، ذريعة لأرغب إلى « مسز دين » ــ عندما أحضرت لى العشاء ــ بأن تجلس معى ، ريثما اتناول طعامى ، راجيا فى قرارة نفسى ان تكون ثرثارة عريقة ، فإما ان ينشطنى حديثها، او يسلمنى إلى النعاس ..

بدات اقول لها :

ــ لقد عشت هنا زمنا طويلا .. الم تقولى انك فى خدمة السيد منذ ستة عشر عاما ؟

ــ بل ثمانية عشر ياسيدى .. فقد حضرت عندما تزوجت سيدتى ، لأقوم على خدمتها ورعاية شئونها .. وعندما قضت نحبها ، احتفظ بى السيد لأكون مدبرة منزله..

فغمغمت قائلا « ذلك حق .. »

وتلت ذلك فترة من الصمت ــ حتى لقد خشيت الا تكون

ثرثارة كما رجوت ـ فيما عدا الحديث عن شئونها الخاصة التى لا تكاد تهمنى فى كثير أو قليل .. ومهما يكن من أمر فانها بعد ان اخلدت إلى التفكير برهة ، وقد وضعت قبضتيها على ركبتيها ، وخيمت على محياها المتورد سحابة من التأمل وإمعان الفكر ، انبعثت تقول :

ـ آه ! .. شد ما تبدلت الأحوال منذ ذلك الحين !

ـ نعم .. واحسبك شهدت الكثير من التغيرات ؟

ـ اجل .. ومن المتاعب كذلك ..

فقلت لنفسى : « اه !.. سوف أنحو بالحديث ناحية مالك الدار واسرته ، فهو خير موضوع نبدا به .. ثم اننى اود ان اعرف تاريخ تلك الفتاة الأرملة الحسناء ، وهل هى من اهل الإقليم أم أنها ، كما هو الأرجح ، غريبة عنه ، حتى أن ذلك « الوطنى » العبوس لا يعترف بقرابتها له .. »

وإذ عزمت على ذلك ، سالت مسز دين لماذا اجر هيثكليف (ثراشكروس جرانج) ، مفضلا أن يعيش فى مركز ومسكن يقلان عنه شانا ؟! .. وختمت السؤال بقولى :

ـ أم أنه ليس من الثراء بحيث يستطيع الاحتفاظ بالقصر فى مستوى رفيع ؟

فقالت :

ـ الثراء ياسيدى ؟ .. أن احدا لا يعرف كم لديه من المال الذى يزداد سنة بعد أخرى !.. نعم .. نعم .. أنه من الثراء بما يكفيه للإقامة فى دار خير من هذه بكثير ، ولكنه

شحيح بخيل ، ويده مغلولة إلى عنقه .. ولو فكر مرة فى أن ينقل عشه إلى الجرانج ، فإنه ما ان يسمع عن مستاجر طيب حتى لا يطيق أن تفوته فرصة إقتناء بضع مئات اخرى .. وإنى لأعجب كيف يستبد الجشع بالناس إلى هذا الحد عندما يكونون وحيدين فى هذه الدنيا !

ـ يبدو انه كان له ولد ؟

ـ نعم ، كان له ولد ومات ..

ـ وهذه السيدة الشابة ، مسز هيثكليف ، اهى ارملة ذلك الابن ؟

ـ نعم ..

ـ من اين ترينها قدمت اصلا ؟

ـ لماذا يا سيدى ؟ .. انها ابنة سيدى السابق ، رحمه الله .. وكان اسمها وهى عذراء « كاثرين لينتون » . إننى انا التى غذوتها وربيتها ، تلك الصغيرة المسكينة .. كم أود لو ينتقل مستر هيثكليف إلى هنا ، حتى يجتمع شملنا ثانية.

فهتفت فى دهشة : « ماذا ؟ .. كاثرين لينتون ؟ »

ولكنى ماكدت افكر لحظة حتى ادركت انها لا يمكن أن تكون « كاثرين ذات الشبح » التى ظهرت لى .. فاردفت قائلا :

ـ إذن فإن شاغل هذه الدار قبلى كان اسمه لينتون ؟

ـ لقد كان كذلك ..

ـ ومن هو ايرنشو .. هيرتون أيرنشو الذى يعيش مع مستر هيثكليف ؟ هل هما قريبان ؟

— كلا ، فهو ابن أخ مسز لينتون الراحلة ، والدة «كاثرين» . .

— هو ابن خال السيدة الشابة إذن ؟

— نعم . . كما كان زوجها ابن عمتها . . فقد تزوج هيثكليف شقيقة مستر لينتون . .

— لقد رايت اسم «ايرنشو» منقوشا فوق الباب الأمامى لمرتفعات ويذرنج ، فهل هى أسرة قديمة ؟

— وعريقة جدا ياسيدى . . وهيرتون هو آخر سلالتها كما ان عزيزتنا « مس كاثى » ـ « كاثرين » ـ آخر سلالة اسرة لينتون . . ولكن هل ذهبت إلى مرتفعات ويذرنج ياسيدى ؟ . . إننى اسألك المغفرة لتطفلى ، ولكنى وددت أن أعرف كيف حالها !

— مسز هيثكليف ؟ . . إنها تبدو فى خير صحة ، كما انها رائعة الحسن . . ومع ذلك فإنى احسبها غير سعيدة تماما !

— آه ! . . لهف قلبى عليها ! . . أن ذلك لا يدهشنى . . ولكن كيف كان مبلغ ارتياحك إلى السيد ؟

— أنه شخص أدنى إلى الفلظة والخشونة يا مسز دين . . أليس هذا خلقه ؟

— إنه خشن كحد المنشار ، وصلب كالصخر الصلد . . وكلما أقللت من التداخل معه كلما كان ذلك خيرا لك وأجدى . .

— لابد أن تكون الحياة قد تداولته بين سرائها وضرائها حتى غدا بهذه الغلظة والفظاظة . . هل تعرفين شيئا عن تاريخ حياته ؟

— إنها كحياة الطائر الفضولى ياسيدى ! . . وإنى أعرف كل شىء عنه ما خلا اين ولد ، ومن كان أبواه ، وكيف حصل على المال بادىء ذى بدء . . أما هيرتون فقد خرج صفر اليدين كالعصفور الذى نتف ريشه ! . . ان الفتى المنكود هو الوحيد، فى هذه المنطقة كلها ، الذى لا يعرف كيف كان ضحية الغش والخداع !

— حسنا يامسز دين . . انك تسدين إلى معروفا لو حدثتنى بطرف من انباء جيرانى ، فإنى اشعر بأننى لن انال الراحة التى انشدها لو اويت الآن إلى الفراش . لذلك ارجو ان تجلسى معى ساعة فنتحدث معا . .

— آه ! . بالتاكيد ياسيدى ! . . سوف احضر معدات الحياكة ثم اجلس معك ما طاب لك أن تستبقينى . . ولكنك اصبت ببرد ، فقد رايتك ترتعش ، ولابد لك من عصيدة ساخنة لتخرج البرد من بدنك !

وهرولت المراة الطيبة خارجة من الحجرة ، فاقتربت بمقعدى من النار ، وقد احسست براسى ينبض بالحرارة المرتفعة ، على حين كانت القشعريرة لا تكف عن جسدى لحظة . . وفضلا عن ذلك ، كنت شديد الانفعال ، إلى درجة السخف ، وقد ازداد التوتر فى اعصابى وفكرى . . وقد سبب لى ذلك أن شعرت ، لا بالتعب والإعياء ، بل بالخوف (وما يزال ذلك شأنى حتى الآن) من العواقب الخطيرة التى سوف تنجم عن أحداث اليوم والأمس . . وما لبثت مسز دين أن رجعت بعد قليل ، تحمل إناء ينبعث منه البخار ، وسبتا

لأدوات الحياكة ، فوضعت الأول على الرف المجاور للمدفأة ، ثم قربت مقعدها ، وقد بدت عليها الغبطة بان وجدتنى محبا للرفقة والعشرة !

وبدات تقول ، دون ان تنتظر دعوة جديدة للحديث :

« قبل ان احضر لاقيم هنا ، كنت اقيم بصفة دائمة فى مرتفعات ويذرنج ، إذ كانت امى مربية مستر « هندلى ايرنشو » ، وهو والد « هيرتون » ، واعتدت ان امضى الوقت فى اللعب مع الأطفال ، كما كنت اقوم بقضاء بعض الحاجات أيضا ، واساعد فى تذرية (الدريس) ، واحوم حول المزرعة متأهبة لأداء ما يمكن ان يكلفنى به اى شخص هناك ..

« وفى صباح يوم من ايام الصيف الجميلة ــ واذكر ان ذلك كان فى بداية موسم الحصاد ــ نزل مستر ايرنشو الكبير ، جد هيرتون ، مرتديا ثياب السفر ، وبعد ان القى إلى جوزيف باوامره عما ينبغى عمله خلال ذلك اليوم ، تحول نحو هندلى وكاثى(١) ، ونحوى ــ إذ كنت اجلس معهما واشاركهما طعام الإفطار ــ وقال مخاطبا ولده : « والآن ايها الرجل الصغير ، إننى راحل إلى ليفربول اليوم ، فما الذى تريد ان احضره لك معى ؟ فى وسعك ان تختار ما تريد ، ولكن ليكن شيئا صغير الحجم لأننى سأذهب واعود سيرا على الأقدام ، والمسافة

---

(١) كاثى او كاثرين « ايرنشو شقيقة هندلى » هى غير كاثى او كاثرين « لينتون » التى سبق الحديث عنها ، (وستظهر صلة القرابة بينهما فيما بعد) .

ستون ميلا ذهابا ومثلها فى الإياب ، وهى كما ترى شقة طويلة ! » .. فطلب هندلى كمنجة ، وعندئذ تحول نحو مس كاثى ، ولم تكن وقتئذ قد جاوزت السادسة من العمر وإن كان فى استطاعتها ان تمتطى صهوة اى جواد فى الحظيرة ، فاختارت ان تكون هديتها سوطا .. ولم ينسنى ، فقد كان طيب القلب عطوفا ولو انه كان يعمد إلى القسوة والصرامة احيانا ، فوعدنى بأن يحضر لى ملء جيبه من التفاح والكمثرى .. وبعدئذ قبل طفليه ، وودعنا جميعا ، ثم انطلق فى رحلته ..

وقد بدت أيام غيابه الثلاثة دهرا طويلا لنا جميعا ، وكانت كاثى الصغيرة لا تفتأ تسأل عن موعد عودته .. وكانت مسز ايرنشو تتوقع حضوره فى موعد العشاء من مساء اليوم الثالث ، فراحت تؤجل تناول الطعام ساعة بعد اخرى ، دون ان يظهر ما يدل على مقدمه .. واخيرا ادرك الطفلين الإعياء من كثرة ما ذهبا إلى البوابة ليطلا على الطريق .. ثم اطبق الظلام واحتلك الليل وارادت امهما ان تضعهما فى الفراش ولكنهما توسلا إليها فى اسى أن تدعهما ينتظران والدهما .. واخيرا ، فى الساعة الحادية عشرة تماما ، إذا بمزلاج الباب (السقاطة) يرفع فى هدوء ، وإذا بالسيد يدخل فيلقى بنفسه على أحد المقاعد ، وهو يضحك ويتأوه فى وقت معا ، ويأمر الجميع بأن يبتعدوا عنه ، لأنه يكاد يقع صريعا من التعب ، ثم يقسم بأنه لن يمشى مثل هذه المسافة مرة اخرى ولو اوتى تيجان الممالك الثلاث ..

واردف قائلا : « ولقد كنت فى نهايتها أجرى حتى كدت اهلك . . . »

وتمهل لحظة ثم فتح معطفه الفضفاض الذى كان يضم طرفيه بين ذراعيه . واستطرد يقول :

ـ انظرى هنا يا زوجتى ! . . إننى لم اغلب على امرى من شىء فى حياتى كهذه المرة . . ولكن يجب ان ننظر إليه كهبة من الله ، وإن كان لونه القاتم يجعله اشبه بعطية من الشيطان ! . .

وتزاحمنا جميعا حوله ، اما انا فقد تلصصت من فوق رأس مس كاثى لأرى غلاما قذرا اسود الشعر يرتدى أسمالا مهلهلة، وفى سن تسمح له بالمشى والكلام ، بل الواقع ان وجهه كان يبدو اكبر سنا من مس كاثى ، ومع ذلك فعندما وقف على قدميه ، راح يحملق بأنظاره حواليه وينطلق فى رطانة لم يستطع أحدنا أن يفهم شيئا منها . . وقد تملكنى الذعر . بينما كادت مسز أيرنشو تطوح به خارج الباب ، وهى تثور فى وجه زوجها لتسأله كيف استساغ أن يجلب إلى المنزل هذا الجرو الغجرى ، على حين ان لهما طفلين يقومان باطعامهما والعناية بهما ؟ . . ثم ما الذى ينوى أن يفعله بهذا «الشىء» ؟ وهل اصابه الجنون حتى يحضره ؟ . . وقد حاول السيد ان يشرح لها الأمر ، لكنه كان شديد الإعياء حقا ، يكاد التعب يورده حتفه ، وكل الذى استطعت ان أتبينه ، خلال صياحها وتعنيفها له ، ماذكره عن رؤيته لهذا « الشىء » فى شوارع ليفربول شريدا يكاد يهلك جوعا ، وهو كالأبكم لا يستطيع أن

يرشده إلى داره أو أهله ، فحمله وراح يسأل عن اهله ، ولكن احدا فى المدينة لم يعرف من أين اتى ، ومن صاحبه . . وإذ كان وقته ونقوده محدودين ، فقد فضل أن يعود به إلى داره بدلا من البقاء وإنفاق المزيد من النقود فى غير طائل هناك ، لأنه كان قد قرر الا يتركه حيث وجده . . وحسنا ! . لقد كان ختام هذا المشهد أن هدات سيدتى وسكنت حدة غضبها وتذمرها ، وأن طلب إلى مستر ايرنشو ان آخذ الغلام فاغسل بدنه والبسه ثيابا نظيفة ، وادعه ينام مع الطفلين . .

وكان هندلى وكاثى قد اكتفيا بالنظر والإصغاء ، حتى عاد السلام بين الزوجين ، وعندئذ بدأ كلاهما يفتشان جيوب أبيهما بحثا عن الهدايا التى وعدهما بها . . وكان هندلى صبيا فى الرابعة عشرة ، ولكنه عندما أخرج من المعطف العظيم ذلك الشىء الذى كان يدعى « كمنجة » قبل أن يصبح حطاما ، اجهش بالبكاء فى صوت عال . . أما كاثى فعندما علمت أن السيد قد فقد سوطها أثناء عنايته بالغلام الغريب ، فقد عبرت عن شعورها بأن ابتسمت ، ثم بصقت على الغلام الصغير ، فاستحقت أن تنال ، جزاء ما تجشمت من عناد ، لطمة عنيفة من والدها ، لتتعلم كيف يكون مسلكها اكثر رقة وادبا فى المستقبل ! . . وقد أصر الطفلان على رفض السماح للقيط بالنوم معهما فى الفراش ، أو حتى فى حجرتهما . . ولم أكن أكثر منهما سماحة ، فوضعت الطفل على (بسطة) السلم ، مؤملة ان أجده فى الصباح وقد اختفى من الدار . . وشاءت الصدفة ، أو لعل صوت مستر ايرنشو قد اجتذبه ،

فإذا به يزحف حتى باب حجرة السيد ، فوجده راقدا أمام الباب عندما غادر حجرته فى الصباح ... وقام السيد بالتحقيق فى كيفية وجوده هناك ، فاضطررت إلى الاعتراف ، وكان جزاء خستى وقسوتى أن طردت من المنزل ! ..

وكانت هذه بداية العهد بدخول هيثكليف فى نطاق الأسرة ..

فلما عدت ثانية بعد أيام قلائل (إذ أنى لم أعتبر طردى نهائيا) وجدت انهم قد عمدوه باسم « هيثكليف » ، وهو إسم ابن لمستر أيرنشو مات طفلا ، واصبح هذا الاسم بمثابة إسم ولقب له منذ ذلك الحين ... كما وجدت أنه ومس كاثى قد أصبحا صديقين حميمين ... اما هندلى فكان يبغضه ، وإذا شئت الحق فإننى كنت أكرهه كذلك ، وهكذا تعاونا معا على إيذائه والإيقاع به على نحو مزر .. لأننى لم أكن من التعقل بحيث أدرك ما اقترفه من ظلم ، كما أن السيدة لم تقف يوما فى صفه ، او تنطق بكلمة لإنصافه ، عندما كانت تراه موضع الإساءة ...

اما هو فكان طفلا صبورا دائم التجهم . ولعل سوء المعاملة قد جعله أشد صلابة ، فإنه كان يحتمل لطمات هندلى دون أن يطرف عينا أو يذرف دمعة ، كما أن قرصاتى لم تكن تحرك فيه اكثر من شهقة عميقة وهو يحملق بعينيه كأنه هو الذى أصاب نفسه مصادفة دون أن يكون لأحد ذنب فيما أصابه ! وكان هذا الاحتمال سبب ثورة مستر أيرنشو الكبير عندما

اكتشف اضطهاد ابنه للغلام اليتيم المسكين ، كما كان يدعوه ... وكان قد اشتد تعلقه بهيثكليف إلى حد غريب ، واصبح يصدق كل ما يقوله (وهو من هذه الناحية لم يكن يقول إلا القليل كما كان يلتزم الصدق عادة) ويدلله أكثر مما يدلل كاثى التى كانت شقية عنيدة لا تستحق التدليل ! ..

وهكذا كان هيثكليف منذ البداية ينمى المشاعر الشريرة فى المنزل ، حتى إذا ما قضت مسز أيرنشو نحبها ، وكان ذلك بعد أقل من عامين من مقدمه ، كان السيد الشاب هندلى قد تعلم ان يعتبر أباه طاغية لا صديقا ، وأن يعد هيثكليف مغتصبا لعواطف ابيه ، ولامتيازاته الخاصة .. وكان يزداد مرارة كلما امعن التفكير فى هذه الاساءات ، وكنت أماثله واعطف على مشاعره ... فلما مرض الأطفال بالحصبة ، وكان على أن أرعاهم ، وأن آخذ على عاتقى للتو مسئولية العناية بهم وتمريضهم باعتبارى المرأة الوحيدة بالمنزل ، تغيرت آرائى ... وكان هيثكليف مريضا إلى حد خطير ، وبينما كان يرقد فى أسوأ حالاته كان يود دائما أن أظل بجوار وسادته .. وأحسبه قد شعر بأننى فعلت الكثير من أجله ، ولم يكن من الفطنة بحيث يحدس أننى ما فعلت ذلك إلا مضطرة .. ومهما يكن من أمر ، فلا بد لى من القول بأنه كان اهدأ طفل نهضت بالعناية به ممرضة قط .. وكان الفرق بينه وبين الطفلين الآخرين هو الذى أرغمنى على أن أغدو أقل تحيزا ..

فقد ضايقتنى كاثى وأخوها إلى حد مروع ، بينمـا كان هو كالحمل لا يشكو ولا يتوجع ، وإن كانت صلابته ـ لا رقته ـ هى التى جعلته أقل إثارة للمتاعب ...

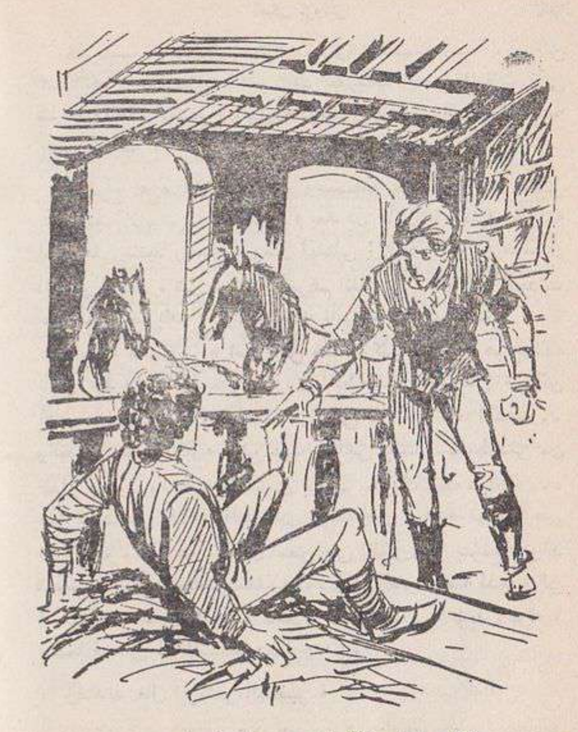
ونجا هيثكليف من الخطر واجتاز المحنة بسلام ، فأكد الطبيب أن الفضل فى ذلك يرجع لى إلى حد كبير ، وامتدحنى لعنايتى به .. وكنت فخـورا مزهوة بهـذا الثناء ، ورقت مشاعرى نحو ذلك المخلوق الذى نلت الثناء بسببه ، وهكذا فقد هنـدلى آخـر حليف له ... ومـع ذلك فإنى لم أكن مشغوفة بهيثكليف ، وكنت كثيرا ما تأخذنى الدهشة ممـا كان سيدى يراه فى ذلك الغلام العبوس المتجهم حتى يعجب به إلى هذا الحد ، مع أنه لم يبـد قط ، فيمـا أذكر ، أية إشارة تنم عن عرفان الجميل والحمد لقاء هذا الرفق والعطف! .. ولم يكن وقحا او سفيها مع المحسن إليه ، بل كان فقط مجردا من الشعور والإحساس باحســانه إليه ، مع انه كان يعرف تماما المنزلة التى يحتلها فى قلبه ، ويعلم انه لو أراد شيئا فما عليه إلا أن يتكلم حتى ينحنى المنزل بكل من فيـه أمام رغباته ... واذكر ـ على سبيل المثال ـ ان مسـتر أيرنشو اشترى مهرين من سوق الأبرشية ذات مرة ، واعطى كلا من الغلامين واحدا فأخذ هيثكليف اجمل المهرين ، إلا انه ما لبث ان أصيب بالعرج .. وما كاد يكتشف ذلك حتى قال لهندلى :

ـ يجب ان تبادلنى مهرك بمهرى ، فلست أحبه .. ولئن لـم تفعل فسـوف أخبر اباك بضربات العصى الثلاث التى ضربتنيها هذا الأسبوع ، وأريه ذراعى التى ما تزال زرقاء داكنة حتى الكتف ...

فأخرج له هندلى لسانه ، وصـفعه على اذنيه .. ففـر هيثكليف إلى شرفة الحظيرة (بعد ان كانا بداخلها) ولـكنه اصر على تنفيذ رغبته ، وقال لهندلى : « خير لك أن تفعـل ذلك فى الحال ، قبل أن تفعله برغم أنفك ... فلو أننى تحدثت عن هذه الضربات ، لردت إليك ثانية ، مع فوائدها ! .. » فصاح به هندلى : « امش من هنا يا كلب .. » وهو يهدده بثقل حديدى يستعمل فى وزن البطاطس والدريس ، ولكن الآخر وقف فى مكانه ساكنا ، واكتفى بأن قال : « اقذفه .. وعندئذ سوف أخبره كيف كنت تتباهى بأنك سـتطردنى من الدار بمجرد وفاته ، وسترى إذا لم يطردك أنت توا » ... فقذفه هندلى بالثقل الحديدى واصابه فى صدره فسقط على الأرض ، ولكنه ما لبث أن نهض على الفور وهو يترنح ، وقد شحب وجهه وتقطعت انفاسـه .. ولولا أننى منعته لذهب إلى السـيد للتو ، ولنال ثأره كاملا ، تاركا حالتـه تؤيد دعواه ، متهما هندلى بأنه السبب فيما حدث ..

وعندئذ قال أيرنشو الصغير :

ـ خذ مهرى إذن ، ايها النورى ! .. ولكنى أرجو أن يدق عنقك ! .. خذه أيها الفضولى الدنىء ! ولتحل عليك اللعنة !



فقذفه هندلى بالثقل الحديدى وأصـابه فى صـدره
فسقط على الأرض ، لكنه ما لبث أن نهض على الفور ..

.. أذهب فجـرد أبى من كل ما يملكه ، بملقك ومداهنتك ، ولكن أره بعد ذلك ما أنت عليه حقا ، ياسليل الأبالسة ! .. خذ هذا المهر ، ولكنى أرجو أن يركلك فيحطم رأسك وينثر مخك !

وكان هيثكليف قد مضى ليفك زمام الدابة ، وينقلها إلى المربط الخاص به .. وكان يمر خلفها عندما ختم هندلى كلامه بركلة قوية وجهها إليه من بين سيقان المهر ، ثم انطلق يعدو هاربا دون أن يتمهل ريثما يطمئن إلى استجابة دعواته .. ولقد استبدت بى الدهشة إذ رأيت الغلام يستجمع قواه فى هدوء ورباطة جأش منقطعة النظير ، ويمضى فى تنفيذ غرضه ، فيستبدل السروج وباقى معدات المهر ، حتى إذا ما أتم كل شىء ، جلس فوق حزمة من الدريس ليتغلب على الألم الذى سببته له تلك الركلة العنيفـة ، قبـل أن يدخل المنزل ... وقد أقنعته ، دون جهد أو عناء ، بأن يدع لى مهمة الزعم بأن إصابته كانت بسبب المهر الجديد .. فما كان يبالى بما يقال عن هذا الموضوع ما دام قد نال بغيته ... وكان فى الحق قلما يتذمر أو يشكو من هذه التوافه حتى لقـد ظننته ـ حقا ـ متسامحا غير حقود ، ولكننى كنت مخدوعة تماما ـ على ما سوف تسمع منى !

***

الفصل الخامس

أخذت صحة مستر ايرنشو تسوء وتذوى على مر الزمن .. وبعد أن كان يفيض بالصحة والنشاط ، غارقته قوته فجاة ، والجاه المرض إلى ملازمة مقعده بجوار المدفأة ، كما غدا سريع الهياج والإثارة .. كان يغضب للاشىء ، وتسبب له أقل شبهة من الاستهانة بسلطته وجبروته ، نوبات عنيفة من الثورة الجامحة .. وكان ذلك يشاهد بصفة خاصة عندما يحاول أحد أن يسيطر على غلامه الاثير ، أو يعامله بشىء من الغطرسة .. وكان يحرص فى دقة شديدة على الا تقال للفتى كلمة تجرح شعوره ، وقد دخل فى روعه ان الجميع يبغضون هيثكليف ويتوقون إلى الإساءة إليه بسبب حبه له وحدبه عليه .. ولقد اضر ذلك بالفتى واساء عاقبته ، إذ كان أكثرنا عطفا عليه لا يود إغضاب السيد ، فعمدنا إلى مداهنته وارضاء رغباته المتحيزة له ، وكانت هذه المداهنة غذاء دسما لغرور الفتى وسوء خلقه ... ولكن مسلكنا هذا كان ضروريا إلى حد ما .. فقد حدث مرتين أو ثلاثا أن اظهر هندلى زرايته بالغلام واستهانته به على مرأى ومسمع من ابيه فكان ذلك يثير ثائرة العجوز ، ويمسك بعصاه ليضربه ، ثم يرتجف حنقا وغيظا عندما كان يفلت منه ...

وأخيرا نصح قسيسنا (فقد كان لنا فى ذلك العهد قسيس يكسب لقمته من تعليم ابناء لينتون وابناء ايرنشو ، ومن زراعة قطعة الأرض التى يملكها بنفسه) بإرسال أيرنشو

الشاب إلى المدرسة الثانوية ، فوافق مستر أيرنشو على ذلك فى تثاقل وتردد ، حيث قال : « ان هندلى لن يصلح لشىء ، ولن يفلح فى شىء قط أينما ذهب .. »

ولشد ما كنت أرجو أن يسود السلام ربوعنا بعد ذلك .. فقد كان يؤلمنى أن أرى السيد مسلوب الراحة منغص العيش من جراء عمله الخيرى ، ويخيل إلى أن ضيق صدره الناجم عن السن والمرض إنما ينبعث من هذه الخلافات العائلية التى تحوطه ، وكأنما أراد ذلك فكان له ما أراده .. ولكن الحقيقة ياسيدى ، كما تعلم ، ان ذلك كان ناجما عن اضمحلاله الجسمانى المتزايد ...

وبرغم ذلك كله ، كان يمكن أن يمضى عيشنا هينا محتملا ، لولا شخصان اثنان ، هما مس كاثى ، وجوزيف الخادم ، واحسبك قد رأيته هناك .. فقد كان ــ وما يزال على الأرجح ــ من غلاة المتنطعين فى الدين ومن أشدهم تزمتا وغرورا .. أولئك الذين ينقبون فى الإنجيل (ويمشطونه) ، ليستخلصوا لأنفسهم ما به من وعود ورحمات ، ويهيلون على جيرانهم ما يحويه من وعيد ولعنات ! .. وكان ببراعته فى إلقاء المواعظ والخطب الدينية يسعى إلى بسط سلطانه على مستر أيرنشو ، وكلما ازداد السيد ضعفا وخورا كلما ازداد هو قوة ونفوذا عليه .. وكان يعمد ، فى غير شفقة أو رحمة ، إلى بث القلق فى نفسه من ناحية همومه الروحية ، وإلى الإيحاء إليه بوجوب أخذ أبنائه بالشدة والصرامة ! .. كان يشجعه على اعتبار هندلى شخصا ساقطا لا أمل فيه .. كما

كان ، ليلة بعد ليلة ، ينسج شبكة من القصص حول هيثكليف وكاثرين ، ولكنه كان يعنى دائما بتملق ايرنشو واستغلال ضعفه بالقاء اللوم كله على كاهل الأخيرة !

ومن المحقق ان الفتاة كانت غريبة الأطوار على نحو لم أر عليه طفلة قط من قبل ، وكانت تخرجنا جميعا عن طورنا ، وتمزق اهداب الصبر التى نستمسك بها أكثر من خمسين مرة كل يوم .. فمنذ الساعة التى تنزل فيها إلى الطابق الأسفل حتى ساعة ذهابها إلى الفراش ، لم نكن نحس لحظة بالأمن والسلامة من (شقاوتها) ... كانت خفتها ومرحها دائما فى ذروة ارتفاعهما ، وكان لسانها دائما فى ذروة نشاطه واندفاعه : فى الغناء ، والضحك ، وإيذاء كل امرىء لا يريد ان يجاريها فى ذلك ! .. كانت نبتة وحشية غير صالحة ! .. ولكن كانت لها اجمل عينين واحلى إبتسامة وارشق خطى فى الأبروشية كلها .. وبرغم كل شىء فاحسبها لم تكن تضمر لأحد شرا ، لأنها إذا حدث مرة أن دفعتك إلى البكاء عن عمد ، فهى قلما تفارقك أو تدعك وشأنك حتى ترغمك على الهدوء مرضاة لها وإراحة لضميرها !.. وكانت مولعة أشد الولع بهيثكليف ، فكان أعظم عقاب يمكن أن توقعه بها هو أن تفرق بينها وبينه ، ومع ذلك كان ما تلقاه من التقريع والتأنيب بسببه أكثر مما يلقاه اى منا .. وكانت إذا ما لعبت معنا ، تذوب حبا فى القيام بدور السيدة الصغيرة ، فتستخدم يديها فى حرية وتصدر الأوامر إلى زملائها فى اللعب .. وكانت تفعل

ذلك معى ، ولكنى ما كنت لأحتمل الإيذاء وتلقى الأوامر ، فافهمتها ذلك صراحة ..

وكان مستر أيرنشو وقتئذ لا يطيق المزاح من أطفاله ، فقد كان دائما صارما رصينا معهم ، وكانت كاثرين من جانبها لا تدرى لماذا غدا والدها اشد مشاكسة وأقل صبرا فى مرضه عما كان وهو فى عنفوان صحته ... وكانت تانيباته اللاذعة القارصة توقظ فيها رغبة خبيثة فى اثارته .. ولم تكن تبلغ من السعادة غايتها إلا عندما نشترك جميعا فى تقريعها ، فتتحدانا كلنا بنظراتها الجريئة ، وكلماتها السليطة المتدفقة من بديهة حاضرة ، فتحيل لعنات جوزيف الدينية إلى مهزلة مضحكة ، وتغيظنى وتعاندنى ، وتفعل اشد ما كان أبوها يمقته ويبغضه ، وهو إظهار كيف تحدث قحتها المفتعلة ـ التى كان يظنها اصيلة حقيقية ـ من الأثر القوى على هيثكليف اكثر مما تحدثه رقته هو معه وحدبه عليه ، وكيف ينفذ الغلام أوامرها أيا كانت ، بينما لا ينفذ من أوامره هو إلا ما يروقه ويلائم ميوله ... وكانت بعد أن تسلك أثناء النهار أسوأ مسلك تستطيعه ، تأتى أحيانا إلى ابيها فى المساء تلاطفه وتلاعبه ، لتصلح ما أفسدته ، وعندئذ يقول لها الشيخ : « كلا يا كاثى .. إننى لا أستطيع أن أحبك ، فأنت أسوأ من اخيك ... إذهبى ياطفلتى فاتلى صلواتك وادعى الله أن يغفر لك ... واحسب اننى وامك يجب أن نتحسر ونأسف على أن انجبناك وربيناك » ... فكان ذلك يجعلها تبكى وتنتحب فى بادىء الأمر ، وما لبثت أن زادها الصد المستمر صلابة وقسوة ،

فكانت تضحك ساخرة عندما أطلب إليها أن تقول إنها آسفة
على ما تأتيه من أخطاء وإنها ترجو الصفح عنها ومسامحتها . . .

* * *

وأخيرا حانت الساعة التى انهت متاعب مستر ايرنشو
على الأرض ، فلفظ أنفاسه الأخيرة فى هدوء وسكينة ، مساء
يوم من ايام شهر اكتوبر ، بينما كان يجلس فى مقعده بجوار
المدفأة .. وكان الجو عاصفا وحشيا ، وإن لم يكن باردا ،
والرياح تزمجر حول المنزل فيدوى زئيرها فى المدخنة ، بينما
كنا مجتمعين جميعا ... كنت منهمكة فى حبك الصوف
(التريكو) وقد انتحيت ناحية بعيدا عن الموقد ، وكان
جوزيف يطالع فى الإنجيل بالقرب من المائدة (فقد كان الخدم
وقتئذ يجلسون عادة فى البيت (حجرة الجلوس) بعد انتهاء
عملهم) وكانت مس كاثى مريضة فى ذلك اليوم ، مما جعلها
ساكنة هادئة وهى تجلس مستندة إلى ركبة ابيها ، بينما
استلقى هيثكليف على الأرض واضعا رأسه فى حجرها . . .
وما زلت اذكر كيف راح السيد ـ قبل أن تأخذه سنة من
النعاس ـ يربت على شعرها الجميل ، إذ كان يسره كثيرا
أن يراها عاقلة لطيفة ـ وقلما كانت كذلك ! ـ ويقول :
« لماذا لا تكونين دائما فتاة طيبة يا كاثى ؟ . . » وكيف رفعت
وجهها نحوه وانطلقت تضحك وهى تجيبه : « ولماذا لا تكون
دائما رجلا طيبا يا أبتاه ؟! . . » ولكنها ما كادت تراه وقد

انتابه الضيق ثانية ، حتى قبلت يده وظلت ممسكة بها وهى
تقول إنها سوف تغنى له حتى ينام ... وقد بدات تغنى فى
صوت شديد الخفوت ، حتى تراخت أصابعه وافلتت من
يدها ، وانحنى راسه فوق صدره ... فاشرت إليها ان
تصمت ، وان تكف عن الحركة خشية أن توقظه ، كما لبثنا
جميعا ساكنين صامتين كالجرذان ، حتى انقضى نصف
ساعة ، كان يمكن ان يزيد ، لولا ان جوزيف نهض من مجلسه
بعد أن اتم قراءة الفصل الذى كان يطالعه فى الإنجيل ، وقال
انه سوف يوقظ السيد ليتلو صلواته ويأوى إلى فراشه . .
وتقدم جوزيف إلى الأمام وناداه باسمه ، ثم لمس كتفه فى
رفق ، ولكنه لم يتحرك ، فتناول شمعة وقربها إليه واخذ
يتأمله ، فأدركت للتو عندما نحى الضوء بعيدا ، ان هنالك
شيئا غير عادى قد حدث ، وأمسكت بالطفلين من ذراعيهما
وهمست لهما بأن : « يذهبا معا إلى الطابق العلوى ، ولا يحدثا
جلبة كبيرة ـ وأن فى وسعهما تلاوة الصلوات وحدهما ذلك
المساء ـ فان جوزيف لديه عمل آخر سوف يقوم به » . .
ولكن كاثرين قالت :

ـ سوف القى على ابى تحية المساء أولا . .

وأسرعت تطوق عنقه بذراعيها قبل أن نتمكن من الحيلولة
بينها وبينه .. ولكن الصغيرة المسكينة تبينت للتو خسارتها
الفادحة ، فصرخت : « آه ! .. انه ميت ... لقد مات

يا هيثكليف !.. » وراح الاثنان يبكيان فى نحيب يقطع نياط القلوب ..

وشاركتهما الولولة والبكاء فى عويل مرير ، غير أن جوزيف سألنا عما نقصده من الزئير على هذا النحو فوق قديس رفع إلى السماء ! .. ثم طلب منى أن ارتدى معطفى واسرع إلى (جيمرتون) لاحضر الطبيب والقس . فلم استطع ان أحدس الفائدة من حضـور اى منهما وقتئذ ... ومهمـا يكن من أمر فقد مضيت وسط الرياح والأمطار ، فلما رجعت كان معى احدهما : وهو الطبيب .. اما الآخر فقد قال إنه سـوف يحضر فى الصباح ... وتركت لجوزيف مهمة إيضـاح الأمر للطبيب واسرعت اعدو نحو حجرة الطفلين ، فوجدت بابهـا مواربا ، والفيتهما مستيقظين لم يأويا إلى الفراش بعد ، برغم ان الوقت كان قد جاوز منتصف الليل ، ولكنهما كانا اشد سكينة ، وفى غير حاجة إلى أن أسرى عنهما .. كان الصغيران البريئان يروح كل منهما عن الآخر بكلام وافكار افضل كثيرا مما كان يمكن ان اقوله لهما ، وما من قس فى العالم كان يمكنه البتة ان يصور السماء والجنة بأجمل مما كانا يصورانهما به فى حديثهما البرىء .. وبينما كنت أصغى اليهما باكية ، لم املك إلا ان اتمنى لو اننا كنا جميعا هناك سالمين معا ..

***

الفصل السادس

عاد مستر هندلى ليحضر الجنازة ، ولكن الشىء الذى أثار عجبنا ودهشتنا ، وجعل الجيران يلغطون بالأحاديث يمنة ويسرة ، وهو أنه لم يحضر وحده ، وإنما أتى معه بزوجته ... أما من تكون ، وأين ولدت ، فإنه لم يخبرنا بذلك قط ... ولعلها كانت عاطلا عن مال أو اسم رفيع يشفعان لها . وإلا لما كتم عن أبيه أمر زواجه منها ..

ولم تكن هى بالتى تحدث فى المنزل اضطرابا كبيرا بسبب وجودها فيه .. وكان كل شىء تقع عليه أنظارها منذ اجتازت عتبة الدار ، يبدو كأنما يثير اعجابهـا وسرورها ، وكذلك الشأن فى كل حدث يجرى حولها ، فيما عدا معدات الجنازة والدفن ووجود المعزين المرتدين ثياب الحزن .. وقد حسبتها شبه بلهاء بسبب مسلكها الذى اتخذته بينما كانت هـذه الاسـتعدادات تمضى فى طريقهـا ، إذ هرعت إلى حـجرتها وجعلتنى امضى إليهـا معها ـ بينمـا كان ينبغى ان أتولى إلباس الطفلين ثيابهما ـ ثم جلست ترتعد فرقا وهى تهصر اصابعها المتشابكة ، وتتابع سؤالى مرة بعد مرة : « الم تذهبوا بعد ؟ » .. وبدأت تصف لى ، فى انفعال وعصبية ، الاثر الذى يحدثه فى نفسـها مرأى الســواد ، وما لبثت أن انتفضت وارتجفت ثم انخرطت فى بكاء اليم ... فلما سألتها عمـا اصابها ، اجابت بأنها لا تدرى ، غير انها تحس بخوف مروع من أن تموت .. وخلتها لا تزيد تعرضا للموت عنى ، فمع أنها

نحيلة نوعا ، إلا انها كانت فى مقتبل الشباب ، نضرة المحيا . تتألق عيناها كانهما قطعتان من الماس . . . بيد أننى لا حظت ، حقا ، ان ارتقاءها الدرج قد جعل انفاسـها تتتابع فى سرعة لاهثة ، وأن اقل جلبة مفاجئة تبعث الرعدة فى بدنها كله ، وانها كانت تسعل أحيانا سعالا أليما . . ولكنى لم أكن أدرى شيئا عما تنذر به هذه الأعراض ، ولم أشعر بدافع إلى الرثاء لحالها ، فاننا عادة لا نالف الغرباء هنـا يا مسـتر لو كوود ، ما لم يانسوا إلينا اولا . .

وكان ايرنشو الشاب قد تغير كثيرا فى السنوات الثلاث التى استغرقتها غيبته . . كان قد ازداد نحولا ، كما ازداد لونه شحوبا ، غدا يتكلم ويرتدى ثيابه على نحو يختلف عما كان عليه من قبل . . بل انه فى يوم عودته بالذات ، أمرنى وجوزيف بأن نجعل إقامتنا ـ من الآن فصاعدا ـ فى المطبخ الخلفى ونترك (البيت) . . . والواقـع انه كان يود اتخاذ حجرة صـغيرة خالية كحجرة جلوس له ولزوجته . فيفرش أرضها بالسجاد، ويكسو جدرانها بالورق ، ولكن زوجته أعربت عن سرورها البـالغ بالبلاط الناصع البيـاض ، والموقد الضخم المتوهج ، وصحاف القصدير الواسعة ، وخزانة الخزف ، ووجار الكلب، وسعة المكان الذى اعتادا أن يجلسا فيه بما يسمح لها بالتجوال فى انحائه ، بحيث وجد هندلى من غير الضرورى لراحتها أن يتخذ تلك الحجرة ، وهكذا عدل عن فكرته . .

كذلك أعربت الزوجة عن غبطتها إذ وجدت لزوجها أختـا بين معارفها الجدد ، فراحت ـ فى بادىء الأمر ـ تثرثر مـع

كاثرين . وتقبلها ، وتطوف معها هنا وهناك ، وتمنحها الكثير من الهدايا ، ولكن هذا الود ما لبث أن خارت قواه وشيكا . . وعندما غدت كثيرة التقطيب سريعة الغضب ، غدا هنـدلى طاغية جبارا . . وكانت بضـع كلمات قليلة منها ـ توحى بكراهيتها لهيثكليف ـ كافية لأن توقظ فى هندلى حقـده القديم نحو الصبى ، فنحاه عن رفقتهم إلى رفقة الخدم ، وحرمه من الدروس التى كان يتلقاها على القس ، وأصر على أن يعمـل ، بدلا من ذلك ، فى خارج الدار ، مرغمـا إياه على اداء أشق الأعمال فى الحقل ، شأنه فى ذلك شأن غيره من عمال الزراعة . .

واحتمل هيثكليف هذا الهوان فى صـبر وجلد فى بادىء الأمر ، لأن كاثى كانت تلقنه ما تتعلمه من دروس ، وتشاركه فى اللعب أو العمل فى الحقول . . وكانا كلاهما ينذران بانهما سيشبان طليقين ضاريين كالمتوحشين . . فإن السيد الشاب ما كان يبالى البتة أى مسلك يسلكان ، أو شىء يفعلان ، طالما كانا بعدين عن طريقـه وعن ناظريه . . بل انه ما كان ليعنى بالتحقيق من ذهابهما إلى الكنيسة فى أيام الآحاد ، لولا ان جوزيف والقس كانا يعنفانه على تراخيه كلما تغيب الفتى والفتاة عن القداس ، فكان ذلك يذكره بأن يأمر بجلد هيثكليف بالسياط ، وحرمان كاثى من الغذاء أو العشـاء . . . وكانت متعتهما الكبرى ان يخرجا إلى الأحراش منذ الصباح فيمرحا ويرتعا طوال اليوم ، وأصـبح ما يحل بهما من عقاب بعـد ذلك ، مجرد شىء يضحكان منه ويسخران [illegible] بوسع

القس ان يفرض على كاثى قدر ما يشاء من الفصول لحفظها عن ظهر قلب ، وكان بوسع جوزيف ان يظل يضرب هيثكليف حتى تدمى ذراعه ، ولكنهما سرعان ما ينسيان كل شىء فى اللحظة التى يجتمعان فيها معا ، أو على الأقل فى اللحظة التى يدبران فيها خطة خبيثة للانتقام ! .. وكم من مرة بكيت فيها اشفاقا على مصيرهما ، وانا أرقبهما وهما يزدادان طيشا يوما بعد يوم ، دون ان اجرؤ على التفوه بكلمة أو مقطع من كلمة ، خشية ان افقد ذلك النزر اليسير من السلطة الذى كنت ما ازال احتفظ به على الصغيرين اللذين حرما الأصدقاء ...

وقد حدث فى مساء يوم من أيام الآحاد ان أقصى الصغيران من حجرة الجلوس ، لضجة أحدثاها أو ما اشبه ذلك من التوافه ، فلما ذهبت لأدعوهما لتناول العشاء . بحثت عنهما فى كل مكان فلم اجدهما .. ورحنا نفتش المنزل من عاليه إلى اسفله ، وكذلك الفناء والحظائر . ولكنهما كانا مختفيين تماما .. فثار هندلى أخيرا ، وامرنا بأن نوصد الأبواب ونحكم رتاجها واقسم الا يفتح لهما أحد أو يدعهما يدخلان الدار فى تلك الليلة ..

وذهب أهل الدار جميعا إلى مضاجعهم . إلا انا فقد كنت من القلق واللهفة بحيث استحال على الرقاد . ومن ثم فتحت نافذتى ومددت رأسى خارجها أرهف السمع لكل حركة ، على الرغم من المطر المنهمر ، وقد عزمت على ادخالهما إذا عادا ، غير مكترثة لأمر السيد بتحريم المنزل عليهما فى تلك الليلة ...

وما مضت هنيهة حتى ميزت بين إيقاع المطر ، وقع خطوات قادمة من أول الطريق ، ولمحت بصيص ضوء يلتمع عند البوابة .. فبادرت بالقاء وشاح فوق رأسى ، وسارعت لأفتح لهما الباب قبل أن يوقظا مستر ايرنشو إن هما طرقاه .. ولكننى وجدت هيثكليف وحده . فارتعت إذ رأيته بمفرده ، وهتفت به قائلة فى عجلة :

ــ اين مس كاثرين ؟ .. ارجو الا يكون قد أصابها شىء؟..

فأجابنى : « إنها فى ثرشكروس جرانج .. وكان يمكن ان أكون هناك بالمثل لولا أنهم لم تكن لديهم فضلة من الذوق والأدب بحيث يدعوننى للبقاء ! » .. فقلت له : « حسنا ، سوف تلقى جزاءك .. ولعمرى لن تقنع قط حتى تطرد من هنا ، ويرمى بك لتدبر شئونك بنفسك .. ثم ما الذى دفعكما إلى التجوال حتى ثرشكروس جرانج بحق السماء ؟ » .. فأجابنى : « دعينى ريثما أنزع ثيابى المبللة يا نللى ، وسوف أخبرك بكل شىء عن ذلك » .. وطلبت إليه ان يحذر من إيقاظ السيد ، وفيما كان يخلع ثيابه ، بينما وقفت انتظر حتى اطفىء الشمعة ، استطرد يقول :

ــ لقد فررنا ، كاثى وأنا ، من حجرة الغسيل لنقوم بجولة فى الخلاء نستمتع فيها بحريتنا ، فلما لمحنا اضواء «الجرانج» من بعد ، خطر لنا أن نذهب للتو فنرى ان كان لينتون الصغير وشقيقته يقضيان أمسيات أيام الآحاد واقفين فى الأركان يرتعدان من البرد ، بينما يجلس والدهما ووالدتهما ينعمان بالطعام والشراب والغناء والضحك والدفء المنبعث من نار

الموقد المتأججة .. هل تظنينهما يفعلان ذلك يانللى ؟.. أم ترينهما يقرآن العظات ويدرسان اللاهوت على يد خادم عجوز يرغمهما على حفظ أعمدة برمتها من الأسماء المعقدة التى ذكرت بالتوراة إذا هما لم يحسنا الإجابة على أسئلته ؟ ..

فاجبته : « إنهما لا يفعلان ذلك على الأرجح ، فلا ريب أنهما طفلان طيبان لا يستحقان المعاملة التى تلقيانها جزاء سلوككما السيىء ! . » فابتدرنى مجيبا : « دعى عنك هذا النفاق يانللى .. فأنت تهذين .. حسنا .. لقد انطلقنا نعدو من قمة المرتفعات حتى الحديقة ، دون توقف ، وقد غلبت كاثرين تماما فى هذا السباق لأنها كانت حافية القدمين ـ وعليك أن تبحثى غدا عن حذائيها وسط مستنقعات الأوحال ! ـ ثم تسللنا خلال ثغرة فى السياج ، وتلمسنا طريقنا فى الممر المرتفع حتى وقفنا أخيرا فوق أصيص زهر تحت نافذة حجرة الجلوس ، وهى التى كان يتسرب خلالها الضوء الذى رأيناه ، إذ كانت مصاريعها الخشبية غير موصدة وستائرها منفرجة .. وكان فى وسع كل منا أن ينظر إلى داخل الحجرة إذا وقفنا فوق الأصيص وتعلقنا بإفريز النافذة .. وما الذى رأيناه ؟ .. لقد صافحت عيوننا منظرا خلابا ! .. كان المكان رائع الجمال تغطى أرضه طنافس قرمزية اللون ، وتكسو مقاعده وموائده مفارش من اللون نفسه ، والسقف ناصع البياض مموه الحواشى بالذهب ، تتدلى منه ثريا من قطع البلور الشبيهة بقطرات الدموع ، وقد علقت إلى السقف بسلاسل من الفضة وتألقت بأضواء شموع دقيقة رقيقة .. ولم يكن مستر ومسز

لينتون الكبيران هناك ، وإنما اختص بالحجرة كلها ادجار وشقيقته .. أفلا يخلق بهما أن يكونا سعيدين هانئين ؟ .. أننا لو كنا فى مكانهما لحسبنا نفسينا فى الفردوس ! .. والآن ، هل يمكنك أن تحدسى ما كان « طفلاك الطيبان » يفعلان ؟ .. كانت أيزابيلا ـ وأحسبها فى الحادية عشرة وتصغر كاثى بعام واحد ـ مستلقية على الأرض فى الطرف القصى من الحجرة وهى تصيح وتصرخ كأنما اجتمعت عليها الساحرات يغرسن فى لحمها ابرا محماة فى النار ! .. أما ادجار فكان يقف بجوار الموقد ، وهو ينتحب فى سكون ، بينما قبع فى وسط المائدة جرو صغير يهز ذراعه وينبح نباحا خافتا ، وفهمنا من الاتهامات التى كانا يتبادلانها أنهما كادا يشطرانه بينهما وهما يتجاذبانه .. يالهما من أخرقين ! .. أبهذه الوسيلة يلهوان ويلعبان ؟ .. أن يتشاجرا متنازعين على أيهما يمسك هذه الكومة من الشعر الدافىء ، ثم يأخذ كل منهما فى البكاء لأن كلا منهما ، بعد أن ناضل رفيقه على اقتنائها ، يأبى أن يأخذها ! .. لقد أمعنا فى الضحك ساخرين من هذين الأبلهين اللذين أفسدهما التدليل ، وامتلأت نفسانا ازدراء لهما واحتقارا لصغارهما .. بربك يا نللى هل ضبطتنى يوما راغبا فى شىء تريده كاثى ؟.. أو هل وجدتنا منفردين يوما ننشد اللهو والمرح فى الصراخ والعويل ، والتدحرج على الأرض ، تفصلنا الحجرة بأسرها ؟.. إننى لا أرضى قط ـ ولو عشت ألف حياة ـ بأن أستبدل بحالتى هنا ، حياة ادجار لنتون فى ثرشكروس جرانج ، حتى ولو اختصصت بميزة القدرة على

Illustration

وكنت أمسك بيد كاثى ، وأستحثها على الاسراع ، عندما وجدتها تسقط فجاة على الأرض دفعة واحدة .

إلقاء جوزيف من أعلى قمة فيه ، أو طلاء واجهة البيت بدم هندلى !.. » .

فقاطعته قائلة : « صه !.. صه !.. ثم انك لم تخبرنى بعد يا هيثكليف كيف خلفت كاثى وراءك ؟.. » .

فاستطرد يقول :

ـ قلت لك إننا ضحكنا ساخرين ، وعندئذ سمعنا الطفلان فاندفعا نحو الباب فى وقت معا كانهما قذيفتان من السهام .. وخيم الصمت لحظة ، ثم انبعثت صيحة تهتف : « آه .. ماما .. ماما .. آه .. بابا .. تعاليا هنا » .. والواقع ان كليهما كانا يعويان بكلمات من هذا النوع ، فأخذنا نحدث ضوضاء مخيفة لنزيد من رعبهما ، ولكننا ما لبثنا ان تركنا إفريز النافذة ، وهوينا إلى الأرض ، إذ كان أحد سكان الدار يرفع المزاليج من خلف الباب ، فشعرنا بان من الخير لنا ان نعمد إلى الفرار .. وكنت امسك بيد كاثى ، واستحثها على الإسراع ، عندما وجدتها تسقط فجاة على الأرض دفعة واحدة ، ثم تهمس لى قائلة : « اجر يا هيثكليف .. اسرع .. لقد أطلقوا البولدوج فى اثرنا وها هو يمسك بى !.. » وكان الشيطان يمسك بعقبها يا نللى ، فكنت اسمع زمجرته المروعة ... اما هى فلم تصرخ قط .. كلا .. وإنها لخليقة بان تأنف من الصراخ لو حملتها بقرة ثائرة وسلكتها فى قرنيها !.. ومع ذلك كنت انا الذى صحت وعولت .. وتدفقت من فمى اللعنات التى تكفى لتدمير اى شيطان خبيث !.. وتناولت حجرا ودفعته بين فكى الكلب ، ثم حاولت بكل قواى ان

أحشره فى حلقـه .. وأخيرا أقبـل بهيم من الخدم يحمل مصباحا ، وهو يهتف بالوحش : « شدد القبض يا سكلكر .. شدد قبضتك !.. » ولكنه ما أن رأى فريسـة سكلكر حتى بدل من لهجته ، ثم امسك بعنق الكلب حتى خلصها من بين فكيه ، فتدلى لسانه الضخم القانى زهاء نصف قدم خارج فمه وقد فاضت شفتاه باللعاب الدامى .. ورفع الرجل كاثى عن الأرض ، وكانت قد أغمى عليها ، لا من الخوف ـ يقينا ـ وإنما من الألم .. وحملها إلى الداخل ، فتبعته دون أن أكف عن إطلاق ألفاظ السباب واللعنات والوعيد بالانتقام.. وهتف لنتون من الداخل : « ما نوع الفريسة يا روبرت ؟ » فأجابه : « لقد امسك سكلكر بفتاة صغيرة يا سيدى » ثم اردف وهو يتشبث بكتفى : «وهنا أيضا غلام يلوح فى وجهه الشر ، ويبدو أن اللصوص كانوا يريدون إدخالهما من النافذة ليفتحا الأبواب للعصابة بعد أن ينام أهل الدار جميعا ، حتى يتاح لهم بذلك ان يفتكوا بنا فى يسر بغير عنـاء .. امسك لسانك أيها اللص ذو الفم الدنس ، واعلم انك سوف تشنق جزاء فعلتك هذه.. وانت يا سيدى مستر لنتون ، لا تدع مسدسك يغيب عنك قط ! » .. فقال العجوز المـأفون : « كلا .. كلا يا روبرت .. لقد علم الأوغاد ان الأمس كان يوم تحصيل الإيجـارات ، وحسبوا انهم سوف ينالوننى فى براعة .. ادخل ، فسوف أهيىء لهم استقبالا رائعا .. وانت يا جون ، ثبت السلاسل فى مكانها .. ضعى للكلب بعض المـاء يا جينى !.. آه !..

أيجترئون على قاض فى عرينه المنيع ، وفى يوم أحد أيضا ؟.. إلى أى حد سيمضون فى قحتهم وفجورهم ؟.. آه !.. انظرى هنا ياعزيزتى مارى .. لاتخشى شيئا فإنه ليس إلا غلاما صغيرا ، وان كان الشر مرتسما على وجهـه فى جلاء ! .. أليس من الرحمة بالمجتمع أن يشنق للتو واللحظة ، قبل أن تظهر طبيعته فى أعماله الشريرة ، كما تظهر فى محياه ؟ .. » ثم جذبنى تحت الشموع ليتفرس فى وجهى ، على حين وضعت مسز لنتون عويناتها فوق انفها وما لبثت ان رفعت ذراعيها فى هلع شديد .. أما الصغيران فقد ازدادا التصاقا بأمهما فى جبن واضح ، وتمتمت ايزابيل بلثغتها القبيحة : « ياله من (شىء) رهيب ! .. اسجنه فى القبو يا أبتاه ، فإنه يشبه تمـاما ابن قارئة البخت الذى سرق دجاجتى البرية الأليفة .. أليس كذلك يا ادجار ؟ »

وبينما كانوا يتفحصوننى ويتفرسـون فى وجهى ، أفاقت كاثى من غشـيتها .. وسمعت العبـارة الأخيرة ، فانبعثت تضحك بملء فيها ، وعندئذ حملق ادجار لنتون فيها بنظرات متسائلة ، استجمع على اثرها من وشائج فطنته ما يكفى لأن يعرفها .. فهم يروننا فى الكنيسة ، كما تعلمين ، وإن كنا قلما نقابلهم فى اى مكان آخر .. وما لبث ان همس لوالدته قائلا : « هذه مس أيرنشو .. انظرى كيف عقرها سكلكر ، وكيف تدمى قدمها ! »

فصاحت السيدة : « مس أيرنشو ؟ ... هراء !.. مس

ايرنشو ترتاد الريف فى رفقة ولد من الغجر ؟ .. ومع ذلك .. يا إلهى !.. إن الغلام يرتدى ثيـاب الحداد ـ انه كذلك حقا ـ ولقد كان من المحتمل أن تفقد قدمها إلى الأبد ! »

فهتف مستر لنتـون متعجبا وهو ينقـل انظاره منى إلى كاثرين :

ـ ياله من استهتار إجرامى من جانب شقيقها ! .. لقد فهمت من حديث شيدلر (كان هذا اسم القس يا سـيدى) انه يدعها تنشأ وتنمو فى الوثنية المطلقة .. ولكن من هذا ؟ .. ومن أين التقطت هذا الرفيق ؟ .. أوه ! .. اوه ! .. أرى انه ليس سوى ذلك الغلام الغريب الذى اقتناه المرحوم جارى الراحل اثناء رحلته إلى ليفربول ، ولا ريب أنه شرير صغير القت به البحار من الهند أو أمريكا او أسبانيا ..

فقالت السـيدة الكهلة : « مهما يكن من امر فإنه غلام شرير ، ولا يليق البتة ببيت محترم .. هـل لاحظت الفـاظه ولهجته يالنتون؟.. شد ما يضايقنى أن يضطر طفلاى إلى سماعها.. » .

فعاودت السباب واللعنات من جديد ـ وبالله لا تغضبى ياناللى ! ـ وهكذا صـدر الأمر إلى روبرت بأن يخرجنى من البيت .. ورفضت الذهاب ما لم تصحبنى كاثى ، ولـكنه جرنى جرا إلى الحديقة ، ودفع المصباح فى يدى ، قائلا إن مستر ايرنشو سوف يحاط علمـا بمسلكى ، ثم امرنى بأن

امضى فى طريقى قدما ، وسرعان ما اوصد الباب فى وجهى ... وكانت السـتائر ما تزال منفرجة عنـد أحد أركان النافذة ، فعدت إلى موقفى مسترقا النظر من جديد ، وفى نيتى ، إذا رأيت كاثرين راغبة فى العودة معى ، أن أحطم الواح الزجاج الكبيرة إلى ملايين الشظايا ، أو يسـمحوا لها بالخروج .. ولكنها كانت تجلس فوق الأريكة فى هدوء وطمأنينة ، بينمـا كانت مسز لينتون تنزع عنها معطف الغسالة الأغبر الذى كنا قد استعرناه لرحلتنا هذه ، وهى تهز رأسها وتبدو كأنما تعاتبها على مسلكها ... لقد كانت سيدة صغيرة ، وكانوا ، من ثم ، يفرقون فى المعاملة بينها وبينى .. وأحضرت الخادم وعاء به ماء دافىء ، وراحت تغسـل قدميها ، على حين وقف مسـتر لينتون يعد لها شرابا ساخنا ، هو مزيج من الليمونادة والنبيذ ، واتت ايزابيلا بطبق ملىء بالكعك أفرغته فى حجرها ، بينما وقف أدجار على مبعدة يحدق النظـر إليها فاغر الفم مبهوتا ! .. وما لبثوا ان راحوا يجففون شـعرها الجميل ويمشطونه ، واتوها بخف كبير الحجم ، ثم قادوها إلى المدفأة ... فخلفتها وهى اوفـر ما تكون مـرحا وغبطة ، تقتسم طعامها مع الكلب الصغير ومع (سكلكر) الذى كانت تقرص انفه وهو يمضغ الطعام ، وتشعل وميضا من الحيوية فى عيون آل لينتون الزرقاء الجوفاء ، وميضا ينعكس من جمالهـا الساحر ووجهها الصبيح ... ورأيتهم جميعا وقد ملأهم الإعجاب والذهول ، إذ كانت أعظم منهم سموا فلا يتطاولون

إلى منزلتها ، بل انها لأرفع من أى إنسان آخر على وجه الأرض .. أليست كذلك يا نللى ؟! » .

فأجبت وأنا أدثره بالأغطية وأطفىء الشمعة : « لسوف تجلب هذه المسألة من العواقب أكثر مما تقدره وتحسبه .. فأنت شخص لا يرجى صلاحك ياهيثكليف ، وسوف يذهب مستر هندلى فى عقابك إلى أقصى الحدود .. وسوف ترى إذا كان لا يفعل ! .. » ولقد تحققت نبوءتى إلى أبعد مما قدرت وأردت .. فأن تلك المغامرة التعسة أثارت ثائرة ايرنشو ، وزاد الطين بلة مقدم مستر لينتون فى الغداة لاصلاح الأمر ، فإذا به يلقى على السيد الشاب محاضرة طويلة عن الطريق التى يسلكها فى قيادة أسرته ورعاية شئونها ، بحيث جن جنون هندلى وراح يتلفت حواليه فى لهفة .. ولكن هيثكليف ـ هذه المرة ـ لم يجلد أو يعاقب ، وإنما قيل له انه إذا وجه إلى مس كاثرين كلمة واحدة فسوف يطرد من المنزل فورا !.. كما أخذت مسز ايرنشو على عاتقها ان تحول دون اتصال هيثكليف بشقيقة زوجها بعد عودتها ، على أن تستخدم الحيلة والدهاء فى ذلك ، لا العنف والقسر اللذين كانا خليقين بأن يجعلا مهمتها شاقة بل مستحيلة ..

* * *

الفصل السابع

مكثت كاثى فى « ثرشكروس جرانج » خمسة أسابيع ، حتى حل عيد الميلاد .. وفى خلال تلك المدة كان عقبها قد شفى تماما ، وتحسنت أخلاقها وسلوكها كثيرا ... وقد قامت السيدة مرارا بزيارتها فى هذه الأثناء ، حيث بدأت خطتها فى إصلاح الفتاة ، بمحاولة رفع روحها المعنوية ، وزيادة شعورها باعتبارها ، وذلك باهدائها الثياب الفاخرة ، وتملقها ، الأمر الذى تقبلته الفتاة عن طيب خاطر ... وهكذا فإننا بدلا من ان نرى فتاة وحشية نافرة عارية الرأس تقفز إلى داخل المنزل وتندفع إلى كل منا لتهصره بين ذراعيها حتى تتقطع منا الأنفاس ، إذا بنا نرى التى تهبط ، من فوق ظهر مهر أسود جميل ، آنسة رفيعة القدر تتدلى غدائرها الكستنائية من تحت قبعة من الفراء المزين بالريش ، وترتدى معطفا طويلا من القماش الفاخر راحت تجمع أطرافه بكلتا يديها حتى تستطيع السير فى يسر .. ورفعها هندلى من فوق ظهر الجواد بين ذراعيه ، وهو يهتف جذلا : « ما هذا يا كاثى ؟ .. انك رائعة الجمال ... لقد كدت لا أعرفك ، فانك تبدين الآن مثال السيدة الرفيعة .. ان ايزابيلا لينتون لا تقاس بها شيئا ، أليس كذلك يا فرانسيس ؟ .. » فأجابت زوجته : « ان ايزابيلا ليست على شىء من جمالها ومزاياها .. ولكنها يجب أن تتعقل فلا تعود إلى وحشيتها هنا ... ساعدى مس كاثرين فى خلع ثيابها يا أيلين ! .. آه ! .. انتظرى ياعزيزتى حتى لا تفسد غدائرك ، ودعينى أخلع قبعتك بنفسى .. »

ونزعت المعطف ، فتالق تحته ثوب نفيس من الحرير اللامع المتعدد الألوان ، وسراويل بيضاء ، وحذاء يخطف بريقه الأبصار ! .. وبينما تالقت عيناها سرورا عندما تدافعت الكلاب حولها مرحبة بها ، فانها لم تجرؤ على مداعبتها حتى لا تلعقها فتفسد ثوبها وزينتها .. بل انها قبلتنى فى رفق ، وعن بعد ، إذ كان ثوبى ملوثا بدقيق كعكة عيد الميلاد التى كنت اقوم بصنعها ، فلم تر من الملائم ان تضمنى إلى صدرها ! .. وما لبثت ان تلفتت باحثة عن هيثكليف ، وهى اللحظة التى كان مستر ايرنشو وزوجته يرقبانها فى لهفة وقلق ، إذ يريان أن لقاءهما سوف يمكنهما من الحكم ، إلى حد ما ، على احتمالات الأمل فى نجاح خطتهما فى التفريق بين الصديقين!

وظل هيثكليف مختفيا عن الأنظار فى بادىء الأمر .. وإذا كان ، قبل غيبة كاثرين الطويلة ، قليل الاهتمام بنظافته ، ولا يجد من يعنى به ، فقد غدا ، منذ الحين ، اسوأ من ذلك عشر مرات ... ولم يجد احد ممن فى الدار فى نفسه نازعة من نوازع الشفقة به حتى ينبهه إلى قذارته ، سواى .. فكنت آمره بغسل وجهه ولو مرة كل اسبوع ، إذ ان الصبيان فى سنه قلما يجدون بهجة فى لقاء الماء والصابون ... لذلك فانه ، بغض النظر عن ثيابه التى صحبته فى الخدمة فى الوحل والتراب ثلاثة شهور دون أن يستبدلها ، وعن شعره الملبد الذى لم يمشطه طوال تلك المدة ، فقد كان وجهه ويداه تخفيها الأقذار إلى حد مروع .. ولعله توارى خلف أحد الحواجز ، عندما رأى آنسة وضاءة الطلعة ، بهية المظهر ،

تدخل المنزل بدلا من تلك الفتاة المشعثة الشبيهة به ، كما كان يتوقع .. واخيرا قالت وهى تنزع قفازيها وتكشف عن انامل أبيض لونها ورقت بشرتها من قلة استعمالها ومن مكثها داخل الدار طويلا : « اليس هيثكليف هنا ؟ »

وعندئذ صاح مستر هندلى ، منتشيا بما أصاب الفتى من سوء الحال وخيبة الأمل ، مستمتعا بأن يراه مضطرا إلى الظهور بهذا المظهر المزرى الخسيس : « يمكنك أن تتقدم يا هيثكليف .. يمكنك ان تأتى لترحب بمس كاثى كباقى الخدم ! .. » .

وما أن لمحت كاثى صديقها فى مخبئه ، حتى اندفعت نحوه مسرعة ، كأنها خفقة من جناح طائر ، لتحتضنه وتعانقه ، وامطرت وجهه بسبع قبلات أو ثمان فى أقل من ثانية واحدة ، ولكنها ما لبثت أن توقفت بغتة ، وتراجعت إلى الوراء ، ثم انفجرت ضاحكة وهى تقول : « عجبا !.. ما أشد سواد طلعتك وتقطيب اساريرك ! .. ثم .. لماذا تبدو متجهما مضحكا ؟ .. ولكن لعل ذلك بسبب تعودى على رؤية ادجار وايزابيلا لينتون .. حسنا يا هيثكليف ، هل نسيتنى ؟ » .

وكان لها العذر فى إلقاء هذا السؤال عليه ، لأن الخزى والكبرياء القيا على محياه جهامة وعبوسا فوق جهامته وعبوسه المألوفين ، وسمراه فى مكانه بلا حراك .. وعندئذ قال مستر أيرنشو فى تنازل :

ـ صافحها يا هيثكليف !.. إننا نسمح بذلك هذه المرة !

فأجاب الغلام وقد استطاع النطق اخيرا : « لن افعل .. ولن أقف لأكون أضحوكة لها .. فهذا امر لا أستطيع احتماله ! » .

وهم بالفرار من وسط الحلقة ، لولا ان مس كاثى امسكت به ثانية وقالت : « لم اكن أقصد ان أضحك منك ، وإن كنت لم أستطع ان امنع نفسى من الضحك .. الا صافحنى يا هيثكليف على الأقل ! .. ما الذى يثيرك هكذا ؟ .. إن الأمر لا يعدو أننى استغربت منظرك العجيب . ولو أنك تغسل وجهك وتمشط شعرك لأصبح كل شىء على ما يرام ، فالحق أنك شديد القذارة ! » .

وراحت تحدق النظر فى إمعان إلى أصابعه القذرة الكابية التى كانت تمسك بها بين يديها ، وتقلب البصر بينها وبين ثوبها النظيف ـ كأنما تخشى أن يناله شىء من القذارة من ملامسته لثياب هيثكليف ـ وكان يتبع نظراتها فى فهم وإدراك، فإذا به ينتزع يده من يدها فى عنف وقوة ، ويقول :

ـ لم تكن بك حاجة لأن تلمسينى .. سوف أكون قذرا بالقدر الذى يروق لى .. فانا أحب القذارة وسأظل قذرا !

ثم اندفع خارجا من الحجرة فى انفعال شديد ، وسط قهقهة السيدة والسيد ، وقلق كاترين وانزعاجها البالغ ، فلم يكن فى استطاعتها أن تفهم كيف تثير ملاحظتها البسيطة هذا المظهر الواضح من سوء الخلق !

وبعد أن قمت بدور الوصيفة للقادمة الجديدة ، ووضعت

الكعك فى الفرن ، وأوقدت مدفأتى المطبخ وحجرة الجلوس نيرانا حامية تشيع فيهما الدفء والبهجة ، بما يليق وعشية عيد الميلاد ، اتخذت لنفسى مجلسا ورحت أسلى نفسى بالترنم بأناشيد العيد ، وحدى ، ضاربة صفحا عن تأكيد جوزيف بأنه يعتبر الأنغام المرحة التى آثرت الترنم بها أقرب إلى الأغانى الخليعة !! وكان قد اعتكف فى حجرته ليؤدى صلاته الخاصة ، بينما كان مستر ومسز ايرنشو يثيران اهتمام الآنسة بتلك التوافه الخلابة المختلفة التى احضراها كى تقدمها هدية للشقيقين الصغيرين ادجار وإيزابيلا لينتون، عرفانا منها بحسن صنيعهما معها .. فقد وجهت إليهما الدعوة لقضاء اليوم التالى فى (مرتفعات ويذرنج) ، وقبلت الدعوة من جانبهما بشرط واحد ، إذ رجت مسز لينتون أن يظل طفلاها الحبيبان بمنأى تماما عن ذلك « الولد الشرير البذىء اللسان ! » .

وإزاء هذه الظروف ، مكثت جالسة وحدى ، أشم تلك الرائحة الدسمة المنبعثة من الفطائر الناضجة فى الفرن ، وأتأمل فى إعجاب أوانى المطبخ اللامعة ، وساعة الحائط المجلوة وقد أحاطت بها أوراق شجرة عيد الميلاد ، والأقداح الفضية المصفوفة فوق صفحة كبيرة ، انتظارا لملئها بالجعة الساخنة وقت العشاء ، ثم فوق كل شىء ، ذلك البلاط اللامع المصقول الذى يعزى صفاؤه ونقاؤه إلى عنايتى بصقله ومسحه ! .. وكنت فى قرارتى أصفق استحسانا لكل شىء يقع عليه بصرى، فذكرت كيف اعتاد ايرنشو العجوز أن يأتى بعد أن يتم إعداد

كل شىء وترتيبه ، فيدعونى ب « البنت المهياصة » !.. ثم
يدس فى يدى « شلنا » ، كمنحة عيد الميلاد .. واستطرد بى
التفكير من ذلك إلى ولعه الشديد بهيثكليف ، وفزعه مما قد
يلقاه من إهمال بعد أن يطويه الموت .. وقادنى هذا التفكير ،
بطبيعة الحال ، إلى التأمل فيما بلغته حال الفتى المسكين من
السوء الآن ، وعندئذ غيرت رأيى فتحولت من الترنم بالغناء
إلى البكاء والنواح !.. ولكن سرعان ما خطر لى أن الأجدى
والأصوب هو محاولة إصلاح بعض ما أصابه من مظالم بدلا
من ذرف الدموع عليها . وهكذا نهضت ومضيت إلى الفناء
فى طلبه ، ولم يكن بعيدا ، إذ وجدته فى الاسطبل يطعم الدواب
ويمسح على جلد المهر الجديد اللامع المصقول ، فقلت له :

ــ أسرع يا هيثكليف ، فإن المطبخ شديد الإغراء ، وجوزيف
فى الطابق العلوى .. أسرع ودعنى ألبسك وأهندمك قبل أن
تأتى مس كاثى ، حتى تستطيعا الجلوس معا برهة منفردين
بجوار المدفأة ، وتتحدثا حديثا طويلا إلى أن يحين موعد
النوم ..

فاستمر يقوم بعمله دون أن يحول رأسه نحوى البتة ..
فاستطردت أتابع القول :

ــ هيا .. ألست قادما معى ؟.. إن لدى كعكة صغيرة
لكل منكما تكفى لإشباعكما .. هيا ، فإن لبسك وتهيئتك
تحتاج إلى نصف ساعة على الأقل ..

وانتظرت خمس دقائق ، فلما لم أتلق منه ردا ، سواء
بكلمة أو إيماءة ، تركته ومضيت لشأنى .. وتناولت كاثرين

عشاءها مع أخيها وزوجته ، على حين اقتسمت وجوزيف
عشاء كئيبا كانت مشهياته التعنيف والتبكيت من جانب ،
والمكر والتخابث من الجانب الآخر ! .. بينما بقيت فطيرة
هيثكليف وقطعة الجبن المعدة له موضوعتين على المائدة طوال
الليل كأنما أعدتا لعشاء العفاريت !.. فقد تعمد أن يمضى فى
العمل حتى الساعة التاسعة ، حيث انصرف إلى حجرته
قدما ، دون أن تنفرج شفتاه بكلمة أو همسة ، مصرا على
الاعتكاف والعزلة .. أما كاثى فقد سهرت طويلا تلك الليلة
إذ كانت لديها دنيا بأسرها من الأشياء التى تود أن تأمر
بإعدادها لاستقبال أصدقائها الجدد فى الغداة .. وقد حضرت
إلى المطبخ مرة لتتحدث إلى صاحبها القديم ، فمكثت برهة
ريثما سألتنى عما دهاه ، ثم انصرفت لشأنها ..

واستيقظ هيثكليف مبكرا فى الصباح ، وإذ كان اليوم عطلة
العيد ، فقد حمل همومه وعبوسه إلى البرارى ، ولم يظهر
ثانية إلا بعد أن كانت الأسرة قد ذهبت إلى الكنيسة ..
ويبدو أن الصوم وإمعان الفكر قد خففا من غلوائه ورداه إلى
حالة معنوية أفضل ، إذ ظل يحوم حولى برهة ، وما لبث أن
استجمع شجاعته فقال لى بغتة :

ــ اجعلى منى شخصا حسن المظهر يا نللى ، فقد عزمت
على أن أكون غلاما طيبا !

فقلت : « ليت ذلك كان من زمن يا هيثكليف !.. لقد
آلمت كاثرين وأحزنتها حتى لأجرؤ على القول بأنها أسفت
لعودتها إلى المنزل !.. ويبدو أنك تغار منها لأنها تلقى من
الرعاية والاهتمام أكثر مما تلقاه أنت »

وكانت فكرة « غيرته » من كاثرين غير ذات معنى لديه ، فلم يفهمها .. أما فكرة « إيلامه » لها فقد فهمها واضحة جلية ، إذ سألنى وقد لاح عليه الاهتمام البالغ : « هل قالت إنها حزنت وتألمت ؟ » .

ـ لقد بكت هذا الصباح عندما أخبرتها انك خرجت ثانية ..

ـ حسنا ، لقد بكيت أنا ليلة أمس ، وكان لدى من أسباب البكاء وبواعثه أكثر مما لديها ..

ـ نعم .. وكنت من التعقل بحيث ذهبت إلى الفراش بقلب ملىء بالكبرياء ، ومعدة خاوية من الطعام !.. إن ذوى الكبرياء يخلقون لانفسهم الأحزان والهموم دائما .. ولكن إذا كنت حقا نادما على حمقك وتسرعك ، فيجب ان تسالها الصفح عندما تعود من الخارج .. يجب أن تصعد إليها وتعرض عليها ان تقبلها ، وتقول لها .. حسنا .. انك تعرف خيرا منى ما ينبغى ان تقوله .. ولكن عليك ان تفعل ذلك من كل قلبك ، لا كما لو كنت تعتقد انها قد تحولت إلى إنسانة غريبة عنك لمجرد انها ترتدى ثوبا فاخرا .. ومع اننى الآن مشغولة بإعداد الطعام ، إلا اننى سوف اختلس بعض الوقت لأعنى بزينتك بحيث يبدو ادجار لينتون إلى جانبك أشبه بدمية صغيرة ، وانه لكذلك حقا !.. إنك أصغر منه سنا ، ومع ذلك أؤكد لك انك اطول منه قامة وتفوقه مرتين فى عرض منكبيك .. إن فى وسعك ان تصرعه فى لمحة كومضة البرق .. الا تشعر أنك قادر على ذلك ؟

فاشرق وجه هيثكليف لحظة ، ثم ما لبث أن غاضت إشراقته وتنهد قائلا :

ـ ولكن يا نللى ، لو أننى صرعته عشرين مرة ، لما قلل ذلك من وسامته أو زادنى جمالا !.. وشد ما أتمنى أن يكون لى شعر أشقر وبشرة ناصعة البياض وثياب شبيهة بثيابه ، وعيشة تماثل عيشته ، وفرصة لأن أكون ثريا مثلما سيكون .

فأضفت لأكمل له الصورة :

ـ وأن تظل تصيح : « ماما .. ماما .. » كلما روعك شىء ، وترتعد فزعا إذا لوح صبى ريفى بقبضة يده فى وجهك ، وتظل قعيد الدار كلما سقط رذاذ من المطر !.. أواه ياهيثكليف! .. إنك تبدى روحا خائرة وهمة فاترة !.. تعال معى إلى المرآة وسوف أجعلك ترى ما ينبغى أن تتمناه .. هل تلاحظ هذين الخطين العميقين بين عينيك ، وهذين الحاجبين الكثيفين اللذين يغوصان فى الوسط بدلا من أن يرتفعا مقوسين ؟ .. ثم هذين الشيطانين الخبيثين الغائرين فى محجريهما عميقا ، واللذين لا يفتحان نوافذهما قط فى صراحة وشجاعة ، وإنما يكمنان تحتها ويشعان بريقا خاطفا كأنهما من جواسيس الشيطان ؟ .. عليك ان ترغب حقا وتعرف كيف تلين هذه الغضون والتجاعيد التى تنم عن الشراسة والمشاكسة ، وكيف ترفع أجفانك فى صراحة ، وتحيل الشيطانين الخبيثين إلى ملاكين بريئين ممتلئين ثقة ، لا يرتابان ولا يشكان فى شىء ، ولا يريان إلا أصدقاء ، حيثما لا يكونان واثقين من أنهم أعداء ! .. ولا تحمل أساريرك ذلك الطابع الغريب الذى يعلو أسارير

كلب زنيم يعرف أنه يستحق الركلات التى ينالها ، ومع ذلك يبغض العالم كله مع الشخص الذى يركله ، من اجل ما يلحق به من اذى والم ..

فاجابنى :

– اى إننى – فى كلمات اخرى – يجب ان ارغب حقا فى أن تكون لى عينا ادجار لينتون الزرقاوان الواسعتان ، وجبهته المستوية الملساء ؟ .. حسنا .. إننى ارغب فى ذلك حقا . ولكن ذلك وحده لا يساعدنى على ان انال رغبتى ..

فتابعت حديثى قائلة :

– ان القلب الطيب سوف يجعل لك وجها جميلا يا بنى ولو كنت زنجيا صميما .. أما القلب الشرير فانه يحيل الوجوه الجميلة إلى ما هو اسوا من القبح والدمامة .. والآن وقد فرغنا من الاغتسال ، وتمشيط الشعر ، ومن العبوس والتجهم ايضا ، فانظر وقل لى الست ترى نفسك اقرب إلى الوسامة وصباحة الوجه ؟.. اما انا فأراك كذلك حقا .. فانت الآن اليق بان تكون اميرا متنكرا ! .. ومن يدرى ، لعل اباك كان امبراطور الصين ، وامك كانت ملكة هندية ، وكلاهما قادر على ان يشترى ، بدخل اسبوع واحد ، مرتفعات وبذرنج وثرشكروس جرانج معا ؟.. ولعل بعض البحارة الشريرين قد اختطفوك واحضروك إلى انجلترا ؟.. ولو انتى كنت فى مكانك لأظهرت فكرة عالية عن طيب منبتى ورفعة أصلى . ولمتحنى التفكير فيما كنت عليه ، الشجاعة والكرامة لاحتمال مظالم فلاح صغير لا يطاولنى !

ولبثت اتحدث إلى هيثكليف على هذا النحو حتى لانت اساريره وتلاشى عبوسه وتجهمه . وبدأ يلوح بهى الطلعة مشرق المحيا ، عندما قطع حديثنا فجأة صوت قعقعة تنبعث من الطريق وتدخل إلى الفناء .. واسرعنا معا ، هو إلى النافذة ، وانا إلى الباب ، فى الوقت المناسب كى نرى ادجار لينتون وشقيقته يهبطان من عربة الأسرة . وقد اخفت المعاطف والفراء معالمهما ، بينما كان آل ايرنشو يترجلون عن جيادهم التى كانوا يمتطونها غالبا عندما يذهبون إلى الكنيسة فى الشتاء .. وأمسكت كاثرين بيدى الصغيرين وقادتهما إلى المنزل . ثم أجلستهما أمام نار المدفأة ، التى سرعان ما اشاعت الحمرة فى وجهيهما الشاحبين ..

وحثثت رفيقى على ان يسرع الآن ويكشف لهم عن دماثة خلقه وروحه الودية ، إلا أن سوء الحظ اراد انه فى اللحظة التى كان فيها هيثكليف يفتح الباب المؤدى من المطبخ إلى حجرة الجلوس من ناحية ، كان هندلى يفتحه من الناحية الأخرى ، فتقابلا وجها لوجه .. وكأنما حنق السيد إذ رآه نظيفا مرحا ، أو اراد أن يفى بوعده لمسز لينتون ، فاذا به يدفعه إلى الوراء دفعة عنيفة مفاجئة ، ويصيح جوزيف فى سخط : « ابعد هذا الشخص عن الحجرة .. احبسه فى المخزن العلوى حتى نفرغ من الغذاء ، فسوف يعبث باصابعه القذرة فى الفطائر والحلوى ، ويسرق الفاكهة ، لو ترك وحده معها لحظة واحدة »

فلم أتمالك نفسى من القول فى انفعال :

ـ لا يا سيدى .. انه لن يمس شيئا .. فما هو بالذى يفعل ذلك .. ثم إننى احسبه خليقا بأن ينال نصيبه من فطائر العيد وحلواه ، شأننا جميعا ..

فصاح هندلى :

ـ بل سوف ينال نصيبه من يدى لو امسكت به فى هذا الطابق حتى المساء .. امش أيها المتشرد .. اغرب عن وجهى .. ماذا ؟.. ما شاء الله .. ما هذه الغندرة التى تحاول أن تظهر بها ؟ .. اصبر حتى امسك بهذه الغدائر الأنيقة ، لترى كيف أجذبك منها حتى أزيدها طولا ..

فقال السيد لينتون وهو يسترق النظر من فتحة الباب :

ـ إنها طويلة بما فيه الكفاية ، وإنى لأعجب كيف لا تصيبه بوخز فى رأسه .. إنها تتدلى فوق عينيه اشبه بناصية (قصة) الجحش ..

ولقد اجترأ على إبداء هذه الملاحظة دون اى قصد للإهانة أو السباب ، ولكن طبيعة هيثكليف الحادة لم تكن مستعدة لاحتمال مظاهر القحة من شخص يبدو انه كان يبغضه ـ حتى فى ذلك الحين ـ كمنافس له ، فأمسك بآنية مليئة بصلصة التفاح الساخنة (وهى أول شىء صادفته يده) وقذف بها ادجار فسالت على وجهه وعنقه ، وسرعان ما بدأ يعول وينتحب على نحو جعل كاثرين وايزابيلا تخفان سريعا إلى المكان لتريا ماذا دهاه .. وفى الوقت نفسه جذب مستر ايرنشو المعتدى فى عنف وحمله إلى حجرته .. ولا ريب انه قد قدم له علاجا

عنيفا ليهدىء من سورة الإنفعال التى أصابته ، لأنه عندما ظهر ثانية كان متورد الوجه لاهث الأنفاس .. أما انا فقد أحضرت منشفة الصحون ورحت افرك بها أنف ادجار لينتون وفمه ، فى غل وغيظ ، مؤكدة أن ذلك سوف يشفيه تماما من التدخل فيما لا يعنيه .. واخذت شقيقته تنوح طالبة العودة إلى منزلها ، بينما وقفت كاثرين واجمة وقد تورد وجهها خجلا وحنقا .. وما لبثت أن راحت تؤنب السيد لينتون قائلة :

ـ ما كان ينبغى ان تكلمه .. لقد كان فى حالة معنوية سيئة ، وهاأنت ذا قد افسدت زيارتك .. وسوف يجلد .. وانا اكره ان اراه يجلد .. ولن أستطيع ان أتناول غذائى .. لماذا تحرشت به يا ادجار ؟

فغمغم الفتى وهو يجهش بالبكاء ، ويفر من يدى ليتم ما بقى من تنظيف وجهه وثيابه بمنديله الرقيق :

ـ إننى لم أخاطبه .. فقد وعدت ماما بألا اوجه إليه كلمة واحدة ، ولم افعل ..

فأجابت كاثرين فى ازدراء :

ـ حسنا .. كف عن البكاء إذن فإن احدا لم يفتك بك !.. ولا تثر المزيد من الشر فان أخى قادم .. صه يا ايزابيلا !.. هل نالك احد بالأذى انت الأخرى ؟

واندفع هندلى إلى داخل الحجرة صائحا :

ـ هيا ياأطفالى .. هيا إلى مقاعدكم حول المائدة .. لقد اثار هذا الغلام الوحشى الدماء فى عروقى .. أما أنت يا سيد ادجار

فعليك فى المرة القادمة ان تأخذ حقك بيدك ، فان ذلك يثير شهيتك للطعام !

واستعادت الجماعة الصغيرة هدوءها وسكينتها لدى مرأى الوليمة الفاخرة التى أعدت لهم ، والتى كان عبير الطعام يفوح منها فيسيل من شذاه لعابهم ، وقد استبد بهم الجوع بعد ركوبهم فى الهواء الطلق ، ونسوا أحزانهم فى سرعة ويسر ، خصوصا وان احدا منهم لم يحل به اذى حقيقى .. وكان مستر ايرنشو يقطع اللحم ويملأ به الأطباق فى سخاء ، بينما كانت السيدة تشيع فيهم البهجة والمرح بأحاديثها الطلية المسلية .. وكنت أقف خلف مقعدها لألبى أوامرها ، وكم تألمت إذ رأيت كاثرين تبدأ فى تقطيع صدر أوزة امامها ، وقد لاح عليها عدم الاكتراث وخلت عيناها من اى اثر للدموع ، فقلت لنفسى : « يا لها من صبية مجردة عن الشعور ، تطرد من فكرها متاعب رفيق صباها فى خفة ونزق .. إننى ما حسبتها قط على هذه الأثرة والأنانية » .. ولكنى رأيتها تهم برفع اللقمة إلى شفتيها ، ثم تعيدها إلى الطبق ثانية ، وقد اندفعت الدماء إلى وجنتيها اللتين سرعان ما بللتهما الدموع .. وتركت الشوكة تسقط من يدها إلى الأرض ، ثم اسرعت تنحنى لالتقاطها ، وهى ترمى إلى إخفاء انفعالها تحت مفرش المائدة .. ولم يطل تلقيبى لها « بالفتاة المجردة عن الشعور » . إذ أدركت أنها تقاسى العذاب طوال اليوم ، وتجهد فى خلق الفرصة للاختلاء بنفسها او زيارة هيثكليف الذى كان السيد قد سجنه ، كما اكتشفت عندما حاولت ان ادخل إليه شيئا من الزاد خلسة ..

واقيمت لنا حفلة راقصة فى المساء ، فرجت كاثرين أن يخلى سبيل هيثكليف ، إذ كانت ايزابيلا لينتون فى حاجة إلى زميل يراقصها ، ولكن توسلاتها كانت عبثا ، وصدر لى الأمر بأن أسد النقص واشغل هذا الفراغ .. ونسينا كآبتنا وحزننا فى غمرة المرح والانبساط اللذين احاطا بحفلة الرقص ، وزاد من سرورنا مقدم فرقة « جيمرتون » الموسيقية التى تضم خمسة وعشرين من أساطين الموسيقى يعزفون على الآلات النحاسية والوترية المختلفة ما بين بوق ومزمار وناى وكمان كبيرة ذات أنغام عميقة حزينة فضلا عن المغنين والمنشدين .. وقد اعتادت هذه الفرقة أن تجوب انحاء المقاطعة وتحل بجميع البيوت العريقة المحترمة ، وتنال منها الهبات السخية فى عيد الميلاد من كل عام . فكنا نعتبر حفلاتها من المباهج الفائقة التى تعلق بالذاكرة طويلا .. وبعد أن فرغت الفرقة من أناشيد عيد الميلاد المعتادة ، طلبت إليها أن تشنف أسماعنا بالأغانى الخفيفة والقطع الموسيقية المسرحية التى يشترك فى غنائها الكثيرون كل بدوره .. وقد كانت مسز ايرنشو مشغوفة بالموسيقى ، وهكذا قدمت لنا الفرقة منها الكثير ..

وكانت كاثرين تحبها كذلك ، ولكنها قالت إن وقعها فى الأذن إنما يحلو ويطرب إذا ما استمعت إليها من بعد ، من فوق قمة الدرج مثلا ! .. وما لبثت أن تسللت فى الظلام وارتقت السلم مسرعة ، فتبعتها خلسة .. وأغلق القوم باب حجرة الجلوس دون أن ينتبهوا لغيابنا ، لكثرة الحاضرين .. ولم تقف كاثرين عند قمة الدرج وإنما مضت تتسلق السلم

الخشبى المعلق ، إلى العلية التى كان هيثكليف سجينا فيها ، حيث راحت تناديه بصوت خافت .. وظل برهة لا يجيب النداء فى عناد واصرار ، ولكن عزيمتها لم تهن ، وثابرت على ندائه حتى أغرته اخيرا بأن يجاذبها الحديث من خلال الجدار الخشبى.. أما انا فقد انفطر قلبى ، وآثرت أن ادع الصغيرين المسكينين وحدهما يتبادلان أشجانهما دون ان اعكر صفو خلوتهما ، حتى إذا ما قدرت أن الغناء أوشك على الانتهاء ، وأن العازفين سيستريحون ريثما يتناولون المرطبات ، تسلقت السلم بدورى لأحذرهما .. وبدلا من ان اجد كاثرين خارج العلية ، سمعت صوتها من داخلها ! .. فقد دخلت إحدى العليات الأخرى ، وتسلقت الكوة الصغيرة باعلاها كالقردة الصغيرة ، ثم زحفت فوق السطح حتى كوة محبس هيثكليف حيث انضمت إليه .. وذقت الأمرين حتى استملتها ورضيت بالخرج ثانية من الطريق التى سلكتها فى ذهابها ، ولكن هيثكليف كان معها هذه المرة ، حيث أصرت على ان تجعلنى آخذه إلى المطبخ ، خصوصا وان جوزيف كان قد انصرف إلى دار بعض الجيرة فرارا من اصوات « مزامير الشيطان » كما كان يحلو له أن يسمى موسيقانا .. وقلت لهيثكليف إننى لا ارضى بحال من الأحوال عن الاعيبهما هذه وليس فى نيتى ان اشجع مسلكهما ، غير انه طالما أن السجين لم يذق شيئا البتة منذ غذاء الأمس ، فاننى سوف أغضى هذه المرة عن خداعه لمستر هندلى وخرقه لاوامره .. ونزل معى إلى المطبخ حيث وضعت له مقعدا صغيرا امام الموقد ،واحضرت له كمية وفيرة من اطايب الطعام والحلوى .. ولكنه كان خاثر النفس سقيما،

فلم يذق إلا القليل ، وذهبت محاولاتى لترغيبه فى الطعام ادراج الرياح .. كان يجلس متكئا بمرفقيه فوق ركبتيه ، محتضنا وجهه بين راحتيه ، ممعنا فى التفكير ، فلما سألته عن موضوع أفكاره العميقة قال فى رصانة :

ـ إننى احاول ان أدبر الطريقة التى أسدد بها لهندلى دينا .. ولست أبالى إلى متى يطول انتظارى حتى أبلغ هذه الغاية: بقدر ما يهمنى أن أصل إليها فى النهاية .. وكل ما أرجوه الا يسبقنى الموت إليه قبل أن أناله ..

فهتفت واجفة :

ـ يا للعار يا هيثكليف !.. إن الله وحده هو الذى يتولى عقاب الأشرار ، اما نحن فعلينا ان نعرف كيف نصفح ونتسامح ..

ـ كلا .. إن الله لن يطيب نفسا بهذا الانتقام مثلما تطيب نفسى أنا عندما احققه !.. وليتنى أعرف فقط السبيل إلى ذلك .. دعينى وحدى وسوف أدبر الأمر حتما ، فاننى كلما فكرت فيه كلما تلاشى شعورى بالالم ..

* * *

ولكنى نسيت يا مستر لوكوود ان هذه القصص لا يمكن أن تسليك ، وكم يؤسفنى أننى انسقت فى الثرثرة إلى هذا الحد ، وها هو ذا حساؤك قد برد ، وهاأنت ذا تهوم من النعاس وتنشد الفراش .. كان يمكننى أن أروى لك قصة هيثكليف ـ او ما يهمك سماعه منها ـ فى ست كلمات فحسب ..



وذهبت محـــاولاتى لترغيبـــــه فى الطعـــام أدراج الريـــاح ..
كان يجلس متكئا بمرفقيه فوق ركبتيـــه ، محتضـــنا وجـــه بين راحتيـــه ..

ونهضت مدبرة المنزل وهى تقطع حديثها على هذا النحو ، وهمت بأن تنحى معدات الحياكة التى كانت تتسلى بهـا ، ولكننى الفيت نفسى غير قادر على الحراك من مكانى بجوار المدفأة ، كما كنت بعيـدا كل البعـد عن التهويم والنعاس ، فصحت بها قائلا :

ــ مكانك يا مسز دين ! .. اجلسى مكانك نصف ساعة اخرى فقد احسنت وأصبت برواية القصة بهذه الافاضة ، فهى الطريقة التى احبها ، وينبغى أن تتميها بالأسلوب نفسه ، لأننى اجد اهتماما بكل شخصية ذكرتها فى روايتك ..

ــ ولكن الساعة توشك ان تدق الحادية عشرة ياسيدى ..

ــ لا بأس ، فلست معتادا النوم فى الساعات الأولى من الليل .. والواحدة او الثانية ساعة مبكرة بالنسبة لشخص يظل نائما حتى العاشرة من الصباح ..

ــ ما ينبغى لك أن تنام حتى العاشرة ، فان بهجة الصباح وروعتـه تكون قد ولت قبل هذه السـاعة بزمن طويل .. والشخص الذى لا يكون قد اتم نصف عمل يومه فى الساعة العاشرة ، يكون عرضـة لأن يترك النصف الآخر ناقصـا بغير اداء ..

ــ فليكن يا مسز دين ، ولكن عودى إلى مقعدك !.. لأننى أنوى أن أطيل الليل حتى بعد ظهر الغد ! .. فأنا أحس بأن البرد الذى أصابنى سوف يقعدنى مدة طويلة على الأقل ..

— أرجو ألا يكون الأمر كذلك يا سيدى .. حسنا .. اسمح لى إذن بأن أمر مر الكرام على ثلاث سنوات أو نحوها ، ففى خلال تلك الفترة كانت مسز أيرنشو ..

— كلا .. كلا .. لن أسمح لك بشىء من هذا .. ألم تعهدى تلك الحالة العقلية التى تكونين فيها إذا ما جلست وحدك ، وكانت الهرة تلعق صغارها على البساط أمامك ، فتستغرقين فى مراقبة هذه العملية استغراقا كاملا بحيث يثيرك ويغضبك أن تغفل الهرة لعق أذن واحدة من آذان الصغار ؟

— لعمرى إنها لحالة عقلية شديدة البلادة والكسل !

— بل هى على العكس حالة نشيطة مرهقة .. إنها حالتى الآن ، ولذلك اود أن تستمرى فى سرد القصة بكل تفاصيلها الدقيقة .. وأرى ان الناس فى هذه المناطق يمتازون على ساكنى المدن بتلك الأهمية التى يمتاز بها العنكبوت فى زنزانة سجين على العنكبوت فى كوخ ماهول ، فى نظر ساكنى المكانين المختلفين .. ومع ذلك فهذه الأهمية ، وذلك الاهتمام العميق لا يرجعان برمتهما إلى مركز المشاهد أو حالته فحسب .. فالواقع انهم هنا يعيشون اكثر جدية وصرامة واكثر انطواء على انفسهم ، وأقل اهتماما بالأمور السطحية ، أو التبديل والتغيير ، أو الأشياء الخارجية المرحة التافهة .. إننى اتصور الآن ان حبا يدوم مدى الحياة امر يمكن وقوعه هنا ، انا الذى كنت دائما أكفر ، عن يقين ، بأن اى حب يمكن ان يطول مداه

عاما واحدا ! .. وأن أحدى الحالتين تشبه وضع رجل جائع أمام مائدة عليها طبق واحد فريد، فيركز فيه شهيته ولا يتركه حتى يلعقه ، والحالة الأخرى أن تضعى الرجل أمام مائدة حملت بأطايب الطعام من أيدى الطهاة الفرنسيين ، فيجد فى جملتها متعة بالغة ولكن كل طبق منها لا يعدو أن يكون مجرد ذرة فى تقديره وذاكرته ..

فقالت مسز دين وهى تبدو محيرة من حديثى :

— أوه ! .. إننا هنا كسائر الناس فى أى مكان آخر ، إذا ما عرفتنا على حقيقتنا !

فأجبتها :

— معذرة .. فأنت نفسك يا صديقتى الطيبة شاهد صارخ ضد تأكيدك هذا .. إنك — فيما عدا بعض المظاهر الريفية القليلة الأهمية — لست على شىء من مظاهر الخلق والسلوك التى اعتدت أن أعدها خاصة بطبقتك .. وإننى موقن انك فكرت كثيرا وتعمقت فى التفكير اكثر مما يفكر عامة الخدم .. واحسب أنك إنما تعهدت ملكة التفكير بالعناية والرعاية ، لانعدام الظروف التى تهيىء لك انفاق حياتك فى التوافه السخيفة !

فضحكت مسز دين وقالت :

— لاشك اننى أعد نفسى إنسانة من الطراز المستقيم العاقل ،



ولكن ذلك لا يرجع تماما إلى حياتى بين التلال والقفار ، ورؤيتى مجموعة واحدة من الوجوه أو أدائى مجموعة رتيبة من الأعمال ، من عام إلى عام .. كلا .. وإنما نشأت تحت وطأة نظام صارم حاد علمنى الحكمة والتعقل . كما اننى قرأت اكثر مما يمكن أن تتصور يا مستر لوكوود .. وما من كتاب يمكن ان تفتحه فى هذه المكتبة إلا قرأته واستوعبته وخرجت منه بفائدة ما ، إلا ان يكون هذا الصف من الكتب اليونانية واللاتينية أو ذلك الصف من الكتب الفرنسية ، وهذه وتلك استطيع التمييز بينها .. إن ذلك هو كل مايمكن ان تتوقعه من ابنة رجل فقير !

وتنهدت مسز دين ، ثم استطردت تقول :

ــ ومهما يكن من أمر ، فيجدر بى أن أتابع رواية القصة ، إذا لم يكن ثمة بد من روايتها بهذه الإفاضة التى تريدها .. وبدلا من ان اثب فوق ثلاثة اعوام ، فسوف اقنع بالمرور حتى الصيف التالى ، صيف عام ١٧٧٨ أى ما يقرب من ثلاثة وعشرين عاما خلت ..

* * *

الفصل الثامن

فى صباح يوم جميل من شهر يونية من ذلك العام ، ولد اول طفل تعهدته بالتربية ، وآخر سلالة اسرة ايرنشو القديمة العريقة ..

كنا يومئذ مشغولين بجمع الدريس فى حقل بعيد عندما جاءت الفتاة التى تحمل إلينا طعام الإفطار مبكرة عن موعدها بساعة ، وهى تجرى خلال الحقول وتهتف باسمى منادية ، حتى إذا ما اقتربت منا صاحت لاهثة :

ــ ياله من غلام عظيم ! .. إنه اجمل طفل تنسم الحياة على الاطلاق .. ولكن الطبيب يقول إن السيدة سوف تموت ، فقد نهش السل صدرها هذه الشهور الأخيرة .. سمعته يقول ذلك لمستر هندلى ، وانه ما من شىء يمكن أن يحفظ عليها حياتها الآن ، وسوف تقضى نحبها قبل الشتاء .. لابد من حضورك الآن إلى البيت ياناللى ، فانت التى ستتولين إرضاعه وتربيته ، وتغذيته باللبن والسكر والعناية بشأنه ليلا ونهارا ! .. ليتنى كنت مكانك ، فسوف يكون امره إليك وحدك عندما تذهب السيدة إلى خالقها !

فقلت وانا ارمى جرافة الدريس من يدى واضع قبعتى فوق رأسى :

ــ ولكن هل هى مريضة إلى هذا الحد ؟

ــ احسبها كذلك ، برغم ما يبدو عليها من شجاعة .. فهى

تتكلم كأنما تظن أنها ستعيش حتى تراه رجلا .. بل لقد فقدت صوابها من الفرح ونشوة الإبتهاج . ولها الحق ، فما رأيت طفلا بهذا الجمال !. ولو أننى كنت مكانها ، فانى واثقة بأننى ماكنت لأموت !.. فسوف تتحسن صحتى لمجرد رؤيتى له ، برغم أنف الدكتور كينيث !.. لقد جننت به عند ما رأيته .. وقد حملت السيدة أرشر إلى السيد فى حجرة الجلوس ذلك الملاك الصغير فأشرق وجهه ، ولكن ذلك الطبيب العجوز تقدم إليه وقال فى صوت أشبه بنعيب الغراب : « من رحمة الله يا أيرنشو أن زوجتك قد عاشت حتى تترك لك مثل هذا الغلام .. فعندما قدمت إلى هنا احسست عن يقين باننا لن نحتفظ بها طويلا .. ومن واجبى أن أخبرك الآن بأن الشتاء القادم قد يجهز عليها ، ولكن لاترع ولا تدع القلق يستبد بك ، فلا حيلة لنا فى دفع المقدور .. وفضلا عن ذلك فقد كان يجب عليك أن تحسن الاختيار وتتزوج من فتاة غير هذه الفتاة المنهوكة ! »

فسألتها : وبماذا أجاب السيد ؟

ـ أحسبه أخذ يسب ويلعن ، فلم أكن ألقى إليه بالا .. كنت اجاهد فى سبيل رؤية الغلام ..

ثم انطلقت من جديد تهذى بأوصافه ومحاسنه .. وإذ كنت لا أقل عنها حماسا وشوقا فقد أسرعت إلى البيت فى لهفة ، لأمتع ناظرى بمرآه بدورى ، ولو أننى كنت حزينة من أجل هندلى .. فقد كان المسكين يقسم قلبه بين صنمين اثنين ولا مكان فيه لغيرهما : زوجته ، ثم شخصه !.. كان

مشغوفا بالاثنين ، يقدس أحدهما ويعبد الآخر ، ولم أكن لأتصور كيف يمكن أن يحتمل هذه الخسارة ..

فلما بلغنا « مرتفعات ويذرنج » ، وجدته واقفا عند الباب الخارجى ، فسألته بينما كنت أهم باجتياز الباب : « كيف حال الغلام ؟ »

فقال وقد علت وجهه ابتسامة وضاءة : « كأنمايهم بالجرى فى المنزل يانللى ! » .. فتجاسرت وسألته : « والسيدة ؟ .. علمت أن الطبيب يقول إنها .... »

فقاطعنى وقد تورد وجهه :

ـ لعنة الله على الطبيب !.. إن فرانسيس فى خير حال ، وسوف تكون فى أوج صحتها فى الأسبوع القادم .. هل تصعدين إليها ؟ .. حسنا .. ارجو ان تخبريها باننى سوف اذهب إليها إذا ما وعدت بعدم الكلام .. لقد تركتها لانها لا تريد ان تمسك لسانها ، فى حين انها يجب ان تكف عن الكلام كلية .. قولى لها إن مستر كينيث يصر على وجوب التزامها السكون .. وقد أبلغت هذه الرسالة إلى مسز أيرنشو ، وكانت تبدو فى حالة معنوية طيبة ، فأجابتنى فى مرح :

ـ إننى ما كدت أنطق بكلمة واحدة حتى انطلق إلى الخارج وهو يصيح .. وقد فعل ذلك مرتين يانيللى .. حسنا .. قولى له إننى اعد بعدم الكلام ، ولكن هذا الوعد لا يقيدنى بألا أضحك منه ساخرة !

يالشابة المسكينة !.. لقد ظلت إلى ما قبل موتها بأسبوع

وهذا القلب المرح لا يخونها ولا يتخلى عنها .. وكان زوجها يصر فى عناد ، لا بل فى شراسة ، على التاكيد بأن صحتها تطرد فى التحسن يوما بعد آخر .. وعندما أنذره كينيث بأن عقاقيره لن تجدى نفعا فى هذه المرحلة من المرض ، وأنه لا حاجة به لأن يكبده المزيد من النفقات للعناية بها وعلاجها ، أجابه غاضبا :

ـ اعلم انه لا حاجة بك إلى ذلك حقا ، فهى بخير ولا تحتاج لشيء من علاجك .. إنها لم تمرض بالسل البتة .. لقد كان ما بها حمى عادية ، وقد زالت الآن .. فنبضها بطيء كنبضى ، ووجناتها باردة كوجنتى !

ولقد قال لزوجته هذه القصة نفسها ، وكان يبدو عليها انها تصدقه .. ولكن حدث ان كانت تستند إلى كتفه ذات ليلة ، تقول إنها تجد نفسها قادرة على مغادرة الفراش فى الغد ، عند ما ألمت بها فجاة نوبة من السعال ـ نوبة بسيطة فى الواقع ـ فرفعها بين ذراعيه ، وعندئذ وضعت يديها حول عنقه ، وتبدلت اساريرها ، ثم لفظت انفاسها الأخيرة ..

وهكذا صار امر الطفل «هيرتون» بين يدى كما قدرت الخادم الصغيرة يوم ولادته .. وكان مستر أيرنشو لا ينفك راضيا مادام يراه فى صحة جيدة ، ولا يسمع له بكاء أو صراخا . وهذا كل ما كان يهمه من أمره .. اما هو فقد تملكه اليأس والقنوط ، وكان حزنه من ذلك النوع الدفين الذى لا يعرف المظاهر الصاخبة .. فما سمعه احد قط ينشج ببكاء أو يتمتم بصلاة ، وإنما كان دائم السخط والسباب ، ويصب اللعنات

على السماء والناس على السواء ، ويستسلم إلى الخمر والتبذل على نحو مدمر .. ولم يستطع الخدم احتمال طغيانه وسوء خلقه طويلا ، فلم يبق فى خدمته سوى جوزيف وسواى .. فلم يطاوعنى قلبى على التخلى عن مهمتى ، كما أننى ـ كما تعلم ـ كنت اخته فى الرضاع ، وفى وسعى ان أغفر له مسلكه اكثر مما يفعل شخص غريب آخر .. وأما جوزيف فقد بقى ليبسط نفوذه وغطرسته على المستاجرين والعمال ، ولأن رسالته فى الحياة ، كما يعتقد ، هى أن يوجد حيث تكثر الشرور والمنكرات فيقومها بلسانه اللاذع ..

وكان المسلك السيء للسيد ورفقاء السوء الذين يصاحبهم ، اسوأ مثال لكاثرين وهيثكليف .. كما أن معاملته للاخير كانت خليقة بأن تجعل من القديس شيطانا .. وفى الواقع أن الصبى كان يبدو فى تلك الحقبة كأنما تملكته روح شيطانية شريرة . وكان شديد الغبطة بأن يشهد انحدار هندلى إلى احط الدرك ، ولكنه كان بدوره يزداد يوما بعد يوم فى الشراسة والوحشية ..ولن استطيع ان اصف لك نصف ما كان عليه ذلك البيت الجهنمى الذى كنا نعيش فيه وقتئذ .. حتى لقد عزف القس عن زيارتنا اخيرا وقاطعنا كل شخص محترم من جيراننا ، اللهم إلا إذا كانت زيارات ادجار لينتون لمس كاثى هى الاستثناء الوحيد من ذلك .. وكانت وهى فى الخامسة عشرة ملكة المقاطعة بلا منازع أو منافس .. ولكنها انقلبت إلى مخلوقة متعجرفة عنيدة صلبة الراى .. ولست أعدو الحقيقة إذا قلت إننى لم أعد أحبها بعد أن مرت بمرحلة الطفولة ، فكنت

لا أفتأ أغيظها بمحاولة الغض من شأنها وتحطيم غرورها .. ومع ذلك لم تحقد على أو تكرهنى ، إذ كانت على ثبات عجيب فى ودها القديم .. وحتى هيثكليف ظل محتفظا بمكانته المرموقة فى عاطفتها دون أن يطرأ عليها تبديل أو تغيير ، بحيث وجد لينتون الشاب من العسير – رغم سمو مركزه – ان يكون له أثر عميق فى نفسها مثلما كان لهيثكليف . لقد كان مستر لينتون مخدومى السابق ، وها هى ذى صورته معلقة فوق المدفأة .. وكانت عادة معلقة على احد جانبيها ، بينما كانت صورة زوجته على الجانب الآخر .. ولكن صورتها رفعت من مكانها ، ولولا ذلك لرايت شيئا مما كانت عليه .. فهل بوسعك ان تستشف شيئا من صورة مستر لينتون ؟

ورفعت مسز دين الشمعة إلى اعلى ، فتبينت وجها لين الأسارير يشبه إلى حد غريب تلك السيدة الشابه التى رايتها فى (المرتفعات) ، ولكنه اكثر منها استغراقا فى التفكير ، ورقة فى التعبير .. كانت صورة جميلة حقا .. وكانت الغدائر الشقراء الطويلة تتموج فوق الصدغين ، كما كانت العينان واسعتين تبدو فيهما الرزانة والجد .. اما الجسم فكان فى مجمله رشيقا جميلا .. ولم اعجب كيف استطاعت كاثرين أيرنشو ان تنسى صديقها القديم فى سبيل مثل هذا الشخص ، ولكنى عجبت اكثر كيف استطاع ان يحب كاثرين ايرنشو كما اتصورها ، إذا كانت عقليته تتفق مع ما يبدو من صورته ..

وقلت لمدبرة المنزل : « انها صورة جميلة حقا .. أكان هو فى الحقيقة يشبه صورته هذه ؟ » .. فأجابت :

– نعم .. ولكنه كان يبدو خيرا منها إذا ما كان مسرورا .. إنها تحمل طابعه المألوف العادى ، وقد كان بصفة عامة تنقصه الحيوية ..

واستأنفت مسز دين حديثها فقالت :

– وقد احتفظت كاثرين بصداقتها لآل لينتون منذ ان أقامت بينهم تلك الأسابيع الخمسة .. وقد كانت لا تميل إلى إظهار ذلك الجانب من سوء خلقها وهى فى صحبتهم ، وكانت من اللباقة بحيث تخجل من إظهار خشونتها فى ذلك الوسط الذى تلمس فيه البشاشة والخلق المهذب دواما ، فقد استطاعت – دون قصد او عمد – ان تخدع السيد والسيدة العجوزين بلطفها المتكلف فى براعة ، وان تنال إعجاب ايزابيلا ، وتأسر قلب شقيقها وروحه .. وكان بلوغها ذلك كله قد تملق غرورها منذ البداية ، لأنها كانت مليئة بالمطامع ، وقادها إلى سلوك مسلك مزدوج دون أن تقصد تماما خداع احد .. كانت حيث تسمع هيثكليف ينعت بمثل هذه الأوصاف « ذلك الخبيث المنحط الصغير » ، او « إنه أسوا من الحيوان المتوحش » ، تعنى بألا تفعل مثله او تظهر بمظهره !.. اما فى البيت فقد كانت قليلة الميل إلى الأدب والتهذيب ، لعلمها انهما لن يجلبا لها سوى السخرية والضحك ، ومن العبث أن تقيد نفسها بطبيعة متكلفة غير حقيقية لن تنال عليها مدحا أو ثناء ..

وكان مستر ادجار قلما يستجمع شجاعته ليزور « مرتفعات ويذرنج » علنا .. فقد كان يفزع من سمعة هذا السيئة ،

وينفر من الالتقاء به .. ومع ذلك فقد كان يلقى منا جميعا اقصى ما نستطيع إظهاره من ضروب الحفاوة وحسن المقابلة ، بل إن السيد نفسه كان يتجنب الإساءة إليه ، لعلمه بالباعث على زياراته تلك ، وكان إذا شعر بأن حالته لا تساعده على الظهور بمظهر الرقة واللين ، اعتزل الشابين واختفى عن انظارهما .. بل احسب ان كاثرين نفسها كانت لا ترتاح كثيرا إلى ظهور ادجار لينتون فى (المرتفعات) ، بحكم انها لم تكن على شيء من الدهاء أو المكر ، او تصنع الدلال الذى كان ابعد شيء عن طبيعتها ، ومن ثم كانت تتحاشى التقاء صديقيها معا بكل الوسائل .. لانه إذا ابدى هيثكليف احتقاره للينتون فى مواجهته ، فإنها لا تستطيع ان توافقه تماما ، كما كانت تفعل فى غيبته . وعندما يظهر لنتون اشمئزازه ونفوره من هيثكليف فإنها لا تجرؤ على تجاهل مشاعره ، كأنما ازدراء رفيق صباها أمر قليل الاهمية فى نظرها . وهكذا اتيحت لى الفرصة مرارا لاضحك من حيرتها ومن متاعبها الدفينة ، التى كانت تجهد فى إخفائها عنى حتى لا اسخر منها .. وقد يبدو من ذلك ان لى طبيعة شريرة ، ولكنها كانت من الكبرياء والعجرفة بحيث غدا من المحال ان يشفق المرء على آلامها ومتاعبها ، ما لم يضطرها الإذلال إلى ان تطامن من غلوائها ، ويدفعها إلى التواضع .. وقد اضطرت أخيرا إلى أن تلجأ لى لتصارحنى بمتاعبها وتطلعنى على سرها ، إذ لم يكن ثمة إنسان آخر سواى تجد فيه الناصح والمعين ..

حدث ذات يوم أن بارح مستر هندلى المنزل بعد الظهر ،

فإذا بهيثكليف يجد من الجراة ما يزعم معه انه منح نفسه إجازة من العمل لهذه المناسبة .. وكان فى ذلك الحين ـ فيما احسب ـ قد بلغ السادسة عشرة من عمره ، ودون ان يكون دميم الخلقة أو ناقص العقلية كان ، بتجهمه الدائم ، يشيع حوله شعورا بالنفور منه ، ويوحى بنفوره من الناس ، الأمر الذى خلا منه مظهره الحالى .. ولعل اهم ما كان يحدوه إلى ذلك هو انه كان فى تلك الفترة من حياته قد اضاع ثمرة تعليمه المبكر ، إذ ان العمل الشاق المتواصل ، الذى يبدا من البكور ولا ينتهى إلا فى وقت متأخر ، قد قضى على اية رغبة كانت تتملكه نحو مواصلة تعليمه ، وقتل فيه اى ولع بالكتب او الدراسة .. وكان الشعور الذى لازمه فى طفولته ، بسموه ورفعة شأنه ، والذى أشربه قطرة فقطرة من تدليل مستر ايرنشو الكبير له ، قد ذاب وتلاشى أمام الواقع الأليم .. وكان قد ظل يناضل طويلا فى سبيل الاستمرار فى الدرس مع كاثرين سواء بسواء ، ولكنه ما لبث أن استسلم لعجزه فى حزن موجع ، وإن كان حزنا صامتا مكبوتا .. على أن استسلامه كان كاملا ، فلم يعد ثمة سبيل لإقناعه بأن يخطو خطوة نحو الارتقاء ـ بينما كان يرى نفسه مسوقا ـ رغم انفه ـ إلى الانحدار دون مستواه السابق .. عندئذ اتخذ مظهره الشخصى من نضوبه العقلى رفيقا يزامله ويأنس إليه ، فأصبحت مشيته بطيئة خاملة ، وغدا مظهره بشعا مقيتا . وازداد إغراقا فى تحفظه وتجهمه الطبيعيين حتى صارا غلوا سخيفا فى النفور من الناس وتنكب طرقهم ! .. بل لقد كان

يجد متعة شيطانية فى إثارة اشمئزاز معارفه القلائل أكثر من استجلاب تقديرهم واحترامهم !

وكان هو وكاثرين لا يزالان رفيقين متلازمين فى ساعات راحته وأوقات عمله على السواء .. ولكنه كف عن إظهار ولعه بها بالكلمات ، بل غدا ينفر فى ريبة وغضب من ملاطفتها البريئة الصبيانية ، كأنما كان يحس بأن إغداق مثل هذه المظاهر العاطفية عليه لا يمكن أن يكون له جزاء يرجى أو ثمرة تؤتى أكلها ..

وعندما أتى إلى حجرة الجلوس فى ذلك اليوم ليعلن عزمه على الراحة والانقطاع عن العمل ، كنت اعاون مس كاثى فى استكمال زينتها وتنظيم ثوبها .. فانها لم تقدر قط أن تقوم فى رأسه فكرة الاخلاد إلى الكسل والبلادة ، وإذ خالت أن الدار سوف تخلو لها فقد عمدت إلى ابلاغ مستر ادجار ـ بوسيلة ما ـ بغياب اخيها ، وكانت وقتئذ تتأهب لاستقباله ..

فسألها هيثكليف :

ـ أتراك مشغولة هذا المساء يا كاثى ؟ .. أو هل تنوين الخروج ؟

ـ كلا .. فالمطر ينهمر كما ترى ..

ـ ولماذا ترتدين هذا الثوب الحريرى إذن ؟ .. لعلك لاتنتظرين أحدا ؟ .

ففمفمت الآنسة متلعثمة :

ـ لست أدرى شيئا عن مقدم أحد .. ولكن كان ينبغى أن

تكون فى الحقل الآن يا هيثكليف ، فلم تمض إلا ساعة واحدة منذ الغداء ، وقد حسبتك خرجت لعملك ..

ـ إن هندلى قلما يريحنا من محضره اللعين ، ولذلك لن اعمل شيئا اليوم ، وسوف ابقى معك ..

فازداد ارتباكها ، وقالت :

ـ اوه ! .. ولكن جوزيف سوف يخبره ! .. فمن الخير إذن أن تذهب لعملك ! .

ـ جوزيف مشغول فى تسليم أشجار الخشب المقطوعة فى الناحية الأخرى من هضبة (بينستو) إلى المشترين ، وسوف يستغرق منه هذا العمل حتى هبوط الليل ، وبذلك لن يعرف قط ..

وإذ قال ذلك ، مضى فى تكاسل نحو المدفأة ، واتخذ مجلسه بجانبها .. ففكرت كاثرين لحظة وقد قطبت حاجبيها ، ووجدت من الضرورى أن تمهد الطريق للزيارة المرتقبة ، فقالت بعد برهة من الصمت :

ـ لقد ذكرت ايزابيلا لينتون وشقيقها انهما قد يحضران بعد ظهر اليوم ، وإن كنت لا أتوقع حضورهما مع هذا المطر المنهمر .. ومع ذلك فقد يحضران ، وإذا حدث ذلك فانك تعرض نفسك للتأنيب بغير داع ..

فمضى فى إصراره ، قائلا :

ـ مرى «نيللى» أن تقول إنك مشغولة يا كاثى ، ولا تطردينى من المنزل من أجل هذين الصديقين السخيفين .. إننى أجد

نفسى أحيانا على وشك ان اشكو من انهمـا .. ولكنى لن افعل ..

فصاحت كاثرين وهى تحدق النظر إليه وقد بدا الانشغال فى محياها :

ـ انهما ماذا ؟

ثم استدارت نحوى فى حدة وسخط ، وقد طوحت برأسها بعيدا عن يدى :

ـ اواه يا نللى !.. لقد افسدت تموج غدائرى !.. كفى ذلك الآن ، ودعينى وشأنى .. ما الذى كنت على وشك ان تشكو منه يا هيثكليف ؟

ـ لا شىء .. ولكن انظرى إلى هـذا التقويم المعلق على الجدار ..

واشار بإصبعه إلى تقويم معلق بالقرب من النـافذة ، واستطرد يقول :

ـ انظرى .. لقد وضعت علامات على الأمسيات التى قضيتها مع آل لينتون ، وعلامات اخرى على تلك التى قضيتها معى .. هل ترين ؟.. اننى لم اترك يوما واحدا دون علامة !

فقالت كاثى فى نبرات مغيظة :

ـ نعم .. وذلك فى غاية الحمق !.. كأننى القى بالى لمثل هذه التوافه .. وما معنى ذلك بالله عليك ؟

ـ معناه أننى « أنا » القى بالى إليها ..

فقالت وقد اخذت تزداد غضبا وانفعالا : « وهل ينبغى

ان أجلس معك دائما ؟.. اى خير أجده فى ذلك ؟.. وما هى تلك الأحاديث الطلية التى تطرقها ؟.. انك اشبه بالشخص الابكم او الطفل الفرير فى كل ما تقوله لتسليتى ، وفى كل ما تفعله ، على السواء .. » .

فقال هيثكليف وقد ازداد انفعالا : « ولكنك لم تخبرينى قط من قبل اننى قليل الكلام ، او ان صحبتى لك لا تروقك يا كاثى ! » .

فغمغمت قائلة : « إنها لا تعد صحبة على الإطلاق تلك التى لا يقول الناس فيها شيئا ويجهلون كل شىء .. » .

فاستوى رفيقها على قدميه ، ولكن الوقت لم يتسع له للتعبير عما يخالجه من مشاعر ، إذ سمعنا وقع حوافر الجواد فوق المدخل المرصوف ، وما لبث « لينتون » الشاب أن ولج الحجرة بعـد أن طرق الباب فى رفق ، وقد اضـاء وجهه بالسرور والغبطة لهذه الدعوة غير المرتقبة التى تلقاها .. وما من ريب فى أن كاثرين قد تبينت الفرق بين صاحبيها ، عندما كان أحدهما يلج الحجرة ، والآخر يفارقها !.. كان التناقض والتنافر بينهما أشبه بذلك الذى تحسه عنـدما تخلف أرضا كئيبة ، جبلية ، من أراضى مناجم الفحم السوداء ، إلى واد خصيب جميل .. كما ان صوته ، والطريقة التى يلقى بها التحية ، كانا لا يقلان تناقضا أحدهما مع الآخر ، عن مظهره .. كانت له طريقة رقيقة ناعمة خافتة فى الكلام ، وكان ينطق بكلماته كما تفعل انت ، اى بطريقة اقل فظاظة وأكثر لينا ورقة مما نتكلم نحن هنا :

وقال وهو يرمقنى من طرف خفى ، وقد جثوت على ركبتى وبدات امسح الأطباق وانظم أدراج « البوفيه » : « أرجو الا اكون قد حضرت فى وقت مبكر اكثر مما ينبغى .. » .

فأجابت كاثرين : « كلا البتة .. ما هـذا الذى تفعلينه هناك يا نللى ؟ » .

ـ إننى أقوم بعملى يا آنستى ..

(والواقع ان مستر هندلى كان قد أمرنى بأن اكون طرفا ثالثا فى اية زيارة يقوم بها مستر لينتون على غير انتظار ..)

فتقدمت حتى وقفت خلفى وهمست تقول لى فى غضب وحنق : « اذهبى .. خذى خرقك ومماسحك وامضى إلى الخارج ، فعندما يكون فى البيت زوار يجب ان يكف الخدم عن المسح والتنظيف فى الحجرة التى يجلسون فيها .. » .

فأجبتها بصوت عال : « إنها فرصة طيبة الآن وقد غاب السيد عن البيت ، أن أقوم بعملى ، فإنه يكره ان يرانى اعبث بهذه الأشياء فى حضوره .. ولا ريب أن مستر ادجار سوف يغفر لى ذلك .. » .

فصاحت الآنسة الشابة فى غطرسة وخيلاء ، دون أن تترك لضيفها فرصة للكلام .. وكانت قد تخلت عنهـا رصانتها واتزانها منذ ذلك الشجار الصغير مع هيثكليف : « ولكنى كذلك اكره ان تعبثى بهذه الأشياء فى حضورى .. » .

فكان جوابى المقتضب : «اننى آسفة لذلك يا مس كاثرين !»

ثم مضيت أواصل عملى فى اصرار ومثابرة .. وإذ خالت

ان ادجار لا يستطيع رؤيتها ، جذبت المسحة من يدى فى عنف ، ثم قرصتنى فى ذراعى قرصـة طويلة وهى تلوى اصابعها لتزيد من وجيعتى وتروى غليلها من الانتقام منى .. وقد قلت اننى لم أكن أحبها ، ومن ثم كنت أجد متعة بالغة فى قهر كبريائها وغرورها بين الحين والحين ، وكانت قرصتها قد أوجعتنى كثيرا ، وهكذا نهضت من حيث كنت أجثم فوق ركبتى ، وصرخت قائلة :

ـ ما هذا يا آنسة !.. لقد أتيت فعلة بالغة السوء .. فليس من حقك ان تقرصينى ، كمـا اننى لن احتمل منك هـذا ..

فصـاحت فى وجهى : « إننى لم المسك أيتهـا المخلوقة الكاذبة ! » .

.. بينما كانت اصابعها تتحرق شـوقا إلى إعادة الكرة من جديد ، وقد غدت أذناها قرمزيتين من فرط الغضب .. فما كانت قط تجد فى نفسها القوة على إخفاء انفعالها ، وكانت فى مثل هذه الحالات تبدو متوردة الوجه والعنق كأن موقدا يشتعل تحت جلدها ..

وكشفت عن ساعدى لتشهد البقعـة الزرقاء على كذبها وصدقى .. فضربت الأرض بقدمها وترنحت لحظة ، وما ابثت ان تغلبت روحها الشريرة على ترددها فرفعت يدها وهوت على وجهى بلطمة شديدة مؤلمة ملأت عينى بالدموع ..

فتـدخل ادجار ، وقد عظمت دهشته وفجيعته بهـذه

السقطة المزدوجة التى تردت فيها معبودته : الكذب واستعمال العنف ، وصاح بها :

ـ كاثرين !.. حبيبتى كاثرين !

ولكنها كانت فى شغل عنه .. فإن هيرتون الصغير ـ الذى كان يتبعنى اينمـا ذهبت ، والذى كان يجلس على الأرض بالقرب منى ـ ما كاد يرى الدموع فى عينى حتى أخذ يبكى وينشج بالشكوى من « العمة كاثى الشريرة » ، التى تحولت إليه لتصب جام غضبها على رأسه ، فأمسكت بكتفيه وراحت تهزه فى عنف بالغ حتى غاضت الدماء من وجه الطفل المنكود وغدا باهتا كالشمع !.. وعندئذ اندفع ادجار دون تفكير ، وامسك بكلتا يديها ليخلص الصبى منهما ، فإذا بهـا تحرر احديهما فى سرعة خاطفة ، وإذا بالفتى المشدوه يحس بهذه اليد فوق صدغه بطريقة لا يمكن أن تحدث عفوا .. فتراجع إلى الوراء فى فزع وذعر .. وكنت قد حملت هيرتون بين ذراعى ، ومضيت به نحو المطبخ ، تاركة الباب مفتوحا ، إذ استبد بى الفضول لمعرفة الطريقة التى سيسـوى بها هذا الخلاف بينهما ، فرايت الضيف المهان يمضى إلى حيث كان يضع قبعته ، وكان وجهه شديد الشحوب وشفته ترتجف غضبا وتأثرا .. فقلت لنفسى وكأنى اتحـدث إليه : « حسنا تفعل .. وما عليك إلا ان تقنع بهذا النذير وتهرب بجلدك !.. فمن رحمة الله أن أطلعك على حقيقة خلقها وطباعها ! » .

ولكن كاثرين سبقته إلى الباب قائلة : « إلى أين تذهب ؟ »

فتحول ناحية ، وهو يحاول المرور ، ولكنها عادت تصيح فى عزم قوى :



فامسكت بكتفيه وراحت تهزه فى عنف بالغ حتى غاضت الدماء من وجـه الطفل المنكود ..

— لا يجب أن ترحل الآن ..

فأجاب فى صوت خفيض :

— بل يجب أن أرحل ، وسأفعل !

فمضت فى إصرارها ، وهى تمسك بمقبض الباب : « كلا .. ليس الآن يا ادجار لينتون !.. اجلس ، فما ينبغى لك أن تتركنى فى هذه الحالة .. فسوف أشقى بها طول ليلتى ، ولست اريد ان اشقى بسببك ! » .

فقال لينتون : « وهل بوسعى أن ابقى بعد أن صفعتنى ؟ »

فلم تنبس كاثرين بكلمة ، بينما استطرد الفتى يقول : « لقد جعلتنى اخافك وأخجل منك .. ولن احضر إلى هنا بعد الآن ! » .

فبدات عيناها تنديان ، وأجفانها تضطرب .. على حين تابع ادجار كلامه : « .. ثم انك كذبت عن عمد ! » .

فهتفت تقول : « كلا .. لم أكذب عن عمد ، بل ولم أفعل شيئا عن عمد .. حسنا .. إذهب إذا كان يروقك ان تفعل ! .. اذهب ودعنى ابكى حتى يسقمنى البكاء .. » .

وهوت على ركبتيها بجانب المقعد ، ومضت تبكى بكاء حارا متواصلا . وأصر ادجار على عزمه ، ولكن لم يطل إصراره إلا ريثما بلغ الفناء ، حيث بدأ يتلكأ مترددا ، فعزمت على ان أشجعه وصحت به من الداخل :

— إن الآنسة شديدة العناد يا سيدى ، وهى أسوأ من طفل مشاكس أفسده التدليل .. فمن الخير ان تمضى إلى دارك ، وإلا فإنها سوف تمرض حقا لتجلب لنا الهم والنكد ..

ولكن الفتى الرقيق اللين كان يسترق النظر من خلال النافذة ، وقد بدا عليه التردد والإحجام ، وبدت عزيمته على الرحيل أشبه بعزيمة هرة على ان تترك جرذا يحتضر ، أو عصفورا اكلت نصفه !.. فادركت فى قرارة نفسى انه مقضى عليه بالهلاك ، وان لا سبيل إلى إنقاذه من القدر الذى يلقى بنفسه بين فكيه .. وهكذا كان .. فما لبث أن تحول بغتة واسرع إلى حجرة الجلوس ثانية وهو يغلق الباب خلفه ..

فلما ذهبت بعد برهة لأخبرهما بأن ايرنشو فى طريق العودة إلى الدار وقد اطارت الخمر لبه ، وإنه على استعداد لهدم البيت فوق رؤوسنا ، (وهو يغدو دائما فى هذه الحالة العقلية إذا أفرط فى الشراب) إذا بى أجد ان الشجار لم يزدهما إلا وفاقا وقربا ، وأنه قد حطم أسوار الحياء والخجل التى تحوط الشباب الهيابين ، ومكنهما من خلع قناع الصداقة المجردة ، والكشف عما تحته من الحب الذى نشب فى قلبيهما ..

ودفعت انباء وصول مستر هندلى إلى الدار ، ادجار إلى الإسراع نحو جواده ، ومس كاثرين إلى حجرتها .. اما انا فقد ذهبت لأخفى هيرتون الصغير ، ولأنزع الطلقات من بندقية السيد ، التى كان مولعا بالعبث بها فى هياجه الجنونى ، مهددا حياة كل من يثيره ، أو يثير انتباهه إليه اكثر مما ينبغى .. وكنت قد دبرت نزع هذه القذائف حتى يقل خطره إذا ما بلغ به الحال إلى حد إطلاق البندقية !

* * *

الفصل التاسع

اندفع هندلى إلى الداخل وهو يصيح بسباب يندى له الجبين ، فلمحنى بينما كنت أقوم باخفاء ولده فى دولاب المطبخ .. وكان هيرتون يحس بفزع مروع من لقاء أبيه والتعرض لولعه الوحشى او هياجه الجنونى على السواء !.. فهو فى الأولى عرضة لأن يظل يقبله ويحتضنه حتى يشرف على الموت ، وفى الثانية عرضة لأن يلقى به إلى النار او يحطم رأسه على الجدار .. وهكذا كان الطفل المسكين يظل ساكنا بلا حراك حيثما أردت أن اخفيه عن الأنظار ..

وصاح هندلى وهو يجذبنى من جلد قفاى كما يفعل بالكلاب .

ـ هانذا قد وجدته اخيرا !.. واقسم بالسماء والجحيم انكم اتفقتم فيما بينكم على قتل هذا الغلام ، وها قد عرفت الآن لماذا تخفونه عن انظارى دائما .. ولكنى بعون الشيطان سوف اجعلك تبتلعين سكين اللحم الكبيرة يا نللى !.. ولا حاجة بك إلى الضحك ، فقد زرعت الآن «كينيث» ورأسه إلى اسفل ، فى مستنقع « الحصان الأسود » .. وقتل اثنين كقتل واحد سواء بسواء .. كما ان بى رغبة ملحة فى ان اقتل بعضا منكم ، ولن يهدأ لى قرار حتى افعل !

فأجبته فى هدوء : « ولكنى لا أحب مذاق هذه السكين يا مستر هندلى ، إذ كنا نقطع بها الرنجة المجففة .. والأفضل ـ إذا شئت ـ أن تطلق على النار .. » .

ـ الأفضل ان تنصب عليك اللعنات !.. ولكنك سوف تبتلعين السكين ، فما من قانون فى انجلترا يحول بين الرجل وبين المحافظة على بيته نظيفا محترما .. ولكن منزلى أصبح كريها ممقوتا .. هيا افتحى فمك !

وكان يمسك بالسكين فى يده ، فدفع طرفها بين أسنانى .. ولكنى لم اكن قط اخشى هذيانه هذا ، فبصقت جانبا ورحت أؤكد له ان مذاقها فظيع وذلك لن استطيع ابتلاعها !

عندئذ خلى عنى ، وهو يقول : « ارى ان هذا المسخ الصغير الشرير ليس هيرتون !.. وارجو المعذرة يا نل ، فلو انه كان هيرتون لاستحق ان يسلخ جلده حيا جزاء عدم إسراعه إلى الترحيب بى ، وصياحه كلما رآنى كأننى عفريت من الجان ! .. تعال هنا ايها الجرو الممسوخ !.. سوف أعلمك كيف تخدع ابا طيب القلب سليم النية !.. والآن يا نللى .. الا ترين ان الغلام سوف يغدو أجمل والطف إذا صلمت اذناه !.. إن ذلك يجعل الكلاب اشد ضراوة ، وانا احب ان اراه شيئا ضاريا .. آتينى بمقص !.. شيئا ضاريا ، وانيقا مشذبا !.. ثم إنها لعاطفة جهنمية وخيلاء شيطانية ، أن ندلل آذاننا ونكرمها !!.. فنحن حمير بما فيه الكفاية بدونها !.. صه يا غلام .. صه !.. حسنا إذن .. إنه طفلى الحبيب !.. صه !.. جفف عينيك من هذه الدموع اللعينة ، واضحك لى .. قبلنى !.. ماذا ؟.. إنه لا يريد أن يقبلنى ؟ .. قبلنى يا هيرتون !.. لعنة الله عليك .. قبلنى إذن !..

يا إلهى !.. هل يمكن أن انجب مثل هذا الوحش !.. والله لأحطمن عنق هذا الجرو ما دمت حيا ! » .

وكان هيرتون المسكين يصرخ ويرفس بقدميه ، وهو بين ذراعى والده ، بكل ما فى بدنه الصغير من قوة ، ثم ازدادت صيحاته وتضاعفت عندما حمله وصعد به الدرج وقد رفعه فوق (الدرابزين) .. فصحت به أنه سيخيف الغلام حتى لقد يصيبه الصرع ، واسرعت خلفه لأنقذه من يديه . وما كدت ابلغ مكانه حتى مال هندلى إلى الأمام فوق قضبان السياج ليصغى إلى خطوات انبعثت من الطابق الأسفل مقتربة من الدرج ، وقد نسى ما كان يحمله بين يديه ، وهو يسأل هادرا : « من هناك ؟ » .. وانحنيت إلى الامام بدورى لأشير إلى هيثكليف ، الذى عرفت وقع قدميه ، الا يتقدم اكثر من ذلك .. وفى اللحظة التى فارقت عيناى فيها هيرتون ، قفز الغلام بغتة ، وتخلص من القبضة الرخوة التى كانت تمسك به فى غير عناية ، ثم سقط إلى اسفل ..

ولم يتسع لى الوقت لاحس هزة الهلع التى اعترتنى ، قبل أن ارى المنكود الصغير سليما معافى ، فقد وصل هيثكليف إلى أسفل الدرج فى اللحظة الفاصلة ، وبدافع طبيعى ، لاشعورى ، تلقى الغلام بين يديه ، ووضعه على الارض ، ثم رفع عينيه إلى أعلى ليرى من كان السبب فى الحادث .. ولو ان شخصا شحيحا تخلى عن ورقة نصيب محظوظة فى سبيل خمسة شلنات ، ثم علم فى اليوم التالى أنه خسر فى هذه الصفقة خمسة آلاف جنيه ، لما بدا وجهه أشد امتقاعا

وشحوبا مما بدا عليه وجه هيثكليف عندما رأى مستر ايرنشو بأعلى الدرج .. كان وجهه يعبر ، فى وضوح تقصر عنه الالفاظ ، عن المه البالغ إذ جعل من نفسه أداة إحباط انتقامه .. وبوسعى أن اقول إنه لو كان المكان اشد ظلمة ، لأصلح ما افسدته يداه ، ولحطم جمجمة هيرتون على الدرج !.. ولكننا كنا شهود خلاصه ونجاته ، وكنت قد نزلت وأخذت ذخيرتى الثمينة بين احضانى ، ورحت اضمها إلى قلبى .. اما هندلى فقد كان اكثر تؤدة فى هبوطه ، وقد افاق من ثمله ، وبدا عليه الخجل والندم وهو يقول :

– إنها غلطتك يا نللى !.. كان يجب أن تبقيه بعيداً عن الأنظار .. كان يجب أن تأخذيه منى .. هل أصابه أذى من سقوطه ؟

فصحت به غاضبة : « أذى ؟.. إذا كان لم يقتل ، فلأنه غبى ابله !.. آه !.. شد ما أعجب كيف لا تقوم أمه من قبرها لترى كيف تعامله !.. إنك أسوأ من أى كافر ملحد ، إذ تعامل لحمك ودمك بهذه الطريقة ! » .

فحاول أن يقرب يده من الغلام الذى اطمأن إلى وجودى معه فنفث فزعه المكبوت .. ولكن ما كاد أبوه يمسه بأصبعه ، حتى انبعث يصيح صياحا عاليا ، ويتقلص جسمه كأنما يوشك أن يصاب بنوبة حادة .. عندئذ استطردت أقول لهندلى :

– خير لك أن تدعه وشأنه ، فإنه يكرهك .. بل إنهم جميعا يكرهونك .. وهذه هى الحقيقة المجردة .. إن لديك أسرة سعيدة ، ولكنك بلغت حالة بالغة السوء .

فضحك الرجل المنحرف وعاودته ضراوته ، وهو يقول :

ـ ولسوف تزداد سوءا يا نللى .. اما الآن فعليك ان تغربى عن وجهى به .. وانت يا هيثكليف ، امش من هنـا حالا ، وابتعد عن سمعى ومتناول يدى .. إننى لن اقتل احدا منكم الليلة ، إلا إذا راق لى أن اشعل النار فى المنزل كله ..

وبينما كان يقول ذلك ، تناول زجاجة من الخمر القوية وبدا يصب منها فى قدحه ، وعندئذ رحت اتوسل إليه قائلة :

ـ كلا يا مستر هندلى .. بالله لا تفعل ، وخذ مما وقع نذيرا بسوء العاقبة .. الا اشفق على هذا الغلام التعس ، إذا كنت لا تأخذك الشفقة بنفسك ..

فأجابنى : « إن اى شخص سواى قد يكون خيرا له منى . »
فقلت وانا احاول ان اخطف الزجاجة من يده :

ـ هلا أشفقت على روحك من عذاب الآخرة إذن ؟

ـ لا تنتظرى ذلك منى .. فإنى ـ على العكس ـ شد ما يسرنى أن ابعث بها إلى الهلاك ، عقابا لخالقها على ما اقترفت يداه !

وقهقه الكافر المجدف ضاحكا ، ثم رفع قدحه قائلا :

ـ وهذا نخب لعنتها القلبية !

ثم جرع الكأس دفعة واحدة ، وصاح بنا يأمرنا بالانصراف وهو يشفع أمره بوابل من الفاظ السباب القبيحة المروعة التى لا يمكن للمرء أن يرددها او يذكرها ! .. فلما أغلق الباب . انطلق هيثكليف يردد السباب واللعنات ، ثم قال :

ـ مما يؤسف له أن الشراب لن يقتله ! .. وهو يبذل غاية جهده فى سبيل هذه الغاية ، ولكن قوة بنيانه تتحداه وتخذله .. لقد قال مستر كينيث إنه يراهن على فرسه بان هندلى سـوف يعيش اكثـر من اى رجل آخر فى هـذه الناحية من (جيمرتون) ، وسوف يذهب إلى قبره شيخا تثقله الأوزار والخطايا .. هذا ما لم يحل به احد تلك الأحداث السعيدة الخارجة عن المألوف !

ومضيت إلى المطبخ حيث جلست اهدهد حملى الصغير حتى ينام .. اما هيثكليف فقد خلت انه مضى إلى مخزن الحبوب فى الخارج ، ولكنى تبينت بعد ذلك انه لم يمض إلى ابعد من الناحية الأخرى للأريكة ذات الظهر المرتفع ، حيث القى بنفسه فوق مقعد طويل بجوار الجدار ، بعيدا عن النار ، حيث لبث ساكنا بغير حراك .. وكنت أهز هيرتون فوق ركبتى وأترنم باغنية : اهدهده بها ، عندما اتت مس كاثى ـ التى كانت تصغى إلى الضجيج من حجرتها ـ فأطلت براسها من الباب وهمست قائلة :

ـ هل انت وحدك يا نللى ؟

ـ نعم يا آنستى ..

فدخلت واقتربت من المدفاة وعندئذ رفعت أنظارى إليها وقد خلت أنها على وشك ان تقول شيئا ، فاذا بى أجدها وقد انعقدت فى محياها سحابة من الهم والقلق .. وكانت شفتاها منفرجتين ، كأنما كانت تهم بالكلام ، ولكنها تنفست فى قوة فأفلت تنفسها اشبه بتنهد عميق بدلا من العبارة التى

كانت تنوى قولها .. وعدت إلى الترنم بأغنيتى ، دون أن أبالى بها ، فلم أكن نسيت بعد فعلتها الأخيرة معى .. فقاطعتنى قائلة :

ـ أين هيثكليف ؟

ـ إنه يقوم بعمله فى الحظيرة ..

فلم يعارضنى .. ولعله كان قد أخذته سنة من النوم .. وتلت ذلك فترة طويلة من الصمت لمحت فى خلالها قطرات من الدمع تنساب فوق وجنتى كاثى وتسقط على البلاط .. فتساءلت فى قرارة نفسى : أتراها آسفة نادمة على مسلكها الشائن ؟.. إن ذلك يعد تطورا جديدا فى طباعها !.. ولكن عليها أن تتحدث من تلقاء نفسها ، فلن أمد لها يد المعونة !.. ولكن لا .. فهى لا تعنى أقل عناية بأى شىء عدا ما يخصها ويهمها ، لفرط أنانيتها !.. وأخيرا صاحت قائلة :

ـ أواه يا عزيزتى !.. إننى تعسة شقية !

فقلت فى غير اكتراث :

ـ واأسفاه !.. إن من الصعب مرضاتك يافتاتى !.. أفلا تستطيعين الشعور بالرضى والسعادة ، على كثرة أصدقائك وقلة همومك ؟

فركعت إلى جانبى ورفعت نحوى عينيها الساحرتين وفيهما تلك النظرة التى تذهب بغضب المرء حتى لو كان لديه كل الحق فى التمسك به ، ثم غمغمت تقول :

ـ نللى .. هل تكتمين لى سرا ؟

فقلت وقد لانت أساريرى : « أترينه يستحق الكتمان ؟ »

ـ نعم .. وهو يضايقنى كثيرا ، ولا بد لى من أن أفرج عن صدرى بإفشائه لك .. لقد طلب إلى أدجار لينتون اليوم أن أتزوج منه .. وقد أعطيته جوابى .. ولكنى قبل أن أقول لك إن كان قبولا أم رفضا ، أود أن تخبرينى بما كان ينبغى أن يكون عليه ..

ـ وكيف يمكننى حقا أن أعرف يا مس كاثرين ؟.. ولكننا إذا نظرنا بعين الاعتبار إلى المشهد الذى قمت بتمثيله فى حضوره بعد الظهر ، فمن الحكمة أن ترفضى طلبه .. لأنه ما دام قد طلب يدك بعد ذلك المشهد ، فهو إما أن يكون شخصا أخرق لا أمل فى شفائه ، أو غبيا أبله لا يقدر عواقب الأمور !

فاستوت واقفة وهى تقول فى حنق :

ـ إذا مضيت فى الكلام بهذه النغمة ، فلن أخبرك بشىء بعد ذلك .. والآن ، لقد قبلته يا نللى ! .. فاسرعى وأخبرينى هل كنت مخطئة فى ذلك !

ـ إذا كنت قد قبلته ، فما جدوى مناقشة الأمر من جديد ؟.. لقد أعطيته كلمتك ، وليس فى وسعك أن تسحبيها ..

فصاحت فى ضيق وهى تفرك يديها وتقطب جبينها :

ـ نعم .. ولكن قولى هل كان يجب أن أفعل ذلك .. تكلمى !

فقلت متمهلة وأنا أزن كلماتى :

ـ هناك أشياء ينبغى بحثها والتفكير فيها قبل الإجابة على

هذا السؤال إجابة صائبة .. فأولا ، وقبل كل شيء ، هل تحبين مستر ادجار ؟

– ومن ذا الذى يستطيع الا يحبه ؟.. نعم ، أحبه ، طبعا !

عندئذ مضيت استجوبها فى إلحاح شديد ـ فمن الحكمة أن افعل ذلك مع فتاة فى الثانية والعشرين من عمرها ! ـ قلت :

– ولماذا تحبينه يا مس كاثى ؟

– هراء !.. إننى أحبه ، وهذا يكفى !

– كلا البتة .. بل يجب أن تقولى لماذا تحبينه ؟

– حسنا .. لأنه وسيم الطلعة ، رقيق المعشر ..

– سبب سخيف !

– ولأنه شاب فى مقتبل العمر ، مرح لطيف ..

– وهذا سبب سخيف أيضا ..

– ولأنه يحبنى ..

– ذلك لا يغير من الأمر شيئا !

– وسوف يغدو غنيا .. وشد ما أحب أن اكون أعظم سيدة فى هذه الأنحاء كلها ، ومن بواعث زهوى وفخارى أن يكون لى مثل هذا الزوج ..

– وهذا اسوأ الأسباب التى ذكرتها . والآن خبرينى كيف تحبينه ؟

– كما يحب كل إنسان .. ما هذا السخف يا نللى ؟

– كلا البتة .. اجيبى على سؤالى !

– أحب الأرض التى تحت قدميه ، والهواء الذى يحوط رأسه ، وكل شيء يلمسه ، وكل كلمة يقولها .. أحب كل نظراته ، ولمحاته ، وكل ما يقوله ويفعله .. احبه بكل ما فيه ، كل الحب .. فماذا تريدين بعد ذلك ؟

– ولكن لماذا ؟

– لا .. لقد انقلب الأمر لديك إلى مهزلة ! .. وهذا إفراط فى حب المشاكسة يا نللى !.. الا اعلمى إذن أننى لا اتخذ هذا الأمر هزلا او مزاحا ..

قالت السيدة الشابة ذلك وقد علا وجهها العبوس وادارت ظهرها ناحيتى مستقبلة المدفأة .. فبادرت اقول :

– إننى بعيدة عن الهزل كل البعد يا مس كاثرين .. فانت تحبين مستر ادجار لأنه وسيم الطلعة ، ولأنه شاب ، ولأنه مرح ، ولأنه غنى ، ولأنه يحبك .. ومهما يكن من امر فان السبب الأخير لا قيمة له البتة .. فقد تحبينه دون أن يحبك .. وقد لا تشعرين نحوه بالحب برغم حبه لك ، ما لم تكن له الميزات الأربع الأولى !

– كلا .. لا شيء من ذلك البته .. بل إننى كنت لأشفق عليه ، واكرهه ، لو كان قبيح الصورة ، أو أشبه بمهرجى الملاعب !

– ولكن هناك فى هذا العالم الكثير من الشبان الأثرياء الذين لا يقلون عنه وسامة وبهاء ، إن لم يزيدوا ، فما الذى يمنعك من أن تحبيهم ؟

– إذا وجد امثال هؤلاء ، فانهم بعيدون عن طريقى .. ولم الق فى حياتى احدا يماثل أدجار ..

– قد تلقين بعضا منهم .. ثم انه لن يظل طول حياته وسيم الطلعة شابا ، وقد لا يكون ثريا على الدوام ..

– ولكنه كذلك الآن ، وليس يهمنى سوى حاضرى .. ليتك تتكلمين فى تعقل يا نللى ..

– حسنا .. هذا يحسم الأمر ، وما دمت لا تهتمين إلا بحاضرك ، فتزوجى بمستر لينتون !

– إننى لا اطلب اذنك كى أتزوجه ، فسوف أفعل ذلك .. ومع ذلك فانك لم تخبرينى هل اصبت فى ذلك ؟

– بل أصبت تماما ، إذا كان الناس يصيبون عندما يتزوجون من اجل حاضرهم ، دون مستقبلهم !.. ولنستمع الآن إلى همومك وأسباب شقائك . إن اخاك سوف يطرب لهذا الأمر ، ولست اعتقد ان السيد لينتون والسيدة زوجته سوف يثيران أى اعتراض . وسوف تفرين من دار مليئة بالفوضى ، لا راحة فيها ولا استقرار ، إلى دار محترمة ذات سعة وثراء ووقار .. ثم انك تحبين أدجار ، وهو يحبك .. كل شىء إذن مذلل ميسور .. فأين المتاعب والشقاء إذن ؟

فصاحت كاثرين وهى تضرب بإحدى يديها على صدرها وبالأخرى على جبينها :

– هنا .. ثم هنا ! .. او حيثما تسكن الروح والنفس فى جوارح الجسد .. فاننى فى قرارة نفسى ، وفى أعماق قلبى ، أشعر بأننى قد أخطأت !

– هذه غاية العجب يا آنستى ، وصدقينى اننى لا افهم من الأمر شيئا !

– إنه سرى .. ولكن إذا وعدتنى بألا تسخرى منى فسوف أفسر لك الأمر . وقد لا أستطيع بيانه فى وضوح وجلاء ، ولكنى سأجعلك تحسين بما يخالجنى من مشاعر ..

واتخذت مجلسها بجوارى فوق الأريكة ، واكتست أساريرها لمحة من الحزن والاكتئاب ، وسرت الرعدة فى يديها المتشابكتين .. وبعد ان أخلدت إلى التفكير العميق لحظة ، قالت فجأة :

– الم ترى فى نومك أحلاما غريبة قط يا نللى ؟

– نعم .. يحدث لى ذلك من حين إلى حين ..

– كذلك أنا .. لقد رايت فى حياتى احلاما لازمتنى بعد ذلك دائما ، وغيرت الكثير من آرائى .. بل لقد راحت تمتزج بى ، وتتغلغل فى كيانى ، كما يمتزج النبيذ بالماء ، فيتغير لون تفكيرى .. وهاك واحدا منها .. سوف أقصه عليك ، ولكن حاذرى من ان تضحكى من أى جزء منه !

فصحت أقاطعها : « لا ، لا تفعلى يامس كاثرين .. فلدينا من أسباب الفزع والكآبة ما يكفينا دون حاجة إلى استحضار الأشباح والأرواح لتزيد من كربنا وخبلنا .. هيا عودى إلى طبيعتك المرحة كعهدى بك دائما .. انظرى إلى هيرتون الصغير .. انه لا يحلم بشىء مفزع ، وما أحلاه وهو يبتسم فى نومه ! » .

ـ نعم .. وما أحلى أباه وهو يسب ويلعن فى وحدته !.. أظنك مازلت تذكرينه يا نللى عندما كان صورة أخرى من هذا الصغير السمين ، وفى مثل سنه وبراءته .. ولكن مهما يكن من أمر يا نللى فسوف أرغمك على الاستماع إلى حلمى .. انه ليس طويلا ، كما أننى الليلة بعيدة كل البعد عن الرغبة فى المرح والانبساط ..

فرحت اردد فى عجلة : « كلا .. لن اسمعه !.. لن اسمعه ! » .

والواقع أننى كنت شديدة التعلق بالخرافات والأوهام ، وما زلت كذلك حتى الآن .. ولقد كانت كاثرين فى تلك الليلة فى حالة غريبة غير مألوفة من الكآبة والانقباض جعلتنى أفزع مما قد تقوله فأرى فيه نبوءة مشئومة ، او اتكهن بكارثة مروعة !.. وقد تضايقت هى من رفضى الإصغاء إليها ، ولم تمض فى روايتها ، بل تظاهرت بأنها سوف تطرق موضوعا آخر ، فقالت بعد قليل :

ـ لو أننى كنت فى السماء يا نللى لكنت شقية تعسة !

ـ لأنك لست أهلا للذهاب إلى السماء .. فالخاطئون جميعا يجدون الشقاء والتعاسة فى السماء ..

ـ ليس هذا هو السبب .. لقد حلمت مرة أننى كنت هناك !

فقاطعتها ثانية ، صائحة : « قلت لك إننى **لا أنوى** الإصغاء إلى أحلامك يا مس كاثرين .. سوف أذهب إلى فراشى ! » .

وإذ رأتنى أهم بالنهوض ، تضاحكت وأمسكت بى فى مكانى قائلة : « رويدك ، فلن أضايقك كثيرا .. كنت فقط أهم بأن أقول لك إن السماء لا تبدو انها تصلح لى مقرا وسكنا .. فقد تمزق قلبى من البكاء كى أعود إلى الأرض حتى غضبت الملائكة منى غضبا شديدا ، فأخذتنى وطوحت بى من السماء فسقطت فى وسط الأحراش فوق « مرتفعات ويذرنج » ، وصحوت وأنا ابكى من الفرح .. وهذا وحده يكفى لتفهمى سرى يا نللى .. فما خلقت للزواج من ادجار لينتون ، كما لم اخلق لأجد فى السماء مقرا لى وسكنا .. ولو ان ذلك المنكود الشرير ـ الذى هو اخى ـ لم يهبط بهيثكليف إلى الدرك الأسفل ، لما فكرت فى هذا الزواج .. اما الآن فإن زواجى من هيثكليف يحط من قدرى ويسقط من شانى ومكانتى .. لذلك فإنه لن يعرف أبدا كم احبه . وليس حبى له لانه بهى الطلعة يا نللى ، ولكن لأنه أشبه بى منى ، وأقرب إلى قلبى من نفسى !.. ومهما كانت طبيعة الشىء الذى تصنع منه الأرواح ، فإن روحى وروحه صنعتا من عنصر واحد .. أما لينتون فعلى خلافنا ، كالفرق بين شعاع القمر والبرق ، أو بين الجليد والنار ! » .

وقبل ان تفرغ من عبارتها ، احسست بوجود هيثكليف معنا .. فقد لاحظت حركة يسيرة ، فأدرت راسى ورأيته ينهض من فوق المقعد ويتسلل خارجا بغير حس أو صوت . كان قد ظل يصغى حتى سمع كاثرين تقول ان زواجها منه يحط من قدرها ، فلم يشأ ان يبقى ليسمع المزيد مما تقول ..

وكانت رفيقتى تجلس على الأرض ، وقد حال ظهر الأريكة دون أن تحس بوجوده او رحيله ، ولكنى أجفلت وصحت أطلب إليها الصمت ..

فسألتنى وهى تتفرس حواليها فى قلق : « لماذا ؟ »

فأجبتها ، وقد أسعفتنى أصوات عجلات مركبة فى الخارج :

ـ لقد جاء جوزيف ، وسوف يأتى هيثكليف إلى هنا معه .. بل إنى لست واثقة من أنه لا يقف عند الباب فى هذه اللحظة !

ـ أوه !.. إنه لا يستطيع أن يسمعنى من وراء الباب .. أعطينى هيرتون ، ريثما تعدين لنا العشاء ، وعندما تفرغين من إعداده فاطلبى إلى أن أتناول عشائى معك ، لأنى أريد أن أخادع ضميرى القلق ، وأقنع نفسى بأن هيثكليف لا يدرك معنى لهذه الأشياء .. إنه لا يدركها يا نللى .. وهو لا يعرف معنى الوقوع فى الحب .. أليس كذلك ؟

فقلت فى دهشة : « لست أرى سببا يحول دون معرفته له ، كما تعرفينه .. ولو أن قلبه قد وقع اختياره عليك أنت فإنه سوف يغدو أشقى مخلوق ولدته أنثى على الإطلاق .. وما أن يصبح اسمك « مسز لنتون » حتى يكون قد فقد الصديق ، والحب ، وكل شىء !.. هل فكرت كيف يمكنك احتمال هذا الفراق ، وكيف يمكن أن يطيق هو احتماله ، عندما يجد نفسه منبوذا مهجورا فى هذا العالم ؟ »

فقاطعتنى وهى تهتف فى استنكار : « منبوذا مهجورا ؟..

فراق وهجران ؟.. منذا الذى يستطيع أن يفرق بيننا بالله عليك ؟ لن يحدث ذلك ما دمت حية يا إيلين[١] ! ولن أقدم عليه من أجل مخلوق من البشر !.. فليفن كل لينتون على وجه الأرض ، وليتلاش ويصبح عدما فى عدم ، قبل أن أفكر فى هجر هيثكليف أو التخلى عنه .. أوه ، كلا .. ليس ذلك ما أنويه ، ولا ما أعنيه .. وما كنت لأصبح مسز لينتون قط لو كان ذلك هو الثمن المنشود .. سوف يظل عندى مثلما كان طول حياته ، ويجب على ادجار أن ينفض عنه كراهيته له ، ويحتمل لقاءه ورؤيته على الأقل .. ولسوف يفعل عندما يعلم حقيقة شعورى نحوه .. وها قد رأيت الآن يا نللى أنك كنت تظنيننى أنانية تعسة .. ولكن ألم يخطر لك قط أننى لو تزوجت من هيثكليف فسنغدو فقيرين شحاذين ، على حين أننى لو تزوجت من لينتون فسيكون فى وسعى أن أعين هيثكليف على النهوض ، وأضعه حيث يكون بمنجاة من سطوة أخى وسيطرته ؟ » .

ـ أتفعلين ذلك بنقود زوجك يا مس كاترين ؟.. إنك لن تجديه لين العريكة إلى الحد الذى تعتمدين عليه !.. ثم إننى أعتقد ـ دون أن يكون من شأنى الحكم على ما تفعلين ـ أن ذلك أسوأ ما ذكرته من بواعث تدفعك للزواج من لينتون !

فأجابت قائلة : « كلا .. إنه خيرها وأقواها . إن الأخرى

---

(١) « ايلين » ، أو « مسز دين » ، أو « نيللى » ، كلها أسماء لامرأة واحدة .



كانت لإرضاء أهوائى وإشباع نزواتى ، ومن أجل ادجار لينتون أيضا . لإرضاء رغبته .. وأما هذا الباعث فإنه من أجل من يشتمل فى شخصه على كل مشاعرى نحو ادجار . وعلى انا نفسى !.. إننى لا أستطيع التعبير عما يدور بخلدى ، ولكن من المحقق انك ، وكل إنسان آخر ، تعلمين انه يوجد – او يجب ان يكون هناك – كيان آخر لك خارج هيكلك !.. وإلا غاية فائـدة كانت من خلقى إذا كنت بكليتى سـجينة هـذا الجسد ؟.. إن اعظم ما لقيت من شقاء وهموم فى هذه الدنيا إنما هما شقاء هيثكليف وهمومه التى كنت أرقب كلا منهـا واحسه واعيش فيه منذ البداية .. وغاية حياتى ومنتهاها إنما هى هيثكليف نفسه . فلو هلك كل من عداه ، وبقى هو . لبقيت انا الاخرى متصلة الكيان والوجود . ولو بقى كل شىء آخر ، وفنى هو ، لغدا الوجود كله غريبا عنى . لا احس بأننى جزء منه !.. إن حبى للينتون أشبه بأوراق الشجر فى الغابة . يغيرها الزمن ويغير عليها – وهذا ما احسه من الآن – كما يغير الشتاء على اوراق الأشجار .. وأما حبى لهيثكليف فاشبه بتلك الصخور الخـالدة تحت الأرض ، قد لا تكون مصدر بهجة ظاهرة ، ولكنها ضرورية كالأزل !.. نللى !.. إننى هيثكليف !.. وهو أبدا فى عقلى وفى فكرى . لا كمتعة او ملهاة ، إلا بقدر ما يمكن ان اكون انا متعة وملهاة لنفسى .. ولكنه كيانى ووجودى نفسه .. فلا تتحدثى عن فراقنا مرة ثانية لأن ذلك أمر مستحيل الوقوع عمليا .. و .. » .

وكفت عن الحديث بغتة ، وهى تخفى وجهها بين طيات

ثوبى .. لكننى دفعتها عنى فى غير رفق أو لين ، إذ كان صبرى قد نفد من حماقاتها ، وقلت :

– إذا كنت أجد أى معنى فى هرائك هـذا يا آنسة ، فإنه يكفى لإقناعى بأنك تجهلين كل شىء عن المسئوليات والواجبات التى يجب أن تضطلعى بها فى الزواج .. او انك فتاة شريرة لا خلق لهـا ولا مبادىء !.. فأرجو الا تشغلينى بالمزيد من اسرارك هذه ، لانى لا اعدك بكتمانها !

فقالت فى لهفة : « وهل تكتمين هذا ؟ »

فعدت اقول : « كلا .. لست اعدك بذلك ايضا ! »

وكانت تهم بالإلحاح على فى الرجاء ، لولا أن دخل جوزيف فى تلك اللحظة فوضع حدا لحديثنا .. وانتحت كاثى ناحية ، واخذت هيرتون فى حجرها ، بينما انصرفت انا لإعداد العشاء ، حتى إذا ما فرغت منه بدات وجوزيف نتشاحن اينا يحمل العشاء إلى مستر هندلى .. فلم ينته شجارنا إلا بعد أن برد الطعام وعندئذ اتفقنا على ان ننتظر حتى يطلب عشاءه ، إذا شعر بحاجة إلى الطعام ، إذ كنا جميعا نرتعد فرقا من لقائه عندما يكون قد ظل منفردا بنفسه طويلا !

وتلفت جوزيف يبحث عن هيثكليف ، ثم قال : « وكيف لم يعـد ذلك الشقى من الحقل بعد ، فى هذه الساعة ؟.. ما الذى يفعله ؟.. لا ريب انه يتسكع كعادته ! »

فأجبت : « لا ريب انه فى مخزن الغـلال ، وسأذهب لأناديه .. » .

ومضيت أبحث عنـه ، وأناديه فى كل مكان بالمنـزل ، ولا مجيب .. فلما عدت ، انتحيت بكاثرين وهمست أقول لها اننى واثقة من انه سمع شطرا كبيرا مما قالته ، ثم ذكرت لها كيف لمحته وهو يغادر المطبخ فى اللحظة التى كانت فيها تشكو سوء معاملة اخيها له ومسلكه القاسى حياله .. فما راعنى إلا انها قفزت من مجلسها فى فزع شديد ، والقت بهيرتون فوق الأريكة ، واندفعت إلى الخارج لتبحث عن صديقها بنفسها ، دون ان تتمهل ريثما تتفكر فى سبب هذا الفزع الذى دهمها ، أو ما عساه يكون قد ساءه من حديثها .. ولقد طال غيابها حتى ان جوزيف اقترح الا ننتظرهما اكثر من ذلك ، واشار فى خبث إلى انهما قد مكثا معا بعيـدا حتى لا يسمعا صلاته الطويلة المسهبة .. وراح يؤكد لى انهمـا من سوء الخلق والنزوع إلى الشر بحيث لا نتوقع منهما مسلكا طيبا !.. ومن أجل صلاح نفسيهما ، تطوع فى تلك الليلة بصلاة خاصـة اضافها إلى ربع الساعة المعهود من التضرع والابتهال ، الذى نقضيه عادة امام الطعام قبل ان نمد إليه يدا .. ولعله كان خليقا بان (يلغم) فيها صلاة اخرى ، لولا ان اندفعت السيدة الصغيرة إلى الداخل ، وانقضت عليه تأمره فى حزم بان يسرع بالخروج إلى الطريق ليبحث عن هيثكليف ، اينما كان ، حتى يجده ويحضره إلى المنزل فى الحال .. واضافت فيما يشبه العويل :

ـ إننى اريد أن أتحـدث إليه حتما قبل ان أصعد إلى حجرتى .. ثم ان البوابة مفتوحة على مصراعيها ، ولابد انه

فى مكان ما بعيد عن مدى السمع ، لانه لم يجب ندائى برغم اننى صعدت فوق سطح الحظيرة وجعلت أصيح منادية باسمه بأعلى ما استطعت من صوت ..

واعترض جوزيف فى بادىء الأمر ، ولكنها كانت فى حالة من اللهفة لا تسمح باعتراض مشيئتها .. فما لبث أن وضع قبعته فوق راسه ، وسـار وهو يغمغم بعبـارات السخط والحنق ، بينما راحت تذرع الأرض ذهابا وجيئة وهى تهتف :

ـ إننى لأعجب أين هو الآن ؟ .. بل أين يمكن أن يكون ؟!. ما الذى قلته يا نللى ؟. لقد نسيت !. أتراه غضب من سوء خلقى بعد الظهر ؟.. يا إلهى !.. خبرينى يا عزيزتى ، ما الذى قلته فأحزنه ؟ .. شد ما اود ان يعود !.. شد ما أود حقا ان يعود ثانية !

فصحت بها ، وإن كان القلق قد بدأ يتسلل إلى قلبى :

ـ ما هذه الضجة التى تقيمينها للاشىء ؟.. أمن أتفه سبب تفزعين وترتاعين ؟ .. لست ارى مما يثير القلق أن يخـرج هيثكليف لنزهة فى الأحراش فى ضـوء القمر ، أو يدفعه تجهمه المألوف إلى الاستلقاء بين الدريس دون أن يعنى بالرد على ندائنا .. أؤكد لك أنه هناك ، وسـأريك كيف أخـرجه بنفسى ..

وبادرت بالخروج لأعيد الكرة فى البحث عنه فى كل مكان خطر ببالى ، ولكن بحثى لم يسفر عن أية ثمرة ، كما أن بحث جوزيف انتهى إلى النتيجة ذاتها ، إذ عاد وهو يهدر قائلا :

– ان هذا الفتى لن ينصلح حاله قط .. ولقد ترك البوابة مفتوحة فخرج مهر الآنسة وحطم صفين من عيدان القمح ، وانطلق عبر الحقل إلى الأحراش .. والله إن السيد سوف يثير الشياطين فى الصباح ، وحسنا يفعل .. فقد طال صبره حتى غدا ضعفا وخورا .. ولكن للصبر نهاية ، وسوف ترون عاقبة أفعالكم هذه ؟

فقاطعته كاثرين :

– هل وجدت هيثكليف يا حمـار ! وهل بحثت عنه كمـا امرتك ؟

– كان الأولى ان ابحث عن المهر ، فذاك خير واجدى !.. ولكننى لا استطيع البحث عن حصان او إنسان فى هذه الليلة المظلمة التى تشبه سـواد المدخنة ! .. ثم إن هيثكليف لن يجيب ندائى ، وكان الأولى ان يلبى نداءك أ نت !

والحق انها كانت ليلة حالكة السواد بالنسبة لليالى الصيف، وكانت السحب تتجمع وتنذر بقصف الرعد وهطول المطر ، فقلت انه يجدر بنا ان نجلس جميعا فان العاصـفة المقتربة خليقة بأن تعيده إلى المنزل ، دون مزيد من العناء او القلق .. غير أننى لم أستطع إقناع كاثرين بالهدوء ، فظلت قلقة ، تروح وتغدو بين باب المطبخ والبوابة الخارجية فى حالة من الاضطراب والهياج لا تدع مجالا لأية راحة او هـدوء .. وما لبثت ان اتخذت لها مكانا ثابتا عند طرف السور بالقرب من الطريق ، حيث أقامت هناك غير عابئة باعتراضى المتوالى ، ولا بالرعد القاصف ، بل ولا بقطرات المطر الكبيرة التى بدأت تهطل

حولها ، وهى تنادى على هيثكليف بين الفينـة والفينـة ، وتنصت لعله يجيب النداء ، ثم تنفجر باكية صـائحة من جديد .. وكانت عندما تعتريها نوبات البكاء والصياح ، تفوق هيرتون او اى طفل آخر ، فى هذا المضمار ..

وقبيل منتصف الليل ، وفيما نحن نجلس على هذه الحال ، انطلقت شـياطين العاصـفة من عقالها ، وأتت تهـدر فوق « المرتفعات » فى عنفوان قوتها وشدتها . وكانت الرياح تزمجر كالذئاب الجائعة ، والرعد يقصف كأن السماء توشك أن تنقض على الأرض، وأطارت العاصفة شجرة عند ركن الدار، فسقط غصن غليظ منها فوق السطح ، وحطم جزءا من المدخنة الشرقية ، فتهاوت الأحجار والأنقاض فى هدير مروع داخـل موقـد المطبخ حتى خلنا أن صاعقة قـد انقضت بيننا ، وأسرع جوزيف يجثو على ركبتيه ويبتهـل إلى الله ان يذكر عبديه الصالحين « نوحا » و « لوطا » ، وان يقى عباده الأبرار من الهـلاك ، ويقصر الدمار والفناء على الـكفرة والأشرار .. وأحسست بهاتف خفى يهجس فى نفسى بأن اللعنة ستحيق بنا جميعا ، وأن « يونان »(١) المنحوس ليس إلا مستر ايرنشو نفسه ! .. وعندئذ مضيت أحـرك مقبض باب الوكر الذى يأوى إليه ، لأتحقق مما إذا كان لا يزال على قيـد الحياة ، فأجابنا فى صوت عال ، وفى ألفاظ جعلت جوزيف يصـيح ويصخب بأكثر مما كان يفعل من قبل ، ويبتهل إلى الله ان

(١) « يونان » فى الانجيل يقابل « يونس » فى القرآن .

يفرق بين القديسين أمثاله ،والخاطئين أمثال سيده !..ولكن العاصفة انقضت بعد زهاء عشرين دقيقة وخلفتنا جميعا بغير سوء ، فيما عدا كاثى التى ابتلت ثيابها جميعا من جراء عنادها ورفضها الالتجاء إلى الداخل ، ووقوفها عارية الرأس بغير دثار فوق ثيابها حتى فاض شعرها وثيابها بأكبر قدر من الماء .. وأخيرا أتت إلى المطبخ ، فألقت بنفسها فوق الأريكة بثيابها المبتلة وأدارت رأسها إلى المسند وهى تخفى وجهها بين يديها ..

فهتفت أقول وأنا ألمس كتفها بيدى :

– حسنا يا آنسة ! .. أتراك موكلة بأن تجلبى لنفسك الموت ؟ .. وهل تعرفين كم الساعة الآن ؟ .. إنها النصف بعد منتصف الليل . تعالى ، تعالى إلى فراشك ، فليس ثمة جدوى من بقائك بعد ذلك فى انتظار ذلك الفتى الطائش المعتوه ، فلعله قد ذهب إلى (جيمرتون) وبقى بها إلى الآن .. ولعله حدس أننا لن نبقى فى انتظاره حتى هذا الوقت المتأخر ، وحدس أن مستر هندلى هو وحده الذى قد يكون ساهرا ، فأراد أن يتحاشى لقاءه إذا فتح له الباب ..

فقال جوزيف : « كلا .. كلا ، إنه لم يذهب إلى (جيمرتون) . ولست أعجب إذا كان الآن فى قاع حفرة مليئة بالوحل !.. فتلك المحنة التى أبتلانا بها الله لا تذهب عبثا .. ولو أنك ذهبت وراءه ياآنسة لكنت الفريسة التالية !.. هل تعرفين ما تقول التوراة ؟ » .

ثم بدأ يتلو علينا الآيات ويرشدنا إلى مواضعها بين النصوص



فيما عدا كاثى التى ابتلت ثيابها جميعا من جراء عنادها ورفضها الالتجاء الى الداخل ، ووقوفها عارية الرأس بغير دثار فوق ثيابها ..

حيث يمكن أن نجدها .. وإذ ذهبت توسلاتى لتلك البنت العنيدة بأن تنهض وتستبدل ثيابها المبللة ، عبثا ، تركت أحدهما يتلو عظاته وصلواته ، والأخرى ترتعد من فرط البرد ، ومضيت إلى فراشى حاملة هيرتون الصغير الذى سرعان ما استغرق فى النوم .. ولبثت برهة أسمع صوت جوزيف وهو يتابع ابتهالاته ، ثم سمعت وقع أقدامه فى الدرج ، قبل أن يغلبنى النعاس وأروح فى نوم عميق ..

فلما نزلت إلى المطبخ فى الصباح ، متأخرة عن موعدى المعتاد قليلا ، رأيت ـ على ضوء أشعة الشمس التى كانت تخترق فتحات النافذة ـ مس كاثرين لاتزال جالسة بجوار المدفأة التى خبت نيرانها . وكان الباب المؤدى من المطبخ إلى حجرة الجلوس منفرجا والضوء يغمرها من النافذة المفتوحة .. وكان هندلى قد خرج من الحجرة ووقف بجوار مدفأة المطبخ ، شاحب الوجه مثقل العينين بالنعاس .. وكان يقول لها عندما دخلت :

ـ ماذا بك يا كاثى ؟.. إنك تبدين فى حالة يرثى لها ، كجرو غريق .. لماذا أراك شاحبة الوجه مبللة الثياب ياصغيرتى ؟

فأجابته فى إحجام وتخاذل :

ـ لقد ابتلت ثيابى ، وشعرت بالبرد .. هذا كل شىء ..

فلم أتمالك نفسى من القول ، إذ رأيت السيد وقد أفاق من سكره : « آه ! انها فتاة شريرة .. لقد تركت وابل المطر ليلة أمس يغرقها ثم جلست الليل بطوله هنا ولم أستطع التأثير عليها كى تذهب إلى فراشها أو تتحرك من مكانها ..» .

فراح مستر ايرنشو يحدق البصر إلينا جميعا فى دهشة ، وما لبث أن قال : « الليل بطوله ؟ .. وما الذى أبقاها مستيقظة حتى الآن ؟.. إنه ليس الخوف من الرعد طبعا ، فقد انقضى ذلك منذ ساعات طويلة ؟ »

فلم يشأ أحد منا أن يذكر شيئا عن غياب هيثكليف ، طالما كان فى وسعنا أن نخفيه .. وهكذا قلت إننى لا أدرى ما الذى نبت فى رأسها كى تظل جالسة ساهرة ، كما أنها لم تقل شيئا البتة . وكان الجو جميلا والصباح مشرقا ، فدفعت مصاريع النافذة وسرعان ما امتلأ المكان بشذى الزهور المنبعث من الحديقة ، غير أن كاثرين صاحت بى فى حنق :

ـ أغلقى النافذة ياايلين ، فانى أموت من البرد !

وأخذت أسنانها تصطك وبدنها يرتعد ، وهى تقترب من رماد النيران الخابية ، فأمسك أخوها برسغها ، وصاح : «انها مريضة !.. وأحسب أن ذلك هو السبب فى عدم ذهابها إلى الفراش . يا للشيطان ! إننى لا أريد أن تنغصوا حياتى بالمزيد من المرض هنا !.. ما الذى جعلك تخرجين فى المطر بحق السماء ؟ » .

فانبرى جوزيف ، وقد سنحت له الفرصة ـ بعد أن رأى ترددنا ـ لينفث سموم لسانه ، قال :

ـ الجرى وراء الشبان كالعادة !.. ولو كنت فى مكانك أيها السيد لنزلت على وجوههم وأقفيتهم صفعا ، السادة منهم والصعاليك !.. فما من يوم تخرج فيه من المنزل حتى يحضر لينتون الشاب ليتسكع هنا . أما مس كاثلين فهى فتاة

رقيقة الشعور !.. إنها تجلس فى المطبخ تترقب حضورك من النافذة ، لتنذرهما بعودتك ، فما أن تدخل من باب حتى يتسلل لينتون من الباب الآخر ، وبعد ذلك تمضى سيدتنا العظيمة فى الغزل من جديد على طريقتها !.. هل ترى من آداب السلوك أن تذهب لتجوب فى الحقول بعد منتصف الليل مع ذلك الوغد سليل الشياطين والغجر ، هيثكليف ؟.. إنهم يظنوننى اعمى لا أرى شيئا ، ولكنى لست كذلك !.. لقد رايت لينتون الشاب وهو يأتى ويذهب . ورايتك أنت ، (وهنا تفضل بتوجيه الكلام لى :) أنت ايتها الفتاة الضالة التى لا تصلح لشىء ، تنهضين فجأة وتسرعين إلى حجرة الجلوس فى اللحظة التى تسمعين فيها وقع حوافر جواد السيد فى أول الطريق !

فصاحت كاثرين : « اصمت أيها النمام الدساس ! .. ولا تزد من قحتك وسلاطة لسانك أمامى .. لقد حضر ادجار لينتون أمس يا هيندلى مصادفة ، وكنت أنا التى طلبت إليه الانصراف لأننى أعلم أنك ما كنت تود أن تلقاه فى الحالة التى كنت فيها .. »

فأجاب أخوها : « بل أنت تكذبين يا كاثى ، لا شك فى ذلك . ثم إنك بلهاء لعينة !.. ولكن دعينا من لينتون الآن ، وأخبرينى الم تكونى مع هيثكليف ليلة الأمس ؟.. قولى الحقيقة الآن ، ولا حاجة بك إلى الخوف من إيذائه . فعلى الرغم من أننى اكرهه الآن أكثر من أى وقت مضى ، إلا انه أسدى إلى صنيعا لا أستطيع تجاهله ، منذ وقت قصير ، بحيث لا يطاوعنى ضميرى على أن أدق عنقه .. ولكى أحول دون ذلك فسوف

أطرده اليوم ، بل هذا الصباح بالذات . وعندما يذهب فإنى انصحكم جميعا بأن تفتحوا اعينكم جيدا وإلا كان لكم عندى الجزاء الأوفى ! » .

فبدأت كاثرين تنشج فى مرارة وتقول :

ـ ما رايت هيثكليف ليلة الامس قط .. وإذا طردته من هنا فسوف اذهب معه ، ولكن مهلا ، لعلك لن تستمتع بهذه الفرصة قط . لعله ذهب من تلقاء نفسه !

ثم انفجرت فى نوبة من البكاء المرير والحزن الدافق حتى غدت كلماتها الأخيرة غير واضحة أو مفهومة .. وعندئذ راح أخوها يصب عليها وابلا من الألفاظ القارصة والعبارات القاسية ، وامرها بأن تذهب إلى حجرتها فى الحال ، وإلا اذاقها ما يجعل لبكائها سببا . وأرغمتها على الطاعة ، ولن أنسى ما حييت الحالة المروعة التى كانت فيها عندما أوينا إلى حجرتها ، حتى تملكنى الرعب والفزع ، وحسبتها قد أصيبت بالجنون ، فأسرعت أرجو جوزيف أن يبادر إلى طلب الطبيب ، لأننى وجدتها تهذى بكلام غير مفهوم كهذيان المحموم .. وما كاد مستر كينيث يراها حتى قرر أنها مصابة بحمى ، وأن حالتها بالغة السوء إلى حد خطير ، ثم فصدها وأمرنى بأن يقتصر غذاؤها على اللبن المخضوض وثريد الماء ، وأن نرقبها بأعين مفتوحة حتى لا تلقى بنفسها من النافذة أو من الدرج ، وما لبث أن بارحنا لكثرة عمله فى تلك الأنحاء التى لا تقل المسافة فيها بين كوخ وآخر عن ميلين أو ثلاثة ..

ولست أزعم أننى كنت لها ممرضة رقيقة حانية ، كذلك

لم يكن جوزيف والسيد بخير منى فى هذا المضمار .. وعلى الرغم من ذلك ، ومن أن مريضتنا كانت متعبة عنيدة صلبة الراى ، فانها اجتازت مرحلة الخطر بسلام . وقد زارتنا مسز لينتون العجوز مرارا عدة ، وكانت لا تفتأ توجهنا وترشدنا ، بل وتوجه إلينـا اللوم والتقريع إذا لمحت علينـا تراخيا أو تقصيرا ، حتى إذا ما بدات كاثرين مرحلة النقاهة أصرت على ان تأخذها إلى منزلها فى (ثرشكروس جرانج) لتستكمل هناك اسباب الشفاء والصحة .. وكم شكرنا للسيدة الكريمة أن خلصتنا من متاعب كاثى ومضايقاتها ، غير ان المسكينة دفعت ثمن شفقتها وحنانها غاليا ، فقد انتقلت عدوى الحمى إليها وإلى زوجها ، وما لبثا أن قضيا نحبهما وبين احدهما والآخر ايام قلائل !

وعادت إلينا سيدتنا الصغيرة اشد قحة واحد طبعا واعظم تعاليا وغطرسة مما كانت عليـه قط من قبل !.. ولم نكن قد سمعنا شيئا البتة عن هيثكليف منذ اختفائه ليلة العاصفة ، فكان من سوء طالعى ذات يوم ، وقد اثارتنى بفعالها حتى لم أعد أملك زمام نفسى ، ان القيت عليها وحدها تبعة اختفائه . وكانت تعرف هذه الحقيقة تماما ، ولكنها انفت ان يواجهها احد بها . ومنذ ذلك اليوم ، ولعدة شهور بعد ذلك ، تباعدت عنى ولم تعـد تتصل بى على اى وجه إلا لتصدر لى أمرا ، شانى فى ذلك شان اية خادم عادية !.. ووقع جوزيف كذلك تحت طائلة غضبها ، وكان يود أن يقول لها كل ما يجول بخاطره ، وان يلقى على مسامعها عظاته كانها لا تزال بنتـا صغيرة ، ولكنهـا كانت تعتبر نفسها امراة ، وترى نفسها

سيدتنا ، وتخال من حقها بعد مرضـها الأخير أن تلقى منا كل احترام وإجلال . وكان الطبيب قد قرر ان حالتها لا تحتمل المعارضة أو الإثارة ، وأنها يجب أن تنفذ مشيئتها ورغباتها بغير تردد . فإن اجتراء احد على الوقوف امامها واعتراضه لها كان فى عينيها لا يقل عن القتل !.. وكانت تتحاشى اخاها ورفاقه ، بينما كان هو ، مدفوعا بمـا سمعه من الدكتـور كينيث . وبخشيته من العواقب الخطيرة التى قد تصيبها إذا ما استبد بها الغضب ، قد ترك لها الحبل على الغارب ، واخذ يلبى كل رغباتها ، ايا كانت . وينـاى عن كل ما يثير مزاجها النارى الجموح . بل لقد كان مفرطا فى التسامح معها ، ممعنا فى إرضـاء نزواتها واهوائهـا ، لا عن حب حقيقى او عاطفة اخوية صادقة ، بل عن زهو وكبرياء ، إذ كان يذوب لهفة على ان تتشرف العائلة بمصاهرة آل لينتون .. وما دامت تدعه وشأنه فلها أن تدوس على أعناقنا كالعبيد ، فما يعنيه من ذلك شىء !.. وكان ادجـار لينتـون ، كالكثيرين ممن سبقوه وممن سيأتون بعده ، مفتونا ذاهب اللب بمعبودته ، وحسب نفسه اسعد رجل حملته الأرض ، فى اليوم الذى قادها فيـه إلى هيكل كنيسة جيمرتون ، بعـد وفاة والده بثلاثة اعوام .

وارغمت ـ على غير ما كنت أهوى وأحب ـ على مغادرة (مرتفعات ويذرنج) ومصاحبة كاثرين إلى هنـا ، منذ كان هيرثون الصغير قد بلغ الخامسة من عمره ، وبدأت أعلمه مبادىء الهجاء . وكان فراقنا أليما ، ولكن دموع كاثرين كانت

أقوى من دموعنا . وعندما رفضت الذهاب معها ، ووجدت ان توسلاتها لم تجد نفعا معى ، ذهبت تشكو لزوجها وأخيها ، فأغرانى الأول بالمزيد من الأجر ، على حين امرنى الثانى بأن احزم متاعى وأتهيأ لمغادرة البيت ، لأنه لا يريد نساء فى منزله بعد ان خلا من سيدته . وقال عن هيرتون إنه سيكل امر رعايته وتهذيبه إلى القس . وهكذا لم يعد امامى غير سبيل واحد للاختيار ، وهو أن أنفذ ما امرت به ، وأرافقها . ولقد قلت للسيد قبل انصرافى إنه إنمـا اراد الخلاص من كل ذى حياء أو خلق قويم فى المنزل ، حتى يطلق لنزواته العنان ، ويمضى نحـو الدمار من أسرع طريق .. ثم قبلت هيرتون وودعته ، ومنذ ذلك اليوم اضحى بالنسبة لى غريبا بكل معنى الكلمـة . وقد يبدو ذلك امرا عجيبا ، ولكنى لا أشك البتة فى انه قد نسى كل شىء عن « ايلين دين » ، تلك التى كان لها ـ كما كانت له ـ كل شىء فى هذا العالم ! » .

***

وعند هذا القدر من الحديث حانت من مدبرة المنزل نظرة نحو الساعة الموضوعة فوق رف المدفأة ، فذهلت إذ وجدتها قد بلغت الواحدة والنصف ، ونهضت من مجلسها دون أن ترضى بالبقاء ثانية واحدة بعد ذلك . والحق اننى كنت أنا نفسى ميالا إلى تأجيل متابعة القصة إلى وقت آخر .. ولبثت بعد ان تركت الحجرة جالسا أفكر فيمـا سمعت ، ساعة أو اثنتين ، استجمعت بعدهما شجاعتى للذهاب إلى الفراش ، برغم ذلك الخدر الموجع الذى كان يسرى فى رأسى وأطرافى ..

***

الفصل العـاشر

لعمرى كانت الأيام التالية خير تمهيـد لمن ينشد حيـاة النسك والوحدة والعزلة !.. اربعـة أسابيع قضيتها بين الآلام ، والسعال ، والمرض . وبين هـذه الرياح البـاردة القارصة ، وهذه السماء المقبضة الموحشة ، وتلك الطرقات التى لا يمكن لأحد عبورها ، ثم أطباء الريف الكسالى !.. حتى سئمت هذا الحرمان المطلق من رؤية وجوه البشر ، ولكن الأسوأ من كل هذا وذاك إنمـا كان ذلك الإنذار المروع الذى وجهه لى كينيث بألا اتوقع مغادرة الدار قبل حلول الربيع !

وكان مستر هيثكليف قد شرفنى بزيارته ، بعد أن كان قد ارسل لى منذ سبعة ايام زوجا من بط المستنقعات ، وكنا فى آخر موسم صيده . يا له من وغد !.. الا يعلم انه ليس بريئـا من مرضى هذا ؟.. لكم كنت أود أن أجابهـه بذلك صراحة ، ولكن واأسفاه !.. كيف كان يسعنى أن أسىء إلى رجل كان من الكرم بحيث جلس بجوار فراشى ساعة كاملة تحدث فيها عن كل شىء إلا عن الحبوب والجرعات والنفاطات ودود العلق !.. ولكنى الآن أحسن حالا ، وأجتـاز فترة تحسنت فيها كثيرا عن ذى قبل . وإذا كان الضعف قد بلغ منى حدا يحول بينى وبين القراءة ، إلا أننى اجد نفسى قادرا على الاستمتاع بشىء مسل يذهب عنى هذه الوحشـة التى أعانيها .. فلماذا لا أدعو مسز دين لتتم حكايتها ؟.. إننى ما زلت أذكر حوادثها الهامة إلى القدر الذى تعلمته على منها .

نعم ، أذكر أن البطل قد اختفى عن العيان ، فلم يسمع عنه احد طيلة اعوام ثلاثة .. وأن البطلة قد تزوجت .. سوف أدق الجرس لأدعوها ، وستسر إذ تراني قادرا على الاستمتاع بحديث طلى .

وأتت مسز دين ، فبدأت تقول :

ـ ما زال باقيا على موعد الدواء عشرون دقيقة يا سيدى ..

ـ بعدا للدواء وسحقا !.. إنما أحب أن ..

ـ ولكن الطبيب يقول إنه يجب عليك أن تتناول هذه المساحيق ..

ـ من كل قلبى يا مسز دين .. ولكن لا تقاطعينى !.. تعالى واجلسى هنا ، وابعدى اصابعك عن هذه الشرذمة من القنانى والزجاجات ، واخرجى من جيبك معدات الحياكة . احسنت !.. والآن امضى قدما فى رواية قصة مستر هيثكليف من حيث وقفت ، إلى يومنا هذا . اترينه قد أتم دراسته فى أوروبا وعاد سيدا مهذبا ؟.. ام نال درجة من الجامعة ؟.. ام فر إلى امريكا واكتسب ثروته من سفك الدماء فى بلده الأصلى ؟.. ام لعله نالها من قطع الطريق بجبال إنجلترا ؟

ـ ربما كان قد مارس شيئا من ذلك كله يا مستر لوكوود ، ولكنى لا أستطيع الجزم بأيها كان مصدر ثرائه .. وقد قلت قبل ذلك إننى لا ادرى كيف جمع ثروته ، كذلك لست أدرى شيئا عن الوسائل التى ساعدت بها نقوده فى ترقية مداركه من ذلك الجهل الوحشى الذى كان مترديا فيه . ومهما يكن

من أمر فإنى أرجو أن تأذن لى بمتابعة القصة على طريقتى ، إذا رأيت أنها سوف تسليك ولا تثقل عليك .. وبهذه المناسبة ، هل تشعر اليوم بأنك أحسن حالا ؟

ـ كثيرا ..

ـ هذه أنباء سارة ..

واتخذت مسز دين مجلسها امامى ، ثم مضت تتابع قصتها :

« صحبت مسز كاثرين إلى (ثرشكروس جرانج) ، وكم شعرت بارتياح ورضى لما اصبت به من خيبة امل ، إذ رأيتها تسلك مسلكا رائعا ، خيرا بكثير مما كنت اتوقع .. كانت تبدو مولعة أشد الولع بمستر لينتون ، كما كانت تحوط شقيقته بكل ضروب الود والانعطاف . وكانا كلاهما يعنيان اشد العناية بتوفير أسباب الراحة لها ورعايتها ، والبعد عن كل ما يعكر صفوها . لم تكن الشوكة هى التى تنحنى لتفسح الطريق امام زهور اللبلاب المتسلقة ، وإنما كانت الزهور هى التى تحتضن الشوكة وتعانقها وتدور من حولها !.. ولم تكن تنشأ بينها وبينهما مواقف فيها شد وإرخاء ، أو تسلط وإذعان ، وإنما كانت تقف مكانها منتصبة القامة . وكانا هما اللذان يخضعان ويلينان .. ومن ذا الذى يمكن أن يكون حاد الطبع سيىء الخلق متى كان لا يلقى معارضة أو استخفافا ؟.. ولقد لاحظت أن مستر لينتون كان ينطوى على خوف عميق من تكدير صفوها أو تعكير مزاجها .. وكان يخفى عنها شعوره هذا ، ولكنه ما أن يرانى أرد عليها فى حدة ، أو يرى أحدا

من الخدم الآخرين يظهر امتعاضا من صرامة أوامرها ، حتى يعلو وجهه تقطيب الاستياء ، وهو شيء ما كان يحدث له لو أن الأمر كان خاصا به . وكثيرا ما خاطبنى ، عابسا متجهما ، عن حدة لسانى وسلاطتى معها ، قائلا إن طعنات السكين ما كانت لتسبب له ألما أشد مما يقاسيه عندما يرى زوجته متكدرة او مغيظة .. وإذ كنت لا اريد أن اسيء إلى سيد كريم مثله ، فقد رضت نفسى على أن اكون أكثر تسامحا .. وهكذا ظللنا أكثر من ستة شهور والبارود ملقى مكانه كأنه رمل لا خطر فيه ولا ضرر منه ، إذ لم تكن ثمة نار تقترب منه لتشعله وتفجره . وكانت تعترى كاثرين ، بين آن وآخر ، فترات من الكآبة والصمت ، فكان زوجها يحترمها فى عطف صامت ، ويعزو ذلك إلى التغيير الذى أحدثه فى كيانها ذلك المرض الخطير الذى أصابها ، إذ لم تكن قط قبله عرضة لمثل هذا الانقباض والكآبة .. وكان انبثاق الفجر وإشراق الشمس من جديد يقابلهما إشراق واستجابة من ناحيته .. واحسب أن بوسعى أن أؤكد أنهما كانا يتقاسمان سعادة عميقة متزايدة ..

ثم انتهى كل شيء !.. حسنا !.. لابد لنا من أن تظهر حقيقتنا فى النهاية .. كما أن البسطاء الكرام لا يقلون انانية وأثرة عن المسيطرين المتسلطين . وقد انتهى كل شيء عندما سببت الأحداث لكل منهما أن يشعر بأن مصلحة احدهما ليست صاحبة المقام الأول فى تفكير الآخر وخواطره !.. ففى مساء يوم عليل الهواء من شهر سبتمبر ، كنت قادمة

من البستان احمل سلة ثقيلة ملأى بثمار التفاح التى جنيتها . وكان الليل قد ارخى سدوله ، والقمر يطل من فوق سور الفناء فيرسل أشباحا غامضة تتراقص فى جنبات المبنى المتعددة . ووضعت حملى على درجات السلم بجانب باب المطبخ الخلفى ، ثم تمهلت لألتقط انفاسى اللاهثة ، واستنشق الهواء العليل الرقراق ، وقد استقبلت القمر بوجهى وأدرت ظهرى ناحية المطبخ ، وإذا بى اسمع صوتا يقول من خلفى :

ـ أهذه انت يا نللى ؟

كان صوتا عميقا ، فى نبراته لكنة غريبة ، ومع ذلك كان فى الطريقة التى نطق بها باسمى شيء جعله يبدو مألوفا لى .. فاستدرت مجفلة لأرى المتكلم ، وقد غمرنى الخوف ، إذ كانت الابواب مغلقة ، ولم أكن قد لمحت أحدا عند اقترابى من الدار .. وإذا بشيء يتحرك فى الظلام عند ركن الباب . فاستطعت ان أتبين رجلا طويل القامة يرتدى ثيابا قاتمة . اسمر الوجه أسود الشعر . واقترب المجهول فاستند إلى الجدار بجوار الباب ومد يده يتحسس الرتاج بأصابعه كأنما يهم بفتح الباب بنفسه ، فقلت فى نفسى : « ترى من يكون ؟ مستر ايرنشو ؟ ولكن لا .. فهذا الصوت لا يشبه صوته » .

واستطرد الغريب يقول ، بينما كنت لا ازال احملق فيه مدهوشة :

ـ لقد انتظرت هنا ساعة كاملة ، كان السكون يرين فوق المكان خلالها ، أشبه بصمت القبور ، فلم أجرؤ على الدخول . ولكن ألم تعرفينى ؟.. انظرى . إننى لست غريبا عنك !



فاسـتطعت أن أتبين رجلا طويـل القـامة يرتـدى ثيابـا قاتمـة ، اسمر الوجه أسود الشعر .

ومال إلى الأمام فسقط شعاع فوق وجهه ، ورايت وجنتين غائرتين تغطى معظمهما سوالف من الشعر الحالك السواد ، كما رايت حاجبين كثيفين ، وعينين عميقتين يشع منهما بريق عجيب . وعندئذ ذكرت العينين ، فلم أدر هل صاحبهما شبح من الأشباح يتراءى لى ، أم إنسان من أهل الدنيا ، ورفعت يدى فى دهشة ، هاتفة :

ــ ماذا ؟ .. هل عدت ثانية ؟ .. أهذا أنت حقا ؟

فأجابنى وهو يرفع بصره منى إلى النـوافذ التى كانت تعكس آلافا من أشعة القمر المتكسرة دون أن يبدو ضـوء بداخلها :

ــ نعم .. هيثكليف !.. ولكن أما من أحد منهم هنا ؟.. أين هى ؟.. إنك لا تبدين مسرورة لرؤيتى يا نللى !.. ولكن لا حاجة بك لهذا الاضطراب .. أهى هنا ؟ تكلمى .. فإنى أريد أن أقول كلمـة واحدة لهـا .. لسيدتك .. اذهبى واخبريها أن شخصا من (جيمرتون) يرغب فى أن يراها !

فهتفت قائلة : « وكيف تتلقى النبأ ؟.. وماذا تراها فاعلة ؟ .. إن هذه المفاجاة تحيرنى وتشل حواسى ، فسـوف يطير صـوابها . وأنت هيثكليف بعينك ، ولكنك تغيرت كثيرا . كلا ، لست أفهم ما حل بك ، فهل كنت فى الجندية ؟ »

فقاطعنى فى صبر نافذ ، قائلا :

ــ اذهبى وبلغى رسالتى ، فإنى على أحر من الجمر حتى تفعلى !

ثم مد يده ورفع المزلاج ، فدخلت إلى المنزل .. ولكنى ما كدت أشرف على حجرة الجلوس ، حيث كان يجلس مستر ومسز لينتون ، حتى لم أجد فى نفسى ميلا إلى التقدم خطوة اخرى . واخيرا عزمت على ان أتعلل بسؤالهما عما إذا كانا يرغبان فى إضاءة الشموع ، وعندئذ فتحت الباب ..

كانا وقتئذ يجلسان معا إلى جوار نافذة عريضة مفتوحة على مصراعيها ، وقد انكشف امامهما ـ وراء أشجار الحديقة الباسقة وخضرة البستان المترامى الأطراف ـ وادى جيمرتون وقد جلله خط طويل من الضباب يتلوى معه حتى يوشك ان يصل إلى قمته (ولعلك لاحظت أنك لا تكاد تجتاز الكنيسة الصغيرة حتى يكون الماء الذى ينشع من المستنقعات قد اتصل بنهيرات صغيرة تجرى مع انحناءات الأخاديد المتعددة) .. وكانت (مرتفعات ويذرنج) تعلو فوق ذلك الضباب الفضى : ولكن منزلنا القديم لم يكن ظاهرا للعيان ، إذ انه ينحدر نحو الجانب الآخر من الجبل . وكانت الحجرة ، والجالسان فيها ، والمنظر الساحر الذى يتأملانه ، تسبح جميعا فى سلام عجيب ، حتى لقد احجمت ـ نافرة ـ عن اداء مهمتى ، وأوشكت أن اغادر المكان دون ان ابلغ رسالتى ، مكتفية بسؤالى عن إضاءة الشموع ، عندما دفعنى النزق إلى أن أعود ، قائلة :

ـ هنا شخص من جيمرتون يريد أن يتحدث إليك يا سيدتى ..

فقالت مسز لينتون : « ما الذى يريده ؟ »

فأجبت : « إننى لم أسأله .. » .

ـ حسنا . أسدلى الستائر يا نللى ، واحضرى لنا الشاى .. وسوف أعود فى الحال .

وغادرت الحجرة ، فسألنى مستر ادجار فى غير اكتراث عمن يكون هذا الشخص ، فقلت : « إنه شخص لا تتوقع سيدتى رؤيته .. فهو ذلك المدعو هيثكليف .. ولعلك تذكره يا سيدى فقد كان يعيش فى منزل مستر ايرنشو .. » .

فصاح فى حدة : « ماذا ؟ .. ذلك الغلام الغجرى الذى كان يعمل فى الحقل ؟.. ولماذا لم تقولى ذلك لكاثرين ؟ » .

ـ مهلا يا سيدى ، فما يجدر بك أن تنعته بهذه الصفات ، وإلا اضناها الأسى لسماعك .. فقد كاد قلبها يتحطم عندما رحل فجأة ، وأحسب أن عودته ستكون عيدا بالنسبة لها ..

فسار مستر لينتون إلى نافذة فى الناحية الأخرى من الحجرة تشرف على الفناء ، ففتحها وانحنى يطل منها .. واعتقد انه رآهما تحته ، إذ أسرع يهتف قائلا : « لا تقفى هنا يا حبيبتى ، بل أدخلى الشخص إذا كنت تعرفينه ! » .

وما هى إلا لحظة حتى سمعت صرير المزلاج ، ورأيت كاثرين ترقى الدرج فى عجلة شديدة ، مبهورة الأنفاس ، وقد استبد بها الانفعال بحيث كاد يخفى فرحتها .. ولست اعدو الحقيقة إذا قلت إنك لو رأيت وجهها وقتئذ لحسبت ان كارثة رهيبة قد حلت بها !

وأسرعت تطوق عنق زوجها وهى تقول لاهثة : « اوه

يا ادجار . يا حبيبى ادجار .. لقد عاد هيثكليف ! .. لقد عاد حقا ! » .

وراحت فى غمرة انفعالها تشدد الضغط حول عنق زوجها الذى صاح عابسا : « حسنا ، حسنا . ولكن لا تخنقينى لهذا السبب ! .. إنه لم يبد لى قط كنزا ثمينا إلى هذا القدر ، ولا حاجة بك إلى كل هذا الفرح الجنونى ! »

فخففت قليلا من غزارة فرحتها وقالت : « أعلم أنك ما أحببته قط ، ولكن يجب الآن أن تكونا صديقين ، من أجل خاطرى . هل أدعوه إلى الصعود ؟ »

ـ هنا ؟.. فى حجرة الجلوس ؟

ـ وأين إذن ؟

فلاح عليه الضيق والحرج ، وغمغم قائلا إن المطبخ هو أليق مكان به .. ولكن مسز لينتون رمقته بنظرة غريبة ، تحمل من الغضب مثلما تحمل من السخرية بتزمته ، وما لبثت أن استطردت تقول :

ـ كلا .. فلست استطيع الجلوس فى المطبخ ، ولكن اعدى مائدتين هنا يا نللى ، إحداهما لسيدك ومس ايزابيلا ، إذ هما من طبقة السراة والخاصة ، والأخرى لى ولهيثكليف ، فنحن من الطبقة الدنيا !.. ايرضيك هذا ياعزيزى ؟ .. أم تفضل أن نوقد مدفأة أخرى لنا ؟ إذا شئت ذلك فأرجو أن تصدر أمرك لتنفيذه !.. أما أنا فسوف أهرع لأحتفى بضيفى .. آه ! .. كم أخشى أن يكون سرورى من الغزارة بحيث لا يكون حقيقة واقعة !

وهمت بأن تندفع خارجة من الحجرة ، ولكن ادجار أمسك بها ، وقال لى : « اذهبى أنت فاطلبى إليه أن يصعد . وأنت يا كاثرين ، حاولى أن تكونى مسرورة دون أن يبلغ بك الأمر إلى حد السخف .. ولا حاجة بك لأن يشهد خدم الدار منظر حفاوتك بخادم هارب كأنه شقيق لك ! »

فنزلت ووجدت هيثكليف ينتظر عند الباب ، متوقعا دعوته إلى الدخول .. وتبعنى دون أن يضيع وقته فى المزيد من الكلام ، حتى قدته إلى حضرة السيد والسيدة ، التى كان تورد وجنتيها ينم عما سمعته من قوارص الكلم .. ولكن وجنتى السيدة توهجتا تحت تأثير شعور آخر عندما ظهر صديقها عند الباب، ووثبت من مكانها متقدمة نحوه ، فتناولت كلتا يديه ، وقادته إلى حيث كان يقف زوجها ، ثم امسكت باصابع مستر لينتون المترددة الناكصة ، ودفعتها إلى يد هيثكليف . وقد ذهلت عندما سقط ضوء الشموع ووهج النار على وجه هيثكليف وقوامه فكشف عن مدى التغير الذى حل به . كان قد أصبح رجلا فارع الطول رياضيا ممشوق القوام ، بحيث كان سيدى يبدو بجانبه هزيلا أشبه بالغلمان ! .. وكان اعتدال قامته يوحى بأنه كان فى الجيش . أما أساريره فقد اكتست طابعا من الصرامة والجد جعله يبدو اكبر سنا من مستر لينتون ، ولكن محياه كان ينم عن ذكاء وفطنة ، وقد خلا من سمة المهانة التى كانت بادية عليه فيما مضى .. وكانت تكمن فى حاجبيه الكثيفين المنقبضين ، وفى عينيه المليئتين بنيران متقدة ، ضراوة نصف متحضرة ، كان

يجهد فى قمعها وكبح جماحها . وكان مسلكه مهذبا فى وقار ، خلوا من اية خشونة او جلافة ، وإن كان من الصرامة بحيث لا يعد لطيف الشمائل رقيق الحاشية ..

وكانت دهشة سيدى تضارع دهشتى إن لم تزد عليها ، فلبث برهة حائرا لا يدرى كيف يوجه الخطاب إلى « عامل الحقل الأجير » كما كان يدعوه ! .. اما هيثكليف فقد أرخى ذراعه ، ووقف ينظر إليه فى برود ، حتى نطق السيد اخيرا فقال :

ـ اجلس ياسيدى ، فان مسز لينتون ـ وقد ذكرت الأيام الماضية ـ قد رغبت إلى أن استقبلك استقبالا وديا .. ولاشك أن من بواعث سرورى ان اقوم بكل ما يجلب إليها السرور والبهجة ..

ـ كذلك انا ، خصوصا إذا كان لى نصيب من اسباب هذا السرور ، ولهذا سوف أبقى معكما ساعة او اثنتين عن طيب خاطر ..

واتخذ له مجلسا فى مواجهة كاثرين التى ظلت نظراتها معلقة به كأنما تخشى أن يتلاشى من أمامها إن هى حولتها عنه ! .. أما هو فلم يكن يرفع انظاره إليها إلا لماما ، قانعا بالنظرة العجلى يصوبها نحوها بين آن وآخر ، فترتد فى كل مرة فى جراة متزايدة ، وهى تومض بذلك السرور السافر الذى ينهله من عينيها .. وكانا من الاستغراق فى فرحتهما المتبادلة بحيث لم يحسا حرجا أو ارتباكا . ولكن ذلك لم يكن شأن مستر ادجار ، فقد إزداد وجهه امتقاعا من فرط غضبه حتى

بلغ هذا الشعور ذروته عندما نهضت زوجته ومشت إلى حيث كان هيثكليف جالسا عند الطرف الآخر للسجادة ، فامسكت بيديه من جديد وراحت تضحك بغير وعى كشخص ذهب السرور بلبه ! .. واخيرا هتفت تقول :

ـ سوف يبدو لى ذلك حلما من الأحلام فى الغد ! .. لن يكون فى استطاعتى أن أصدق اننى رأيتك ، ولمستك بيدى ، وخاطبتك مرة اخرى .. ومع ذلك فما أقساك ياهيثكليف ! .. إنك لا تستحق هذا الترحيب ، بعد أن ظللت غائبا ثلاث سنوات لزمت فيها الصمت ولم تفكر فى قط !

فغمغم يقول :

ـ لقد فكرت فيك اكثر قليلا مما فكرت أنت فى ياكاثى .. وقد سمعت بزواجك منذ قريب ، وبينما كنت واقفا انتظر فى الفناء ، دبرت فى راسى هذه الخطة : ان اتزود من وجهك بنظرة واحدة ، قد تكون نظرة دهشة ، وقد تكون نظرة سرور مصطنع ، وامضى بعد ذلك لأسوى حسابى مع هندلى ، ثم أقضى على نفسى فاوفر على الحكومة مشقة إعدامى ! .. بيد ان ترحيبك بى قد طرد هذه الأفكار من راسى ، ولكن حذار من ان تلاقينى على صورة اخرى فى المرة القادمة !.. كلا ، إنك لن تدفعينى إلى الفرار ثانية . احقا كنت حزينة من أجلى ياكاثى ؟ .. لقد كنت على حق فيما فعلت ، بل اضطررت إليه اضطرارا . ولقد عانيت الكثير من قسوة الحياة ومرارتها منذ أن سمعت صوتك آخر مرة . ولكن يجب أن تصفحى عنى ، فما ناضلت وكافحت إلا من اجلك !

فقاطعهما لينتون وهو يجاهد فى الاحتفاظ بنبراته العادية ، وبقدر من الأدب ، قائلا :

ــ تعالى إلى المائدة يا كاثرين ، إلا إذا كنت تنوين تنــاول الشاى باردا . تعالى من فضلك ، فان أمام مستر هيثكليف شقة طويلة يمشيها أينما كان يزمع المبيت الليلة .. ثم إننى أحس بالظمأ ..

فاتخذت مجلسها أمام آنية الشــاى ، بينما أقبلت مس ايزابيلا تلبية للجرس الذى يدعو إلى الطعام أو الشاى . وإذ انتهت مهمتى بتقريب مقاعدهم إلى المائدة ، غادرت الحجرة وانصرفت لشانى . ولــكن تناول الشــاى لم يستغرق عشر دقائق ، فإن كاثرين لم تملأ قدحهــا قط ، إذ كانت فى حــالة لاتستطيع معها أن تبتلع طعاما أو شرابا .. أما مستر ادجار فقد انسكب منه الشاى فى الطبق ، ولم يأخذ من قدحه أكثر من جرعة أو اثنتين !

ولم يطل الضيف مقامه فى تلك الأمسية أكثر من ساعة ، وفيما كنت أودعه سألته إن كان ذاهبا إلى « جيمرتون »، فقال :

ــ كلا .. بل إلى « مرتفعات ويذرنج » ، فقد دعانى مستر ايرنشو للمبيت عندما زرته هذا الصباح !

وكان لهذه العبارة طنين فى راسى ، ورحت افكر فيها بعد ذهابه ، بين مصدقة ومكذبة .. اهو يزور مستر ايرنشو ؟ .. ومستر ايرنشو يدعوه للمبيت ؟ .. اتراه قد تعلم النفــاق واتى إلى هذه المنطقة ليرتــكب شروره مســتترا بمســوح

الرهبان ؟ .. اخذت أمعن التفكير فى الأمر . فأحسست فى أعماق قلبى بهاجس يحدثنى انه كان من الخير أن يظل بعيدا عنا ، ولا يعود إلينا ..

وزهاء منتصف الليــل ، أفقت مذعورة من نوم البــداءة العميق ، فاذا مســز لينتون تجلس بجــانب فراشى وهى تجذبنى من شــعرى لتوقظنى .. فما أن فتحت عينى حتى قالت فيما يشبه الاعتذار :

ــ لم اذق للنوم أو الراحة طعما يا نللى .. وشد ما أحس بالحاجة إلى كائن حى يسهر معى ويشاركنى ســعادتى !.. ولكن ادجار شديد التجهم والعبوس لأننى فرحة بشىء لا يهمه ولا يبالى به .. فهو يرفض أن يفتح فمه إلا ليبدى تبرمه ، وليسمعنى كلاما سخيفا .. وقد اكد لى أننى قاسية انانية إذ ازعجه بالحديث فى وقت يحس فيه بالتوعك والنعاس .. فهو دائما يدعى التوعك عند أقل معارضة .. وقد تفوهت ببضع عبــارات فى مدح هيثكليف ، فأخــذ فى الصياح ، إما من الصداع ، كما يزعم ، أو من الم الغيرة ، وما لبث أن بدأ فى البكاء ، فنهضت من الفراش وتركته ..

ــ واية جدوى من امتداحك هيثكليف أمامه ؟ .. لقد كانا يتبادلان الكراهية وهما فتيان يافعان .. ولعل هيثكليف كان خليقا بأن يثور مثله لو سمعك تطرينه أمامه .. إنها طبيعة البشر يا سيدتى ، فدعى مستر لينتون وشأنه ، ولا تشركيه فى أحاسيسك ، إلا إذا رغبت فى أن ينشب بينهمــا عــراك سافر ونزاع قتال ..

فمضت تتابع القول :

ـ ولكن ألا ترين ذلك دليلا على ضعف شديد ؟ .. إننى لا أضمر لأحد غيرة أو حسدا .. فما تأذيت قط من شعر ايزابيلا الذهبى الوضاء ، ولا من بشرتها الناصعة البياض ، ولا من اناقتها الدقيقة المترفة ، ولا من ذلك الحب الذى تظهره العائلة كلها نحوها .. حتى انت يا نللى ، فانك ما ان ينشب نزاع بيننا حتى تقفى فى صفها ضدى ، فاستسلم كأية ام بلهاء .. إننى ادعوها حبيبتى ، واتملقها حتى ترضى ويصفو مزاجها .. وكم يسر أخوها عندما يرانا متصافيتين يجمع الود بيننا .. وذلك يسرنى بالمثل .. ولكنهما صنوان يا نللى! .. فقد ربيا على التدليل ، ويخالان ان العالم إنما خلق لمرضاتهما وراحتهما .. وعلى الرغم من اننى اعمل دائما على ملاطفتهما ، إلا اننى أعتقد أن بعض العقاب قد يصلح من أمرهما !

ـ إنك مخطئة فى ذلك يا مسز لينتون ! .. فهما اللذان يلاطفانك ويدللانك ، ولست أجهل ماذا كان خليقا بأن يحدث إذا لم يفعلا ذلك .. إن فى وسعك أن تتسامحى فى شأن أهوائهما العابرة ، طالما كان شغلهما الشاغل أن يبادرا إلى تلبية كل رغباتك وطلباتك !.. ومع ذلك فقد ينشب بينكما الشجار أخيرا ، بصدد أمر ذى اهمية متساوية لكما ، وعندئذ سوف ترين أن هذين اللذين تظنينهما ضعيفين قد يغدوان اشد منك عنادا وأصلب عودا ومراسا ..

فتضاحكت وهى تجيب : « وعندئذ سوف يحارب بعضنا

بعضا حتى الموت يا نللى ، أليس كذلك ؟ .. كلا .. صدقينى إننى شديدة الإيمان بحب لينتون لى ، بحيث أننى لو هممت بقتله لما فكر فى الثأر او الانتقام .. » .

فنصحتها بأن تزداد له تقديرا من اجل حبه لها ، فأجابت :

ـ هذا ما افعله يا نللى .. ولكنه من جانبه ليس فى حاجة إلى أن يعمد إلى الأنين والنواح من اقل شىء وأتفهه .. أليس ذلك صغارا منه ؟ . لقد كان الأخلق به ، بدلا من إراقة دموعه لأننى قلت أن هيثكليف أصبح الآن جديرا بالتقدير والاحترام، وأن أى سيد فى الاقليم سوف يشرفه أن يتخذ منه صديقا ، كان الأخلق به أن يبادرنى هو بهذا القول ، وأن يبدى سروره وانعطافه نحوه .. ويجب أن يعتاد رؤيته ، بل خليق به أن يميل إليه ! .. فلو قدرنا الأسباب التى تدفع هيثكليف إلى كراهيته لرايناه قد سلك مسلكا ممتازا معه ..

فسألتها : « ما الذى ترينه فى ذهابه إلى « مرتفعات ويذرنج » ؟ .. الظاهر انه قد تغير تماما من شتى النواحى ، واصبح تقيا يمد يد الصداقة إلى اعدائه فى كل مكان ! »

ـ لقد شرح لى الأمر ، إذ عجبت لمسلكه مثلما عجبت .. قال إنه ذهب إلى هناك ليستعلم منك عن اخبارى ، ظنا منه انك مازلت تقيمين هناك ..وقد أخبر جوزيف هندلى بمقدمه، فخرج اخى وراح يسأله عما كان يفعله كل هذا الوقت . وكيف كان يعيش ، ثم دعاه أخيرا إلى الدخول .. وكان بعض الأشخاص جالسين حول أحدى الموائد يلعبون الورق ، فانضم إليهم هيثكليف ، وربح بعض النقود التى خسرها أخى .. فما

كاد يراه عامر الجيب بالمال حتى رجاه فى أن يعود فى المساء ثانية ، فلم يملك إلا ان يلبى هذه الدعوة !.. إن هندلى من الغفلة بحيث لا يعنى باختيار أصدقائه فى حكمة وتعقل .. كما انه لايشغل فكره بالتفكير فى الأسباب التى قد تدفعه إلى التوجس من شخص سبق أن جرعه كأس الهوان مترعة .. ولكن هيثكليف يؤكد أن السبب الرئيسى لرغبته فى إعادة العلاقات مع غريمه السابق إنما هو رغبته فى ان يقيم على قيد خطوات من « الجرانج » ، فضلا عن تعلقه بالدار التى نشأنا فيها معا ، وأمله فى أن يتاح لى المزيد من الفرص لرؤيته أكثر مما لو اتخذ من « جيمرتون » مقاما .. وفى نيته أن يعرض على أخى أجرا عاليا نظير السماح له بالإقامة فى « مرتفعات » ، ولا ريب أن جشع أخى وحبه للمال سوف يدفعانه إلى قبول هذا العرض .. لقد كان شرها دائما ، ولو أنه يطرح بإحدى يديه ما يجنيه باليد الأخرى .

فقلت : « ما أحلاه مكانا يختاره شاب لإقامته !.. ولكن ألا يخالجك الخوف من العواقب يا مسز لينتون ؟ » .

ـ لست أخاف على صديقى شيئا ، فان له من حصافة الرأى ما يقيه الأخطار .. كما أن خوفى على هندلى قليل ، فإن انحطاطه الأدبى لم يبق موضعا لزيادة المستزيد ، ولن يتهدده خطر بدنى لأننى سأقف حائلة دونه .. آه يا نللى!.. إن ماحدث الليلة قد قرب مابينى وبين الله والإنسانية جميعا .. فقد كنت فى ثورة عارمة ضد العناية الإلهية .. وكم عانيت من ضروب الشقاء والبؤس المرير ما لو عرف هذا المخلوق مبلغ

مرارته لما فكر فى تعكير صفوى بعد ذلك بنزقه ومشاكساته الفارغة .. وقد احتملت كل هذا الشقاء وحدى بدافع من الشفقة عليه ، فلو اننى أفصحت عن ألوان العذاب التى هدت كيانى لعرف كيف يتوق إلى تلطيفها بنفس الحرارة واللهفة التى كنت اتوق بها إليه .. ومهما يكن من امر فقد انقضى ذلك الآن ، ولن أعمد إلى الانتقام من حماقته .. وفى وسعى أن احتمل كل شىء بعد ذلك ، فلو صفعنى اقل مخلوق على قيد الحياة على خدى ، لما اكتفيت بأن أدير الخد الآخر ، بل لسألته الصفح عن إثارتى إياه واستفزازى له حتى صفعنى!! .. وبرهانا على ذلك سوف اذهب إلى ادجار من فورى فأصالحه واسترضيه .. طابت ليلتك يانللى .. لقد انقلبت ملاكا رحيما !

وغادرتنى منشرحة الصدر لهذا الإيمان الجديد الذى سكن نفسها ، فظهرت ثمرة نجاحها فى تنفيذ ما اعتزمته على محيا مستر لينتون فى الصباح !.. فلم تفارقه جهامته وعبوسه فحسب ، (ولو أن حالته النفسية المرحة كانت تبدو كأنها مازالت متأثرة بفرحة كاثرين الغزيرة) ، بل لقد ذهب إلى حد عدم الاعتراض على اصطحابها ايزابيلا معها إلى « مرتفعات ويذرنج » بعد الظهر .. ولقد جازته على ذلك بفيض من الرقة والحب ، جعل المنزل كله يبدو كجنة الفردوس عدة أيام متتالية ، وقد نعم السيد والخدم بهذا الإشراق الدائم الجميل ..

اما هيثكليف ـ او مستر هيثكليف كما ينبغى أن أقول فى

المستقبل ـ فقد أخذ يستخدم حريته فى زيارة « ثرشكروس جرانج » ، فى حذر وحرص بادىء الأمر .. كان يبدو انه يقدر إلى أى مدى يحتمل سيد الدار تطفله .. كما رأت كاثرين من الحكمة ان تخفف من مظاهر سرورها بلقائه .. وهكذا أنشأ لنفسه حقا فى أن تكون زياراته متوقعة دائما .. وكان ما يزال على جانب كبير من ذلك التحفظ الذى كان يتميز به وهو بعد غلام يافع ، وقد أفاده ذلك فى كبح جماح مشاعره واحاسيسه حتى لا تندفع فى مظاهرة قد تثير المتاعب .. وهكذا هجع قلق السيد وتوجسه حتى بدات الأحداث التالية توجه هذا القلق إلى وجهة اخرى بعض الوقت ..

كان مصدر متاعبه الجديدة ينبثق من الكارثة الداهمة غير المتوقعة التى حاقت بايزابيلا لينتون إذ انتابها ميل جارف مفاجىء نحو ذلك الضيف الثقيل .. وكانت فى ذلك الحين شابه جميلة ساحرة فى الثامنة عشرة من عمرها ، يتميز خلقها ببساطة الطفولة ، وإن كانت مع ذلك حادة الذكاء ، مرهفة الحس ، سريعة الغضب إذا استثيرت .. ولقد ارتاع اخوها ـ الذى كان شديد الحب لها ـ وفزع لهذا الولع الجنونى الخيالى .. فبغض النظر عن المهانة التى تحيق بهم من مصاهرة رجل لا اسم له ولا عائلة ، وعن احتمال انتقال املاك الأسرة ـ إذا لم ينجب وريثا ذكرا ـ إلى يد مثل هذا الرجل ، فقد كان من الحصافة بحيث يدرك حقيقة هيثكليف ، ويعلم أنه برغم التغيير الذى حل بمظهره ، فان عقليته لم تتغير ولن تكون قابلة للتغيير .. وكان يخاف هذه العقلية ويتوجس

منها شرا ويثور لها .. وهكذا فزع وتشاءم من فكرة زواجه من ايزابيلا ، ولعل فزعه ونفوره كانا يزدادان شدة لو أنه ادرك ان غرام ايزابيلا كان من ناحيتها وحدها ، دون استثارة أو إغراء ، وإنها وهبته لمن لا يبادلها عاطفتها أو يستجيب لأحاسيسها .. فانه منذ ان اكتشف هذا السر الرهيب ، القى باللوم كله على عاتق هيثكليف واعتقد انه رسم هذه الخطة ودبرها تدبيرا ..

وكنا جميعا قد لاحظنا وقتا ما أن مس لينتون قد غدت ضيقة الصدر ، ينهشها القلق والاضطراب ، لسبب لا نعرفه، وانها أصبحت كثيرة التبرم والعبوس ، لاتفتأ تتصيد الفرص للاحتكاك بكاثرين وإثارتها كأنما تريد أن تستفزها حتى تخرجها عن طورها وعن صبرها المحدود .. وقد تلمسنا لها العذر ـ إلى حد ما ـ وتعللنا بسوء صحتها ، إذ كانت تزداد نحولا ويخبو ضياؤها أمام اعيننا ، إلى ان حدث ذات يوم ، كانت فيه شديدة المشاكسة إلى حد غريب ، أن رفضت تناول إفطارها ، واخذت تشكو من أن الخدم لا يطيعون أوامرها ، وأن السيدة لا تريد أن تجعل منها شيئا مذكورا فى المنزل ، وأن ادجار يهمل شأنها ، وانها أصيبت ببرد من ترك الأبواب مفتوحة ، واننا ندع نيران المدفأة فى حجرة الجلوس تخبو متعمدين إغاظتها ، إلى غير ذلك من مئات التهم الواهية التافهة .. فأصرت مسز لينتون على أن تجعلها تأوى إلى فراشها ، وراحت تعنفها فى رفق ولين ، ثم هددتها بأن ترسل فى طلب الطبيب .. فما كادت تسمع اسم كينيث حتى ثارت ،

وصرحت بأن صحتها على خير حال ، وأن سبب شقائها هو ما تلقاه من خشونة كاثرين وفظاظتها ..

فصاحت السيدة وقد أذهلها هذا الاتهام غير المعقول :

ـ كيف تزعمين أننى خشنة معك أيتها الخبيثة المدللة ؟.. لاريب انك قد جننت.. الا خبرينى متى كنت خشنة معك ؟..

فتأوهت ايزابيلا وقالت : « بالأمس .. والآن ! »

ـ بالأمس ؟ .. فى أية مناسبة ؟

ـ عندما كنا نسير فى البرارى ، فقد طلبت منى أن اتجول حيثما اشاء ، بينما كنت تسيرين الهوينى مع مستر هيثكليف ..

فضحكت كاثرين ، وقالت : « هل هذا ما تعنينه بخشونتى وفظاظتى ؟ .. لم يكن ذلك تلميحا إلى ان وجودك غير مرغوب فيه ، فنحن لا يهمنا البتة بقيت معنا ام فارقتنا .. وإنما ظننت أن حديث هيثكليف لن يكون جميل الوقع فى اذنيك .. »

فبكت الآنسة الشابة ، وغمغمت تقول : آه .. كلا .. كلا .. إنما قصدت إبعادى لعلمك اننى أحب أن اكون معكما .. » .

فقالت مسز لينتون وهى تنظر إلى مستنجدة : « اهى فى تمام عقلها ؟ .. سوف اعيد عليك ما تبادلنا من حديث ، كلمة فكلمة ، وعليك يا ايزابيلا أن تربنى اى شىء فيه يثير اهتمامك أو يبهجك .. »

ـ إن الحديث لا يهمنى ، وإنما أردت أن أكون مع ..

وترددت قليلا ، فقالت كاثرين تستحثها : « حسنا .. مع من ؟ »

ـ معه .. ثم إننى لا احب أن انحى عن الطريق دائما .

واستطردت تقول بعد لحظة وهى تزيد النار اضطراما :

ـ إنك انانية يا كاثى ، تريدين أن تستأثرى بكل شىء فلا تدعى لأحد منه نصيبا ، ولا تودين أن ترى احدا محبوبا سواك !

فصاحت مسز لينتون ، وقد غلبت دهشتها على غضبها :

ـ يالك من قردة صغيرة سليطة اللسان ! .. ولكنى لا اصدق انك على هذا القدر من البلاهة !.. فمن المحال أن تشتهى إعجاب هيثكليف وتلتمسيه ، وأن تحسبيه شخصا لطيفا مرموقا .. لعلنى اسأت فهم ما تعنين يا ايزابيلا ؟

فقالت الفتاة المفتونة : « كلا .. انك لم تسيئى الفهم .. فانى احبه اكثر مما احببت انت ادجار يوما من الأيام .. وعساه كان خليقا بأن يحبنى لو انك تركته وشأنه .. »

فقالت كاثرين وهى تؤكد كل كلمة تنطق بها ، وقد تبدت فى لهجتها الحرارة والاخلاص :

ـ إننى لا اغبطك على موقفك هذا ، ولا ارضى أن اكون مكانك ولو قدم لى عرش مملكة بأسرها .. الا ساعدينى يا نللى فى إقناعها بجنون ما تذهب إليه .. قولى لها ما هو هيثكليف .. إنه كالأرض البور التى لم تستصلح ، ومخلوق لا تهذيب لديه ولا علم ولا ثقافة .. والأولى لى أن اضع هذا العصفور الصغير فى العراء يوما من أيام الشتاء القارسة ، من أن انصح لك بأن تهبيه قلبك .. وان جهلك المحزن بأخلاقه وطباعه يا طفلتى ـ

لا أى شىء آخر ـ هو الذى يجعل هذا الحلم يملأ رأسك .. ولكن مهلا !.. لا تخالى أنه يخفى فى أعماقه فيضا من الحنان والعاطفة خلف هذا المظهر الصارم العبوس !.. لا تحسبى انه قطعة من الماس الخام ، أو لؤلؤة ثمينة تكمن بين شقى محارة خشنة المظهر .. لا .. إنما هو ذئب ضار خلو من الرحمة والشفقة ، فى ثياب رجل من البشر !.. ولست اقول له : « دع هذا العدو او ذاك فى سلام لانه ليس من الشهامة ان تقسو عليه او تؤذيه » .. وإنما اقول له آمرة : « دعه فى سلام لاننى اكره ان يناله منك سوء » .. وإنه لحرى بأن يهشمك يا ايزابيلا كبيضة العصفور إذا ما وجدك حملا متعبا يبهظ كاهله .. إننى اعلم حق العلم انه لا يمكن ان يحب أحدا من آل لينتون ، ومع ذلك فهو خليق بأن يتزوج من ثروتك الحاضرة والمستقبلة !.. فان شرهه للمال ينمو معه حتى اصبح خطيئته الكبرى .. هذه صورته كما اراها وارسمها لك .. وانا مع ذلك صديقته ، وربما كنت حرية ، لو انه فكر جديا فى الإيقاع بك ، بأن امسك لسانى وأدعك تسقطين فى شراكه ..

فنظرت مس لينتون إلى زوجة شقيقها فى سخط وازدراء، وقالت :

ـ يا للعار !.. يا للعار !.. إنك لأسوأ من عشرين عدوا ، ايتها الصديقة الأفعى !..

ـ آه .. إنك لاتريدين أن تصدقينى إذن ؟ .. اتظنين اننى اقول ذلك بوحى من الأنانية الشريرة ؟ ..

ـ إننى واثقة من ذلك .. وإننى لأرتجف فزعا منك !..

فصاحت الاخرى : « حسنا .. فلتجربى بنفسك إذن !.. لقد قمت بواجبى ، وساضع حدا لهذا الجدل أمام قحتك وسوء أدبك .. »

وبينما كانت مسز لينتون تغادر الحجرة ، أخذت الفتاة تنشج بالبكاء ، وتقول :

ـ كأننى يجب ان اتألم واقاسى من اجل انانيتها واثرتها !.. لقد اصبح كل شىء ضدى .. كل شىء .. فقد قضت على عزائى الوحيد ، ودمرته تدميرا .. ولكنها كانت تنطق بالاكاذيب ، أليس كذلك ؟.. إن مستر هيثكليف ليس شيطانا كما تصوره .. إن له روحا طاهرة شريفة ، وإلا فكيف ذكرها وعاد ليراها ؟

فقلت :

ـ ابعديه عن فكرك يا آنستى .. انه طير مشئوم الطالع ، لا يصلح قرينا لك .. لقد كانت مسز لينتون عنيفة فى كلامها ، ومع ذلك فإنى لا استطيع مخالفتها فيما قالته .. فهى أدرى بقلبه منى ومن اى امرىء غيرى ، وما كانت لتصوره بأسوأ مما هو عليه حقا !.. فان الأشراف الأمناء لا يخفون فعالهم .. وإلا فخبرينى بربك كيف كان يعيش هذه السنين ؟ .. وكيف اصبح ذا مال وثراء ؟ .. ولماذا يقيم فى « مرتفعات ويذرنج » ، فى منزل رجل يبغضه وينفر منه ؟.. إنهم يقولون إن مستر ايرنشو يسير من سيىء إلى أسوأ منذ مقدمه .. وهما يقطعان الليل كله جالسين معا دائما ، وأخذ هندلى يقترض منه

بضمان أرضه وأملاكه ، وأصبح لا يفعل شيئا سوى أن يشرب ويقامر .. لقد سمعت ذلك منذ أسبوع فحسب ، وجوزيف هـو الذى أخبرنى عند ما قابلته فى جيمرتون .. قال : « لا تدهشى يانللى إذا سمعت أن بيتنا قد غدا مسرحا لتحقيقات النيابة ، لأن بعضهم سوف تقطع اصابعه إذا حاول أن يمنع الآخرين من سلخه كالعجل الذبيح !.. وذلك هو السيد كما تعلمين !.. أما فتاك الطيب هيثكليف ، فياله من شخص نادر المثال .. انه يطلق الضحكة المدوية لدى اول إشـارة من الشيطان ، وما أكثر إشاراته ! .. الم يقل لكم شيئا عن حياته الناعمة بيننا عند ما يذهب لزيارتكم فى « الجرانج » ؟ .. هذا برنامجه عندنا .. يستيقظ عند الغروب .. ثم النرد والخمر ، والنوافذ الموصدة ، والشموع المضاءة ، حتى ظهر اليوم التالى .. ثم يحمل السيد إلى حجرته وهو يسب ويلعن بألفاظ تجعل الناس المهذبين ـ مثلى ـ يضعون اصابعهم فى آذانهم من العار والخجل !.. واما الخبيث فانه يملأ جيوبه ، وياكل وينام ، ثم يمضى إلى منزل جاره ليثرثر مع زوجته .. ولا ريب انه قال للسيدة كاثرين كيف يجرى ذهب ابيها إلى جيوبه ، وكيف يجرى ابن ابيها فى طريق الدمار الواسعة ، بينما يسبقه هو ليفتح له ابواب الجحيم .. » واعلمى يا مس لينتون أن جوزيف وإن كان وغدا عريقا إلا انه ليس كاذبا !.. فاذا كان مايرويه من افعال هيثكليف صحيحا ، فما احسبك تودين مثل هذا الزوج لنفسك ، اليس كذلك ؟..

ـ إنك ضالعة فى التآمر ضدى مع الآخرين يا ايلين ! ..

ولن اصغى إلى ترهاتكم ومفترياتكم قط .. اى حقد واية ضغينة تلك التى تدفعك إلى محاولة إقناعى بأنه لا توجد اية سعادة فى هذا العالم ؟! .

وليس فى وسعى أن أقرر هل كانت الفتـاة ستتغلب على تلك النزوة لو انهـا تركت وشأنها ، أم انها كانت ستتعهدها وتربيها إلى الأبد ، فان الوقت لم يمهلها ريثما تمعن التفكير فى الأمر .. ففى اليوم التالى عقدت جلسة المحكمة فى المـدينة المجاورة ، واضطر سيدى إلى حضورها .. فما أن علم مستر هيثكليف بغيابه ، حتى حضر للزيارة مبكرا عن موعده المعتاد .. وكانت كاثرين وايزابيلا جالستين فى المكتبة ، صامتتين ، وقد حل بينهما الجفاء محل الصفاء .. كانت الأخيرة شديدة الاضطراب لما بدر منها من إفشاء سرها والكشف عن أحاسيسها الدفينة فى نوبة عارضة من الاندفاع العاطفى .. وأما الأولى فانها ، بعد إمعان التفكير فى الأمر ، ازدادت شعورا بعمق الإساءة التى نالتها من رفيقتها .. وإذا كانت ما تزال تضحك من قحتها وسلاطة لسانها ، فإنما ازدادت ميـلا إلى أن تجعل الأمر بالنسبة لايزابيلا أبعد مايكون عن الضحك !.. وقـد ضحكت فعلا عندما رأت هيثكليف يمـر أمـام النافذة ، فقد كنت وقتئذ أنظف المـدفاة ، فلمحت على شفتيها ابتسـامة خبيثة .. وكانت ايزابيلا مستغرقة فى تأملاتها ، متظاهرة بالقراءة ، فلم تنتبه لمقدمه ، وظلت فى مكانها حتى فتح الباب .. وكانت الفرصة قد ضاعت لمحاولة الفرار من الحجرة ، وهو الأمر الذى كانت توده وتتمناه لولا أن اصبح متعذرا ..

وهتفت السيدة فى جذل وهى تقرب مقعدا من النار :

فاستطردت كاترين ، وهى تمسك بذراعها فى قوة وتتظاهر بالمرح والدعابة :
ـ لقد تشاجرنا كالقطط بسببك يا هيثكليف !

ـ أدخل .. لقد أتيت فى وقتك ! .. فهاهنا شخصان فى حاجة اليمة إلى ثالث يذيب الثلج الذى انعقد بينهما .. وانت ذات الشخص الذى نختاره كلانا ونرضاه .. إننى يا هيثكليف لاتيه فخرا بأن اقدم لك ، أخيرا ، شخصا شغف بك حبا اكثر منى .. وفى يقينى أنك سوف تزهو وتختال عجبا .. كلا .. أنها ليست نللى ، فلا تنظر إليها ! .. ولكن شقيقة زوجى المسكينة هى التى يتقطع قلبها لمجرد تأمل جمالك الجسدى والروحى ! .. وقد صار فى يدك الآن ان تصبح صهرا لادجار .. كلا .. كلا يا ايزابيلا .. إنك لن تفرى من هنا الآن ..

وكانت الفتاة المحيرة قد هبت واقفة فى ارتياع وحنق ، فاستطردت كاترين ، وهى تمسك بذراعها فى قوة ، وتتظاهر بالمرح والدعابة :

ـ لقد تشاجرنا كالقطط بسببك ياهيثكليف ! .. وقد غلبتنى عن جدارة فى مضمار الدفاع عنك ، بباعث من الوفاء لك والاعجاب بك .. بل لقد قالت لى إننى لو كنت من كرم الخلق بحيث أتنحى عن الطريق ، فان غريمتى ـ كما تود ان تجعل من نفسها ـ سوف ترمى قلبك بسهم يصميه دواما ، ويسدل على صورتى أستار النسيان إلى الأبد ..

فاستجمعت ايزابيلا أهداب كرامتها المهيضة ، وأنفت من النضال فى سبيل الخلاص من القبضة القوية التى تمسك بها ، وصاحت قائلة :

ـ كاترين ! .. سوف أكون شاكرة لك إذا لزمت جادة

الصدق ورجعت عن افترائك على ، حتى ولو كان على سبيل المزاح ! . . وارجوك يامستر هيثكليف أن تأمر صديقتك هذه بأن تخلى عنى ، فهى تنسى أنك وأنا لم نوثق معرفتنا ببعضنا بعد ، وأن مايسرها ويسليها قد يكون مؤلما لى غاية الألم . .

ولكن الضيف لم يحر جوابا ، بل اتخذ مجلسه بينهما ، وبدا عليه عدم الاكتراث للعاطفة التى انشبت مخالبها فى قلبها من نحوه . . فاستدارت الفتاة وعادت تهمس ، فى لهفة ، متوسلة لمعذبتها ان تخلى سبيلها ، ولكن مسز لينتون صاحت قائلة :

ـ محال . . عبثا ما تطلبين !. . فلن يقال عنى أننى استأثر بالشىء فلا أدع لأحد منه نصيبا . . سوف تبقين ما طاب لى أن تبقى !. . وأنت ياهيثكليف ، مالك لا تظهر الغبطة والرضى بهذه الأنباء السارة التى أحملها إليك ؟. . إن ايزابيلا تقسم أن حب ادجار لى لايعد شيئا مذكورا بجانب الحب الذى تكنه لك وتطوى عليه جوانحها . . إننى واثقة من أنها قالت شيئا من هذا القبيل ، اليس كذلك يا ايلين ؟ . . ثم أنها صامت عن الطعام والشراب منذ نزهتنا فى البرارى أول أمس ، من فرط الأسى والغضب لأننى نحيتها عن صحبتك ظنا منى أنها صحبة لا تناسبها ! . .

فقال هيثكليف وهو يدير مقعده ليواجههما معا :

ـ اظنك تكذبين عليها . . فهى تريد الخلاص من صحبتى الآن على أية حال . .

ثم راح يحملق بأنظاره فى حدة إلى الفتاة موضوع الحديث ، كما يحملق المرء إلى حيوان غريب كريه المنظر ــ او الحشرة

« ذات المائة ساق » التى تعيش فى جزر الهند ــ يدفعه الفضول وحب الاستطلاع إلى تأمله برغم ما يثيره فى النفس من نفور واشمئزاز . . فلم تحتمل الفتاة المنكودة ذلك كله ، وتداول وجهها الشحوب والتورد لحظة بعد أخرى ، وجللت قطرات الدمع اطراف أهدابها ، فأخذت تحاول بكل ما فى أصابعها الدقيقة من قوة ، أن تنتزع قبضة كاثرين القوية على ساعدها . . ولكنها إذ رأت أنها كلما رفعت أصبعا عن ذراعها اطبق غيره عليها ، وقد تعذر عليها أن ترفعها جميعا ، بدأت تستخدم أظفارها الحادة ، وسرعان ما تبدت آثارها على يد كاثرين فى أهلة حمراء دامية . .

فصاحت مسز لينتون وهى تخلى سبيلها ، وتنفض يدها من فرط الألم :

ـ ايتها النمرة المفترسة !. . اغربى عن وجهى بحق السماء، واخفى عن الناس وجهك البشع المقيت ! . . الا ما أحمقك إذ تبدين له مخالبك هذه !. . أتقدرين عواقب ما تحدثه من الأثر فى نفسه ؟. . وأنت يا هيثكليف . . انظر . . إن لها اظفارا كأدوات التعذيب !. . وعليك أن تحذر منها على عينيك . .

فأجاب فى وحشية ، عندما اغلق الباب خلف الفتاة :

ـ لو هددتنى بها لعرفت كيف أنتزعها من أصابعها . . ولكن ما الذى قصدته من إغاظة تلك المخلوقة على هذا النحو ياكاثى ؟. . انك لم تقولى الحقيقة ، اليس كذلك ؟. .

ـ أؤكد لك أننى قلت الحقيقة بحذافيرها . . فقد كانت مدلهة فى هواك طيلة الأسابيع الماضية ، وراحت تهذى بك

هذا الصباح ، وما لبثت ان أطلقت على سيلا من السباب .
إننى كشفت النقاب عن مثالبك ومساوئك لأخفف من غلواء
إعجابها بك .. ولكن لا تقم للأمر وزنا بعــد ذلك .. فكل
ما قصدته هو ان اعاقبها على سوء ادبها .. إننى احبها من كل
قلبى ، يا عزيزى هيثكليف ، بحيث لا أسمح لك بأن تنقض
عليها فتلتهمها !..

ـ وأنا اكرهها بحيث لا افكر فى هــذه المحــاولة ، إلا على
طريقة الغيلان !.. ولعمرى سوف تسمعين امورا غريبة لو
قدر لى ان اعيش وحدى مع هذا الوجه الشمعى الشــاحب
المقيت .. إن اقل ما افعله هو أن ارسم على صفحته البيضاء
الوان الطيف !.. وان احيل زرقة عينيها إلى سواد يوما بعد
يوم .. فهاتان العينان تشبهان عينى لينتون إلى حد بغيض ..

فقالت كاثرين فى هدوء :

ـ بل إلى حد جميل .. فهما اشبه بعيون الحمام ، او
عيون الملائكة !..

وعاد يسأل بعد لحظة صمت قصيرة :

ـ إنها وريثة أخيها ، اليس كذلك ؟ ..

ـ شد ما يؤسفنى أن افكر فى ذلك !.. فلسوف يحجبها
ـ بإذن الله ومشيئته ـ ستة من ابناء اخيها !.. ولكن اطرد
هذا الخاطر عن فكرك الآن .. إن لعابك يسيل لهفة على أملاك
جارك ، فاذكر جيدا ان املاك هذا الجار إنما هى املاكى انا ..

ـ لو انها كانت ملكى لما تغير الأمر بالنسبة إليك .. وقــد
تكون ايزابيلا لينتون فتاة بلهاء ، ولكنها ليست مجنونة البتة ..
حسنا .. سوف ندع الحديث فى هذا الأمر ، كما تريدين ..

ولقد نحيا الحديث حقا ، ولكن عن لسانيهما فحسب ..
ولعل كاثرين قد نحته عن فكرها كذلك ، ولكنى على يقين من
أن الآخر كان لايفتأ يذكره فيما بقى من تلك الأمسية ، فقد
رأيته يبتسم لنفسه ـ أو بالأحرى يكشر عن أنيابه المتلهفة ـ
ويغوص فى لجة من التفكير العميق كلما دعا الأمر إلى غيــاب
مسز لينتون عن الحجرة ..

وقوى بى العــزم على مراقبة حــركاته .. فان قلبى كان
دائما اميل إلى جانب السيد ، منــه إلى جانب كاثرين ..
واحسبنى كنت على حق فى ذلك لأنه كان رفيقــا عطوفا ،
سليم الطوية ، وافر الثقة بالناس ، شريفا طاهر الذيل ..
اما هى ، وإن كانت لا يمكن ان يقال عنها إنها على نقيض ذلك ،
إلا انها كانت ـ فيما يبدو ـ تبيح لنفسها حرية واسعة بحيث
كنت قليلة الإيمان بتمسكها بالمبادىء القويمة وبالتالى قليلة
المبالاة بمشاعرها وانفعالاتها .. وكنت أتمنى أن يحدث شىء
يخلص « مرتفعــات ويذرنج » و « الجــرانج » معــا من
مستر هيثكليف ، ويردنا إلى الهدوء الذى كان يشملنا قبل
مقدمه .. فقد كانت زياراته كابوسا متصلا لى ، بل وللسيد
ايضـا ، فيما اظن .. وكانت إقامته فى « المرتفعــات » جورا
وظلما يجل عنه الوصف ، فكنت أحس كأن الله قد تخلى عن
الشاة الضالة هناك لتلقى جزاء ضلالها التعس المنحوس ، وأن
وحشا شريرا يكمن لها ويتربص بها ويحول بينها وبين حظيرة
الأمان ، منتظرا الفرصة السانحة ليثب عليها ويوردها حتفها .

* * *

الفصل الحادى عشر

كنت فى بعض الأحيان ، كلما فكرت فى هذه الأشياء وتدبرتها فى وحدتى ، احس ذعرا مفاجئا يدفعنى إلى أن أقوم فأضع قلنسوتى فوق راسى ، واذهب لأرى كيف تسير الأمور فى « المرتفعات » . كنت اقنع ضميرى بأن من واجبى ان انذر هندلى بما يتقوله الناس عن مسلكه الشائن ، ولكنى كنت لا البث أن اذكر طباعه الشريرة التى يصر عليها ، فأفقد الأمل فى أن يكون لمسعاى اية ثمـرة مرجوة ، وعنـدئذ احجم عن العودة إلى ذلك البيت المنحوس ، وإن كان الشك يخامرنى فى قدرتى على احتمال التمسك بما قطعته على نفسى من عهد ..

وذات مرة ، كنت ذاهبة إلى « جيمرتون » ، فمضيت من طريق غير الطريق المألوقة ، حتى اجتزت البوابة القديمة .. وكان ذلك فى الوقت الذى بلغته من حكايتى .. وكان عصر يوم مشمس شديد البرودة ، وقد تعرت الأرض من العشب ، وجفت الطريق وصـلب اديمها .. وبلغت كتلة من الحجر يتفرع الطريق عندها يسارا إلى البرارى والاحراش ، تقوم فوق عمود من الصخر الرملى غير المشذب ، وقد نقش عليه عند طرفه الشمالى ، حرفا « م.و » ، وعند الطرف الشرقى حرف « ج » ، وعند الطرف الجنوبى الغربى « ث.ج.ر » فقد كان هذا الحجر يتخذ دليلا ومرشدا إلى مرتفعات ويذرنج وبلدة جيمرتون وثرشكروس جرانج .. وكانت الشمس تتألق فوق قمته السمراء ، فتذكرنى بأيام الصيف .. ولست أدرى

ما الذى حل بى ، ولا سببه ، إذ أحسست ، دفعة واحدة ، فيضا من احاسيس الطفولة يتدفق إلى قلبى .. فقد كنت وهندلى منذ عشرين عاما نتخذ هذه البقعة مرتعا مفضـلا للعبنا .. ورحت أتأمل الكتلة الحجرية طويلا ، وقد نهشتها عوامل الجو المختلفة ، ثم انحنيت فوق حجر صـغير عند قاعدتها .. ووجدته مازال مليئا بأصداف القواقع والحصباء الملونة التى كنا مولعين بإخفائها هناك مع غيرها من الأشياء الأخرى السريعة العطب .. فخيل لى اننى ارى رفيق صباى القديم ، واضحا جليا كأنه هو بلحمه ودمه ، وقد جلس على العشب اليابس ، واحنى راسه الأسمر المربع إلى الأمام ، وراح يحفر الأرض بقطعة من الاردواز .. عنـدئذ هتفت فى غير وعى : « هندلى أيها المسـكين » ! .. وسرعان ما اجفلت وانتفضت ، إذ لعب بعينى خداع البصر فاعتقدت لحظة أن الغلام قد رفع راسه وراح يحملق فى عينى !.. ولقد تلاشت هذه الرؤيا فى مثل وميض البرق ، ولكنى ما لبثت أن شـعرت بحنين لا يقاوم نحو الذهاب إلى المرتفعات .. وقد استحثتنى الأوهام والخرافات إلى الاستجابة لهذا الهاتف .. فمن يدرى لعله الآن قد مات ، أو لعله ـ فيما خيل إلى ـ مشرف على الموت ؟! .. وكنت كلما ازددت قربا من البيت ، ازداد انفعالى واضطرابى . حتى إذا ما لمحته من بعد سرت القشعريرة فى كل خليـة من بدنى .. وكانت « الرؤيا » التى تراءت لى عنـد علامة الطريق ، قد سبقتنى إلى هناك ، ووقفت تتطلع إلى من خلال البوابة ! .. أو على الأقل كانت هذه هى الفكرة التى

بدرت إلى ذهنى عندما رأيت غلاما مشعث الشعر أسود العينين ، يطل بوجهه المتورد من خلال القضبان .. ولكنى ما لبثت أن أدركت أن ذلك لابد أن يكون هيرتون ، ولدى هيرتون ، الذى لم يتغير كثيرا منذ فارقته من عشرة شهور ..

نسيت مخاوفى السخيفة فى الحال ، وهتفت به قائلة :

ـ ليباركك الله يا حبيبى ! .. هيرتون .. إننى نللى .. نللى ، مربيتك ! ..

فتراجع إلى الخلف قدر ذراع ، ثم التقط من الأرض حجرا كبيرا ، فحدست من هذا الفعل أنه إذا كانت نللى مازالت تعيش فى ذاكرته ، فانه لم يتبينها فى شخصى البتة !.. واستطردت أقول :

ـ لقد أتيت لأرى أباك ياهيرتون !

فرفع يده بالقذيفة ليرشقنى بها ، وعندئذ انطلقت فى حديث رقيق لأهدىء من سورته ، ولكنى لم أستطع منع يده ، فأصابنى الحجر فى راسى .. وسرعان ما تدفق من شفتى الغلام المتلعثمتين سيل من الشتائم والفاظ السباب التى كان ـ سواء فهمها أم لم يفهم معناها ـ ينطق بها فى خبرة مؤكدة ، وأساريره الصغيرة تتقلص فى حقد وكراهية يثيران الألم .. ولك أن تثق ، يامستر لوكوود ، أن ذلك قد أحزننى أكثر مما أغضبنى .. وكنت على وشك البكاء ، عندما أخرجت برتقالة من جيبى وقدمتها إليه لأستميله وأترضاه ، فتردد لحظة وما لبث أن اختطفها من يدى ، كأنما خيل إليه أننى

قصدت إغراءه ثم العبث به .. وأخرجت برتقالة أخرى أريتها له ، وقد أبعدتها عن متناول يده ، ثم سألته :

ـ من الذى علمك هذه الألفاظ الجميلة يا ولدى ؟ أهو القس ؟

فأجابنى :« لعنة الله على القس ، وعليك !.. أعطينى هذه!»

ـ أخبرنى أولا أين لقنت دروسك ، وساعطيها لك .. من هو مدرسك ؟

ـ الشيطان أبى !

ـ وما الذى تعلمته من أبيك ؟

فقفز ليخطف البرتقالة من يدى ، ولكنى رفعتها إلى أعلى ، واستطردت أسأله : « ما الذى يعلمه لك أبوك ؟ »

ـ لا شىء سوى أن أظل بعيدا عن طريقه .. وأبى لا يستطيع أن يضربنى ، لأننى أشتمه ..

ـ آه !.. وهل الشيطان هو الذى يعلمك أن تسب أباك وتشتمه ؟

فأجاب وهو يتشدق بكلامه : « آه ! .. لا .. لا .. » .

ـ من إذن ؟

ـ هيثكليف ..

فسألته عما إذا كان يحب مستر هيثكليف ، فأجاب : « آه ! .. نعم .. » .

ومضيت أجاذبه أهداب الحديث لأعرف منه سبب حبه إياه ، فلم أخرج منه إلا بهذه العبارات :



ـ لا أدرى .. ولكنه يكيل لأبى الصاع صاعين مما يفعله بى .. وهو يسب أبى كلما شتمنى ، ويقول إننى يجب أن أفعل ما يتراءى لى !

ـ ولكن ألا يعلمك القس القراءة والكتابة إذن ؟

ـ كلا .. فقد قيل لى إن القس سوف يجد أسنانه مقذوفة إلى حلقه ، إذا وضع قدمه على عتبة الدار .. وهيثكليف هو الذى وعدنى بذلك !

فوضعت البرتقالة فى يده ، ثم سألته أن يخبر أباه بأن سيدة تدعى « نللى دين » تنتظر عند بوابة الحديقة وترغب فى أن تتحدث إليه .. فمضى فى الممر حتى اختفى داخل الدار . ولكنى رأيت هيثكليف ـ لا هندلى ـ هو الذى يظهر فى الباب ، فذرت على أعقابى ، وانطلقت أعدو فى الطريق بكل ما وسعنى من جهد وسرعة ، دون أن أتوقف لحظة ، حتى بلغت علامة الطريق الحجرية ، وقد تملكنى فزع مروع كأننى أطلقت الشياطين من عقالها !

وليس لهذا الحادث صلة مباشرة بقصة مس ايزابيلا ، أكثر من أنه شدد من عزيمتى على فرض حراسة شديدة حولها ، وأن أبذل غاية جهدى فى وقف تغلغل مثل هذا التأثير الشرير فى (الجرانج) ، ولو اضطررت إلى إثارة عاصفة فى الدار ، بإفساد سرور مسز لينتون وابتهاجها .

فلما حضر هيثكليف فى زيارته التالية ، صادف أن كانت الآنسة الشابة تطعم الحمام فى الفناء ، وكانت قد لبثت ثلاثة

أيام لا تخاطب كاثرين بكلمة ، وإن كانت قد تخلت عن عبوسها وتذمرها ، مما وجدنا له راحة فى نفوسنا .. وكنت أعلم أنه ليس من عادة هيثكليف أن يوجه أية مجاملة غير لازمة لمس لينتون ، ولكنه ما كاد يلمحها فى ذلك اليوم ، حتى ألقى على واجهة الدار نظرة حذرة فاحصة ، ثم سار نحوها .. وكنت أقف بجوار نافذة المطبخ ، ولكنى أسرعت فتواريت عن أنظاره ، فرأيته يجتاز الفناء إليها ويقول لها شيئا .. فبدا عليها الضيق والحرج ، والرغبة فى الفرار منه ، ولكنه وضع يده على ذراعها ليمنعها من المسير ، فحولت وجهها عنه . وكان من الواضح أنه ألقى عليها سؤالا ، وأنها لم تشأ الإجابة عليه ، وعندئذ ألقى على المنزل نظرة أخرى سريعة ، وإذ حسب نفسه بمنجاة عن الأنظار ، كان الوغد من النذالة بحيث احتضنها وقبلها !

عندئذ هتفت دون وعى :

ـ أيها الخائن يهوذا ! يا لك من منافق عريق ، ومخادع أصيل !

فانبعث صوت عند مرفقى ، يقول : « من هو ذاك يا نللى؟»

كان ذلك صوت كاثرين وقد دخلت الحجرة دون أن أشعر بها ، لاستغراقى فى مراقبة الاثنين الواقفين فى الخارج ، فأجبتها فى حرارة :

ـ إنه صديقك الحقير ! .. ذلك الوغد المتسلل هناك ! .. آه ! لقد لمحنا ، وها هو ذا قادم إلى الدار .. فهل ما أعجب

هل يجد لديه من الصفاقة ما يتيح له أن يبرر مغازلته لمس ايزابيلا ، على حين انه أخبرك بأنه يكرهها ؟

وكانت مسز لينتون قد لمحت ايزابيلا وهى تتخلص من يديه ، ثم تعدو هاربة إلى الحديقة . وفى اللحظة التالية كان هيثكليف يفتح الباب ، فهممت بأن أطلق العنان لسخطى واطلعه على رايى فيه لولا أن كاثرين اصرت على أن تسكتنى ، وهى غاضبة ، وهددتنى بطردى من المطبخ إذا تجاسرت على الإمعان فى القحة بإطلاق لسانى السليط ، وصاحت بى :

ـ إن من يسمعك يظنك سيدة هذه الدار ! .. وإنك لفى حاجة لمن يلزمك حدك ، ويعرفك قدرك . وانت ياهيثكليف ، ما الذى تسعى وراءه من إثارة هذه الضجة ؟ .. لقد قلت لك إنك يجب أن تدع ايزابيلا وشانها ، وانى لأرجو أن تفعل . إلا إذا كنت قد سئمت التردد على هذه الدار ، وتريد ، أن يوصد لينتون ابوابها فى وجهك !

فقال الشيطان الأسود ، الذى لم أمقته فى حياتى قدر مقتى له وقتئذ :

ـ سألت الله أن يجنبه هذه المحاولة ، وأن يبقى عليه نعمة الحلم والصبر .. فاننى ازداد كل يوم لهفة على إرساله إلى السماء !

فهتفت كاثرين وهى تغلق الباب الداخلى : « صه ! .. وحسبك لا تزدنى غضبا . ولكن لماذا تجاهلت رجائى وتغاضيت عنه ؟ .. هل اعترضت طريقك عن عمد ؟ » .

فزمجر قائلا : « وماذا يهمك من ذلك ؟ .. من حقى أن أقبلها ، إذا رضيت ذلك ، وليس من حقك أن تعترضى ، فاننى لست زوجك ، ولا حاجة بك إلى أن تغارى منى ؟ »

فاجابت السيدة : « لست أغار منك ، وإنما تأخذنى الغيرة من أجلك ! .. والآن دع عنك هذا التقطيب ، فانك لن تعبس فى وجهى أو تتجهم لى . وإذا كنت تحب ايزابيلا فسوف تتزوجها ، ولكن هل تحبها ؟ .. اخبرنى بالحقيقة يا هيثكليف .. آه ! .. إنك لا تريد أن تجاوبنى .. وإنى واثقة من انك لا تحبها ! »

فتدخلت فى الحديث متسائلة :

ـ وهل يوافق مستر لينتون على زواج شقيقته من هذا الرجل ؟

فاجابت سيدتى ساخرة : « لابد لمستر لينتون من الموافقة .. »

فقال هيثكليف : « بل ليوفر على نفسه هذا العناء ، لاننى استطيع ان أفعل ما اشاء دون حاجة إلى رضائه . واما انت ياكاثرين ، ففى نيتى ان اقول لك كلمتين الآن بهذه المناسبة : اود ان تعرفى باننى اعلم انك عاملتنى معاملة جهنمية ، هل تسمعين ؟ .. معاملة جهنمية خبيثة . فاذا كنت تهنئين نفسك باننى لم اعرف ذلك ، فأنت بلهاء . وإذا كنت تحسبين ان الكلمات المعسولة تخدعنى وتخفف عنى ، فأنت حمقاء .. اما إذا كنت تتصورين اننى سأحتمل ذلك دون أن أنتقم لنفسى ، فسوف اقنعك عما قريب بعكس ما تتصورين ! .. وفى

الوقت نفسه فإنى أشكر لك اطلاعى على سر شقيقة زوجك . وأقسم بأن أفيد من هذا السر إلى أبعد حد . وما عليك إلا أن تتنحى جانبا ! »

فهتفت مسز لينتون ، فى دهشة وذهول :

ــ ما هذا التطور الجديد فى أخلاقك ؟ .. اتقول إننى عاملتك معاملة جهنمية ، وانك ستأخذ بثأرك ؟ .. ولكن كيف تنوى أن تفعل أيها الوحش الجحود ؟ .. وكيف بالله عاملتك معاملة جهنمية ؟

فأجاب هيثكليف وقد فترت حرارته قليلا :

ــ إننى لا أسعى للانتقام منك أنت ، فان ذلك ليس من خطتى . إن الطاغية يسحق عبيده ، ولكنهم لا ينقلبون ضده . وإنما يسحقون من يلونهم فى المرتبة ! .. ومرحبا بالعذاب اجرعه من يدك حتى الموت ، إذا كان فى ذلك مسلاة لك . ولكن دعينى فقط اتسلى قليلا بالطريقة نفسها .. ودعك من إهانتى بقدر ما يسعك . لقد هدمت القصر الذى بنيته حجرا فوق حجر ، حتى سويته بالأرض ، فلا تقيمى لى كوخا ثم تتيهى فخرا بفضلك وإحسانك عندما تقدمينه لى منزلا ! .. ولو خطر ببالى أنك تودين حقا أن اتزوج ايزابيلا ، فاننى اكون غرا لا يستحق الحياة !

فصاحت كاثرين :

ــ آه ! .. لقد اغاظك اننى لا أحس بالغيرة ، أليس كذلك ؟ حسنا ، لن اعيد ما عرضته من زواجك بايزابيلا ؛ فذلك اشبه

بتقديم روح ضالة إلى الشيطان . ولعمرى إن هناءك وسعادتك إنما ينبعان من إشاعة الشقاء بين الناس ! .. وهذا ما أثبته لى . لقد هدأت حدة غضب ادجار واستيائه من عودتك ، وبدأت اشعر بالأمن والدعة والهدوء ، ولكنك إذ يهولك أن ترانا نعيش فى سلام ، تصمم على أن تثير المتاعب والشجار . اذهب يا هيثكليف فتشاجر مع ادجار ، إذا طاب لك أن تفعل ، واخدع شقيقته وغرر بها ، فانك بذلك تقع تماما على خير وسيلة تنتقم بها لنفسك منى !

وانقطع الحديث عند هذا الحد ، فجلست مسز لينتون بجوار المدفأة ، متوردة الوجه ، يرتسم على محياها الحزن والكآبة ، فان المارد الذى أخرجته من القمقم ليخدمها قد تمرد عليها ، فلا هى قادرة على إعادته ، ولا هى مستطيعة السيطرة عليه ! .. أما هو فقد وقف أمام المدفأة معقود الذراعين فوق صدره ، مستغرقا فى التفكير فى خواطره الشريرة .. وعلى هذا الوضع تركتهما وذهبت أبحث عن السيد الذى كان يعجب مما ابقى كاثرين اسفل الدار كل هذه المدة !.. وما كدت أدخل عليه حتى سألنى :

ــ هل رأيت سيدتك يا ايلين ؟

ــ نعم ، إنها فى المطبخ يا سيدى ، وقد أغضبها مستر هيثكليف إلى حد يثير الشجن . والحق يا سيدى أننى أرى الوقت قد حان لتنظيم زياراته على أساس آخر ، فمن الضرر البالغ أن يعامل بالرفق واللين بعد أن وصل الأمر الآن إلى هذا الحد !

ثم مضيت أقص عليه ما حدث فى الفناء ، وما تلا ذلك من نقاش حاد ، بعد أن اغضيت عن ذكر ما لم اجرؤ على قوله . وقد خطر لى أن ذلك لن يسىء كثيرا إلى مسز لينتون ، ما لم تسىء هى إلى نفسها فيما بعد إذا ما اتخذت موقف الدفاع عن ضيفها . أما مستر لينتون فقد نفد صبره قبل أن اتم حديثى ، وكانت كلماته الأولى تنم على انه لا يخلى كاثرين من اللوم ، فقد صاح :

ـ هذه حالة لا تطاق ، ومن العار ان تتخذ كاثرين منه صديقا وتفرض صحبته على فرضا !.. استدعى يا نللى خادمين إلى البهو ، فلن ادع كاثرين تتمهل طويلا فى النقاش مع الوغد المنحط . لقد جاملتها بما فيه الكفاية !

ونزل إلى الطابق الأرضى ، وأمر الخادمين بالانتظار فى الممر ، ثم مضى إلى المطبخ ، فتبعته ، ورأينا الصديقين قد عاودا مناقشتهما الثائرة .. أو بالأحرى كانت مسز لينتون ممعنة فى تقريعه من جديد بقوة وصرامة . اما هيثكليف فكان يقف عند النافذة ، مطاطىء الرأس ، وقد بدأ مرتاعا ـ إلى حد ما ـ من ثورتها العنيفة حياله . وكان هو أول من رأى السيد ، فأومأ إليها بإشارة سريعة أن تخلد إلى الصمت ، وما لبثت أن كفت عن الكلام بغتة وقد اكتشفت سبب إشارته .. وبدأ لينتون يقول :

ـ ما معنى هذا ؟ .. وعلى اى وجه تفهمين الحشمة واللياقة إذا كنت تبقين هنا وتصغين إلى الالفاظ التى يصبها فى مسامعك هذا السفيه البذىء اللسان ؟ ! .. ولكن احسبك

لا ترين فيها شيئا ، إذ هى لغته المعتادة !.. لقد الفت ضعته وانحطاطه ، ومن يدرى فلعلك تتخيلين أن بوسعى أن آلفها كذلك !

ـ هل كنت تسترق السمع من وراء الباب يا ادجار ؟

ولقد نطقت السيدة بهذه الكلمات فى لهجة عنيت باستخدامها كى تثير زوجها وتستفزه ، إذ كانت تنطوى على الاستخفاف وازدراء ثورته ، معا ..

اما هيثكليف ، فقد رفع رأسه عند سماعه حديث سيدى ، وما لبث ان أطلق ضحكة ساخرة مستهزئة إذ سمع ما قالته السيدة .. ولعله قصد ان يثير انتباه مستر لينتون إليه ، وقد نجح فى ذلك حقا .. ولكن ادجار لم يكن فى نيته أن يعامله فى غضب جامح ، فقال فى هدوء :

ـ لقد ترفقت بك طويلا يا سيدى ، لا لأننى اجهل سوء خلقك التعس ، ولكن لأننى كنت أشعر انك غير مسئول عن ذلك تماما .. فلما أرادت كاثرين أن تبقى على معرفتك ، وافقتها فى حمق وبلاهة .. بيد أن وجودك قد غدا سما أدبيا يدنس اكثر الناس فضيلة ونقاء . ولهذا السبب ، ولكى نتقى سوء العاقبة ، فإنى أمنعك من الحضور إلى هذا المنزل بعد الآن ، واطلب إليك الانصراف فى الحال .. فان تأخرت ثلاث دقائق ، فسوف يكون خروجك قسرا وبطريقة مخزية !

فنظر إليه هيثكليف وهو يقيس طوله وعرضه بعين ملأى بالزراية والاستهزاء ، ثم قال : « كأنى .. أن حملك هـذا

يهدد ويتوعد بلغة الفحول !.. وانه لفى خطر من تهشيم جمجمته على مفاصل قبضتى . يا إلهى ! .. شد ما يؤسفنى يا مستر لينتون انك لست أهلا لأن أصرعك ! »

فنظر سيدى ناحية الممر ثم أشار إلى أن ادعو الرجلين ، إذ لم يكن فى نيته أن يخاطر بعراك مباشر مع هيثكليف ، فاطعت إشارته ، ولكن مسز لينتون ارتابت فى أن هناك شيئا ما ، وتبعتنى .. فلما حاولت نداء الرجلين ، فطنت للأمر فجذبتنى إلى الداخل ثانية . ودفعت الباب فاغلقته ، ثم أوصدته بالمفتاح !

ونظر إليها زوجها فى دهشة وغضب ، فقالت ردا على تساؤله :

ــ يا لها من وسائل شريفة تتبعها !.. إذا كانت الشجاعة تعوزك لمهاجمته ، فاعتذر إليه ، أو دعه يهزمك !.. وسوف يشفيك ذلك من غرورك وتظاهرك بأكثر مما أنت عليه من قوة وبأس . كلا ، سوف أبتلع المفتاح قبل أن تأخذه منى .. يا إلهى !.. لقد لقيت منكما أطيب جزاء على ما أسديته لكليكما من فضل وعطف .. وبعد طول تسامحى واحتمالى المستمر لضعف أحدكما وسوء خلق الثانى ، أتلقى الشكر منكما ممثلا فى نموذجين من الجحود الأعمى ، والحمق السخيف .. لقد كنت أدافع عنك وعن ذويك يا ادجار ، ولكنى أتمنى الآن أن يجلدك هيثكليف بالسياط حتى تخور قواك ، جزاء تجاسرك على سوء ظنك بى !

ولم يكن السيد فى حاجة لهذه التجربة حتى يحل به ذلك الخور ، فقد حاول أن ينتزع المفتاح من قبضة كاثرين ، ولكنها رات الأسلم ان تلقى به وسط شعلة النار المتأججة فى الموقد . وعندئذ اخذت مستر ادجار رعدة عصبية شديدة ، وشحب وجهه حتى اصبح كوجوه الموتى ــ إذ لم يكن فى وسعه أن يقهر ذلك الفيض من الانفعال والتأثر ، إبقاء على حياته ــ وهكذا قهره ذلك المزيج من الألم والهوان ، فاستند إلى ظهر أحد المقاعد ، واخفى وجهه بين يديه .. فاستطردت مسز لينتون هاتفة :

ــ آه !.. يا للسماء !.. لو كنا فى الأيام الخوالى لأحرزت رتبة الفروسية لمسلكك هذا ! .. لقد قهرنا ، وغلبنا على امرنا !.. ولن يرفع هيثكليف إصبعا عليك ، إلا كما يجرد الملك حملة من جيشه لتأديب عصبة من الجرذان !.. ولكن ابشر وقر عينا ، فلن يصيبك سوء البتة . إن من كان على شاكلتك لا يعد حملا ، وإنما هو أرنب رضيع !

فقال صاحبها : « شد ما اود ان تنتهى فرحا بهذا الجبان الذى يجرى فى عروقه اللبن بدلا من الدماء !.. وإنى أهنئك بذوقك وحسن اختيارك ، فهذا هو الرعديد الذى يسيل ريقه على ذقنه ، والذى فضلته على .. إننى لا ارضى بأن اضربه بقبضة يدى ، وإنما تكفى ركلة من قدمى لترضينى كل الرضاء .. اترينه يبكى ، أم هو مشرف على الإغماء خوفا وفرقا ؟ »

ودنا هيثكليف فركل بقدمه المقعد الذى يستند إليه

لينتون . ولقد كان خيرا له الا يقترب إلى هذا الحد ، فإن سيدى رفع قامته فى وثبة سريعة ، ولطمه بجمع يده على رقبته لطمة كانت كفيلة بان تصرع شخصا أضعف بنية من هيثكليف ، الذى انقطعت أنفاسه لحظة .. وفيما كان لا يزال يحشرج بانفاسه ، خرج مستر لينتون من الباب الخلفى إلى الفناء ، ومنه إلى المدخل الأمامى .. عندئذ صاحت كاثرين :

ـ ارأيت ؟ .. هانت قد قطعت على نفسك سبيل الحضور إلى هنا .. فانصرف الآن ، لانه سوف يعود وفى يديه زوج من المسدسات ، ومعه ثلة من الأعوان .. وإذا كان قد سمع ما قلناه ، فلن يصفح عنك بطبيعة الحال ، فإنك يا هيثكليف قد أسأت إليه إساءة بالغة .. ولكن اذهب .. أسرع .. فإنى أفضل أن أرى ادجار فى ورطة عن ان اراك انت ..

فهدر هيثكليف بصوت كالرعد :

ـ أتظنين أننى اذهب وهذه اللطمة ما زالت تحرق حلقى ؟ .. يا للشيطان ! .. كلا ، بل سوف أحطم ضلوعه كبندقة معطوبة قبل أن اخطو خطوة خارج الدار . وإذا كنت لا اطرحه ارضا الآن ، فثقى أننى سوف اقتله يوما من الأيام . وما دمت تقيمين وزنا لحياته ، فدعينى أثار لنفسى منه وأناله الآن !

فتدخلت أنا قائلة ، وقد استبحت لنفسى شيئا من الكذب :

ـ إنه لن يأتى إلى هنا ، بل سيرسل الحوذى واثنين من البستانيين . ومن المؤكد انك لن تنتظر حتى يلقوا بك فى

عرض الطريق .. ثم أن كلا منهم يحمل هراوة غليظة ، وسوف يرقبهم السيد من نافذة البهو ليرى أنهم قد نفذوا أوامره ..

وكان الحوذى والبستانيان موجودين حقا ، ولكن لينتون كان معهم . وكانوا قد اجتازوا الفناء بالفعل ، ففكر هيثكليف فى الأمر ، وقرر أن يتحاشى العراك مع الخدم الثلاثة ، وتناول محرك النار فهشم به قفل الباب الداخلى ، واتخذ سبيله إلى الفرار ، فى الوقت الذى كانوا يدخلون فيه من الباب الآخر ..

وكانت مسز لينتون شديدة الانفعال ، فأمرتنى بأن ارافقها إلى الطابق العلوى .. ولم تكن تعرف شيئا عن الدور الذى لعبته فى إثارة هذه المشكلة ، كما أننى كنت متلهفة على أن تظل فى جهلها هذا ..

والقت بنفسها فوق الأريكة فى حجرة الجلوس ، وهى تصيح :

ـ إننى أكاد أفقد عقلى يا نللى .. وأحس بالف من مطارق الحدادين تهوى على رأسى .. قولى لايزابيلا أن تتجنب لقائى ، فان هذه الضجة الكبرى إنما نشبت بسببها .. وإذا طاب لها ، أو لأى شخص آخر أن يزيد من غضبى فى هذه اللحظة ، فسوف أغدو ضارية متوحشة . ثم قولى لادجار يا نللى ، إذا رأيته ثانية الليلة ، إننى فى خطر الإصابة بمرض خطير .. وليت ذلك يحدث فعلا . لقد أفزعنى وأحزننى وأصابنى بهم خانق ، ولذلك أريد أن أفزعه بدورى . ثم إنه

قد يأتى ليبدأ حلقة جديدة من الإهانات أو التذمر والشكوى . وإنى واثقة من أننى سوف أقابل الإهانة بمثلها ، وعندئذ لا يعلم إلا الله إلى أين ينتهى بنا الأمر .. هل تفعلين ذلك من اجلى ، يا عزيزتى نللى الطيبة ؟ .. انك تعلمين اننى لا يمكن أن الام ، بحال من الأحوال ، فيما حدث .. فما الذى أصابه حتى جعل منه متسمعا على الأبواب ؟ .. لقد كان حديث هيثكليف مشينا بعد أن تركتنا ، ولكننى كنت كفيلة بان اصرفه سريعا عن ايزابيلا ، وما بقى بعد ذلك لا يعد شيئا مذكورا .. ولكن كل شىء اندفع فى الطريق الخاطىء الآن ، بسبب لهفة ذلك الأحمق على سماع كلمات السوء التى تقال عنه ، وهى نزوة تتملك بعض الناس كشيطان يسكن ابدانهم !.. ولو أن ادجار لم يتسمع على حديثنا قط ، لما اصابه من السوء أكثر مما أصابه . والواقع أنه عندما اقتحم على الباب ، وخاطبنى بتلك اللهجة الحمقاء ، وذلك الحنق السخيف ، بعد ان كنت انهال على هيثكليف لوما وتقريعا ــ حتى بح صوتى ــ من اجله ، احسست باننى لم اعد ابالى ما يفعله كل منهما بالآخر .. خصوصا وقد شعرت بأنه على اى وجه ينتهى ذلك المشهد ، فإننا سوف يتمزق شملنا لمدة لا يعرف أحد مداها . حسنا ، إننى إذا عجزت عن الاحتفاظ بصداقة هيثكليف ، وإذا انقلب إدجار حقودا غيورا ، فسوف أحاول تحطيم قلبيهما بأن احطم قلبى بنفسى .. فتلك أسرع الوسائل لإنهاء كل شىء ، إذا ما وجدت نفسى مسوقة إلى ابعد الحدود .. ولكنه عمل ينبغى إرجاؤه حتى يخيب الأمل وينقطع الرجاء ؛ ولن افاجىء لينتون به . لقد ظل حتى الآن حريصا على

الخوف من إثارتى ، فعليك أن تمثلى له خطورة تخليه عن هذه السياسة ، وان تذكريه بحدة طبعى وسرعة تأثرى ، بحيث اغدو على حافة الجنون إذا اضطرمت نيران غضبى . وكم أود يا نللى أن تصرفى عن أساريرك هذا الجمود والتبلد ، وان تلوحى اكثر لهفة وقلقا على !

ولا ريب ان الفتور الذى كنت أتلقى به هذه التعليمات كان مما يثير الحنق والسخط ، فقد كانت تمليها على بلهجة مليئة بالحرارة والاخلاص ، ولكنى كنت اعتقد أن الشخص الذى يستطيع تدبير نتائج نوبات غضبه مقدما ، يستطيع بالمثل ان يدبر كيف يسيطر على نفسه حتى ولو عانى آثارها . ثم إننى لم اكن أريد أن « افزع » السيد ، كما قالت ، وأضاعف من احزانه ، خدمة لأنانيتها .. لذلك لم أقل للسيد شيئا عندما التقيت به قادما إلى حجرة الجلوس ، ولكن أبحت لنفسى ان اعود ادراجى لأنصت إلى حديثهما ، واعلم إن كانا سيعودان إلى الشجار ثانية . وكان هو البادىء فى الحديث ، إذ قال فى هدوء ، دون أن تشوب صوته شائبة من غضب أو حنق ، بل كانت نبراته تتسم بالقنوط والأسى ، قال :

ــ ابقى حيث انت يا كاثرين ، فلن أبقى طويلا . وما أتيت لأجادلك او لتصالحينى . كلا ، وإنما أريد فقط أن أعرف إذا كنت ــ بعد احداث هذا المساء ــ تنوين الاستمرار فى صلتك الوثيقة مع ..

فقاطعته السيدة وهى تدق الأرض بقدمها :

ـ رحماك ! .. رحماك !.. بحق السماء لا تدعنا نسمع المزيد عن هذا الأمر الآن ! .. إن دماءك الباردة لا يمكن أن تجعلك تصاب بالحمى ، كما أن عروقك مليئة بماء مثلج ، على حين بلغت عروقى درجة الغليان . ومجرد رؤيتى لمثل هذه البرودة القارصة تجعلها تتراقص من حرارة الحمى ! .

فلم تلن قناة مستر لينتون ، بل مضى يقول فى إصرار :

ـ عليك أن تجيبى على سؤالى إذا اردت الخلاص منى ، بل لا بد لك من الإجابة عليه . وهذا العنف الذى يتملكك لا يقلقنى ولا يهمنى ، فقد تبينت أن بوسعك أن تكونى رابطة الجأش قليلة الاكتراث ، كأى انسان آخر إذا أردت . فهل تنوين التخلى عن هيثكليف بعد الآن ، أم تريدين التخلى عنى ؟ .. من المحال عليك أن تكونى صديقتى وصديقته فى نفس الوقت ، وإنى أصر تماما على معرفة أينا تختارين ..

فصاحت كاثرين ثائرة : « وإنى اصر على ان اترك وحدى الآن . إننى أطالبك بذلك.. الا ترانى لا أكاد أستطيع الوقوف ؟ .. ادجار .. دعنى .. اتركنى ! »

وراحت تشد حبل الجرس حتى انقطع وهو يدوى برنين متصل .. فدخلت الحجرة متمهلة ، فإن مثل هذه الثورات الشريرة الحمقاء خليقة بأن تثير حنق القديسين !.. ووجدتها

مستلقية تضرب رأسها بذراع الأريكة ، وتصرف بأسنانها حتى ليخيل إليك أنها ستحطمها حتى تتناثر شظاياها . وكان مستر لينتون واقفا ينظر إليها وقد تملكه الخوف ، بل ووخز الضمير ، فجأة !.. وامرنى بأن احضر بعض الماء ، على حين كانت متقطعة الأنفاس ، لا تستطيع النطق . واحضرت كوبا مليئة بالماء ، ولما رفضت أن تشربها ، سكبتها فوق وجهها . وبعد ثوان معدودة كانت قد مدت جسمها المتصلب ، وقلبت عينيها ، بينما ابيضت وجنتاها ثم ازرقتا ، واتخذت سمة الموتى .. فبدا لينتون فزعا مرتاعا ، ولكنى همست اقول له :

ـ لا شىء البتة .. لا شىء بها !

فقد كرهت أن يلين ويستسلم ، ولو اننى كنت أحس بالخوف فى اعماق قلبى .. فقال وقد اخذته قشعريرة شديدة :

ـ إن الدماء تسيل من شفتيها !

ـ لا بأس .. فما بها من شىء !

ثم رويت له كيف صممت ، قبل مجيئه ، على تمثيل نوبة من الصرع أمامه . ولكنى لم أحاذر ، وتكلمت بصوت مرتفع ، فسمعتنى .. إذ انتفضت واقفة ، وقد انسدل شعرها فوق كتفيها ، وومضت عيناها ببريق مروع ، وتوترت عضلات

رقبتها وذراعيها على نحو غير طبيعى .. فوطنت نفسى على أنهـا ستهشم عظامى ، على أقل تقدير . ولكنهـا اكتفت بالتحديق فيما حولها بنظرات نارية ، ثم اندفعت بغتة خارجة من الحجرة ، وأمرنى السيد بأن اتبعها ، فتبعتها حتى باب حجرتها ، حيث دخلت واغلقته فى وجهى ..

ولمـا لم تنزل لتناول الإفطار فى الصباح التالى ، مضيت إليها لأسالها هل تود أن نحمله إليها ، ولكنها أجابت فى لهجة قاطعة : « كلا ! » .. ثم كررت عليها السؤال ساعة الغداء ، ثم فى موعد تناول الشاى بعد الظهر ، وفى صباح اليوم التالى .. فكنت أتلقى نفس الإجابة الحاسمة . أما مستر لينتون فقد قضى طيلة الوقت فى المكتبة ، ولم يسال قط عما تفعله زوجته .. وكان قد قضى ساعة مع إيزابيلا على انفراد ، حاول خلالها أن يستخلص منها ما ينم على ارتياعها وفزعها من تقرب هيثكليف إليها ، ولكنه لم يفز بطائل من إجاباتها المبهمة التى لم تقصد منها إلا المراوغة والتهرب ، حتى اضطر اخيرا إلى إنهاء استجوابه ، دون أن يقنع بنتيجته .. غير انه ختم حديثه معها بتحذير صارم ، وهو أنه إذا كانت هى من الجنون بحيث تشجع ذلك الدعى الحقير ، فإن ذلك سوف يقطع كل أواصر القرابة التى تربط بينها وبينه !

***

الفصل الثانى عشر

بينما كانت مس لينتون تقضى الوقت فى حزن واكتئاب ، متنقلة بين البستان والحديقة ، فى صمت دائم وهم مقيم ، وعبراتها لا تكاد تكف عن الانهمار ، وبينما كان أخوها يحبس نفسه فى المكتبة ، ويعيش بين كتب لم يفتحهـا قط ، وفى صحبته السأم والكلال ، كنت من ناحيتى أحس ، فى توقع غامض مستمر ، بأن كاترين لن تلبث أن تندم على مسلكها ، وتأتى طيعـة ، فتطلب الصفح من زوجهـا ، وتسعى إلى مصالحته واسترضائه .. وقد ظلت مضربة عن الطعام فى إصرار وعناد ، ولعلهـا كانت تعتقد أن زوجهـا كان يغص بالطعـام ، فى كل وجبة ، حزنا على غيابهـا ، وأن الكبرياء وحدها هى التى تمنعه من أن يهرع إليها ويلقى بنفسه تحت قدميها .. ومضيت فى اداء واجباتى المنزلية كالمعتاد ، وقد اقتنعت بأن (الجرانج) لا يؤوى إلا نفسا واحدة معقولة ، هى التى تسـكن بدنى !.. وما حاولت قط أن أسرى عن الآنسة ، أو ازجر السيدة وأؤنبها ، إذ كان ذلك عبثا لا طائل وراءه .. كما لم ألق بالا إلى تأوهات سيدى الذى كان يحن لسماع اسم زوجته ، ما دام لا يستطيع أن يسمع صوتها !.. وصممت على أن أدعهم وشـأنهم حتى يلجـأوا لى بمحض اختيارهم . وعلى الرغم من أن الطريق إلى ذلك كان يبـدو طويلا مضنيا ، إلا إننى ابتهجت أخيرا إذ لمحت بصيصا من الضياء ينبىء ببزوغ فجر التقدم ، كما قدرت من بادىء الأمر .

ففي اليوم الثالث فتحت مسز لينتون باب حجرتها ، وكان الماء قد نفد من الأباريق التي كانت عندها ، فطلبت مزيدا منه ، كما طلبت بعض الثريد ، لأنها كانت ، فيما تعتقد ، مشرفة على الموت . وقد اعتبرت هذا الكلام مهيئا لمسامع ادجار ، ولم اصدق أن حالتها بلغت هذا الحد من السوء ، ولذلك احتفظت به لنفسي ولم انقله لسيدي . واحضرت لها قليلا من الشاي ، وبعض الكعك الجاف ، فأكلت وشربت بنهم شديد ، ثم استلقت على وسادتها ثانية ، وراحت تشدد الضغط على راحتيها ، وتتأوه قائلة :

ــ آه !.. إنني موشكة على الموت ، طالما أن أحدا لا يبالي بشيء مما يحدث لي .. ليتني لم آكل شيئا !

ومضت برهة طويلة ، قبل أن اسمعها تغمغم ثانية :

ــ كلا .. لن أموت ، فسوف يسره موتي .. إنه لا يحبني قط ، ولن يفتقدني البتة !

وظلت محتفظة بجمودي الظاهر ، على الرغم من الصفرة الشديدة التي كانت تكسو محياها ، وتلك الحالة الغريبة التي اعترتها .. ولكني سألتها :

ــ هل طلبت سيدتي شيئا ؟

فقالت وهي ترفع خصلات شعرها المشعثة الكثيفة من فوق وجهها المنهوك : « ما الذي يفعله ذلك المخلوق الجامد الحس ؟ .. هل استغرق في غيبوبة ، أم انه قد مات ؟ » .

ــ إذا كنت تقصدين مستر لينتون ، فلم يصبه هذا ولا ذاك !.. إنه ، فيما اظن ، في حالة لا بأس بها ، ولو أن

دراساته تستغرق معظم وقته وتشغله اكثر مما ينبغي . إنه دائما بين كتبه ، واحسب أن ذلك يرجع إلى انه لا يجد صحبة اخرى يسكن إليها !

وما كان ينبغي أن اقول لها ذلك لو انني عرفت حقيقة حالها ، ولكني لم استطع التخلص من الفكرة التي كانت تتسلط على وقتئذ ، وهي أن شطرا كبيرا من سوء حالتها إنما كان تمثيلا في تمثيل !.. ولم اكد افرغ من عبارتي حتى صاحت في دهشة واضطراب :

ــ بين كتبه ؟.. بينما أموت هنا ؟.. بينما أنا على حافة القبر ؟.. يا إلهي !.. هل يعلم كيف تغيرت ؟

ثم استطردت وهي تحملق في صورتها المنعكسة في المرآة على الجدار المقابل : « اهذه كاثرين لينتون ؟ لعله يحسبني اتدلل ، أو أمثل عليه دورا !.. الا يمكنك أن تخبريه أن الأمر جد في جد ، وانه بلغ درجة خطيرة مروعة ؟.. نللي ، إذا لم يكن الأوان قد فات ، فإني بمجرد أن اعرف حقيقة شعوره سوف اختار بين هذين الأمرين : إما أن اضرب عن الطعام والشراب في الحال ــ ولن يكون ذلك عقابا له إلا إذا كان له قلب يحس ويتألم ــ وإما أن استجمع قواي ، واغادر البلاد نهائيا .. ولكن هل قلت الصدق فيما اخبرتني عنه ؟ .. حذار يا نللي !.. هل هو الآن قليل الاكتراث لحياتي إلى هذا الحد ؟ »

فأجبتها : « لماذا يا سيدتي ؟.. إن السيد ليست لديه اية فكرة عما اصابك من اضطراب ، ولذلك فإنه بطبيعة الحال

لم يخامره أى خوف من انك ستتركين نفسك تموتين من الجوع .. »

ـ أتظنين أننى لن أفعل ؟.. الا يمكنك ان تخبريه اننى سأفعل حتما ؟.. أوحى إليه بذلك . تكلمى كانك تفعلين من تلقاء نفسك . قولى له إنك واثقة من اننى سأقضى على نفسى جوعا ..

فاعترضت قائلة : « كلا ، لعلك نسيت يا مسز لينتون انك اكلت بعض الطعام الليلة فى شهية وتلذذ !.. وسوف تبدو عليك آثاره الطيبة غدا .. »

فقاطعتنى قائلة :

ـ لو أننى فقط كنت واثقة من ان ذلك سوف يقضى عليه ، لقتلت نفسى بغير تردد .. لقد قضيت هذه الليالى الثلاث دون أن يغمض لى جفن و .. اواه !.. لقد لقيت اشد العذاب ، واقضت مضجعى الأشباح يا نللى .. ولكنى بدأت أشعر بأنك لا تحبيننى . الا ما أعجب ذلك ! لقد حسبت انهم وإن كرهوا بعضهم بعضا ، إلا انهم جميعا لا يملكون إلا ان يحبونى .. فإذا بهم جميعا ينقلبون اعداء لى فى خلال ساعات قلائل . إن الجميع هنا قد اصبحوا اعداء لى ، إنى واثقة بذلك تماما .. وما افظع ان يلاقى المرء الموت بينما تحيط به وجوه جامدة غير مكترثة : فإيزابيلا ، يملؤها الفزع والنفور وتخشى ان تدخل الغرفة حتى لا تروع لرؤية كاترين وهى تلفظ انفاسها الأخيرة .. بينما يقف ادجار بجانبى فى رصانة ليرقب انتهاء كل شىء ، وبعد ذلك يقيم الصلوات شكرا لله

على إعادة السلام إلى هذا المنزل ، ثم يعود ثانية إلى كتبه ! .. ولكن بحق كل ذى شعور وإحساس ، ما شأنه بالكتب بينما انا مشرفة على الموت ؟

والواقع انها لم تستطع احتمال الفكرة التى بثتها فى رأسها عن استسلام مستر لينتون للأمر الواقع فى فلسفة غريبة .. فراحت تدور فى الفراش ، وتزيد من حركاتها المحمومة حتى غدت أشبه بحركات المجانين ، ثم اخذت تمزق الوسادة بأسنانها ، واخيرا رفعت كتفيها ، وهى تحس بحرارة شديدة تسرى فى بدنها ، فطلبت إلى أن افتح النافذة .. وكنا فى وسط الشتاء ، كما كانت الرياح تهب من الشمال الشرقى قوية قارسة البرد ، فاعترضت على فتح النافذة ، وقد تملكنى القلق والذعر من التعبيرات الغريبة التى تتلاعب بأساريرها ، والتبدل العجيب الذى يصاحب حركاتها ، وذكرت مرضها السابق وتحذير الطبيب من عدم معارضتها او الوقوف فى وجه رغباتها .. وكانت ثائرة عنيفة منذ لحظة . اما الآن فقد استندت إلى إحدى ذراعيها ، دون أن تنتبه إلى رفضى فتح النافذة ، وبدت كأنما تجد تسلية صبيانية فى جذب الريش من الثقوب التى أحدثتها بالوسادة ، ثم تنسيقه فوق الملاءة إلى اصنافه وأنواعه المختلفة .. كان عقلها قد شرد إلى آفاق اخرى ، وبدات تغمغم محدثة نفسها :

ـ هذا ريش ديكة رومية !.. وهذا ريش بط برى !.. وهذا ريش الحمام .. آه ، إنهم يضعون ريش الحمام فى الوسائد .. لا عجب إذن إذا كنت لم احد سبيلا إلى الموت !

.. سوف أعنى بإلقائه على الأرض عندما استلقى على الفراش . وهذا ريش اوز الأحراش ، أما هذا ـ ولابد من أن أعرفه وسط آلاف الريش ـ فهو ريش « القمرى » ، ذلك الطائر الطيب الجميل الذى كان يرفرف فوق رؤوسنا فى وسط الأحراش .. لقد كان يريد الوصول إلى عشه ، لأن السحب كانت قد بلغت رؤوس التلال ، فأحس باقتراب المطر .. ولكن هذا الريش جمع من وسط المروج ، فإن احدا لم يصد القمارى قط ، وقد رأينا عشه فى الشتاء مليئا بالهياكل الصغيرة ، لأن هثكليف ، كان قد نصب فخاخا حول العش ، فلم تجرؤ الطيور الكبيرة على القدوم إلى العش وتركت افراخها حتى نفقت .. وقد جعلته يعد انه لن يصيد القمارى بعد ذلك قط ، وقد وفى بوعده !.. نعم . ها هنا الكثير منها .. هل صاد قمارى يا نللى ؟.. وهل كان بينها قمارى حمراء ؟.. دعينى ار !

فقاطعتها قائلة : « دعى هذا العبث الشبيه بلعب الأطفال .. »

.. ثم جذبت الوسادة من يدها ، وقلبتها فجعلت الثقوب ناحية الحشية ، لأنها كانت تخرج الريش منها حفنة بعد حفنة ، واستطردت : « ارقدى واغمضى عينيك ، فإنك تهذين !.. لقد ملأت الغرفة بالريش الذى يتطاير فيها كأنه الثلج المندوف ! »

ومضيت ألتقط الريش من هنا وهناك ، وإذا بها تتابع كلامها قائلة :

ـ إننى ارى فيك يا نللى امراة كهلة ، مجللة الراس بالشعر الأشيب ، محنية الكتفين !.. وكأن فراشى هذا قبو الجنيات تحت صخرة (بنستون) ، بينما تنهمكين فى جمع السهام ذات الرؤوس الصخرية المدببة ، لتقتلى بها ابقارنا وماشيتنا ! .. ثم تزعمين عندما ترينني قريبة منك أنها ليست إلا خصلات من الصوف !.. هذا ما سوف يصير إليه أمرك بعد خمسين عاما ، اما الآن ، فاعرف انك لست كذلك .. آه ، إننى لا اهذى كما تزعمين . انت مخطئة ، وإلا فلابد لى من الاعتقاد انك كنت حقا تلك الشمطاء العجفاء ، واننى كنت تحت صخرة (بنستون) ، ثم إننى اشعر بأن الليل ارخى سدوله ، وارى شمعتين على المائدة تنعكس اضواؤهما على المكواة السوداء فتتألق صفحتها كالكهرمان الأسود !

فصحت قائلة : « المكواة السوداء ؟.. أين هى ؟.. هل تحلمين ، أم تتكلمين فى نومك ؟ » .

ـ إنها هناك ، مستندة إلى الجدار ، كما كانت دائما !.. ولكنها تبدو عجيبة الآن ، فإنى ارى فى صفحتها وجها !

فعدت إلى مقعدى ، وفتحت فرجة فى ستار الفراش حتى استطيع مراقبتها ، ثم قلت : « لا توجد مكواة فى الحجرة ، ولم توجد بها فى يوم من الأيام .. »

ولكنها مضت تحملق ببصرها فى المرآة فى قلق ، قائلة :

ـ ألا ترين ذلك الوجه ؟

وعبثا حاولت إفهامها أن ذلك كان وجهها هى ، فنهضت وغطيت المرآة بشال كبير ، غير أنها استطردت فى إلحاح ولهفة : « إنه لا يزال هناك ، خلف الشال .. ثم إنه يتحرك من هـذا ؟.. ارجو الا يخرج من مكمنه عندما تغادرين الحجرة .. أواه يا نللى !.. إن الحجرة مسكونة بالأشباح ، وإنى خائفة من البقاء فيها بمفردى ! »

فتناولت يدها بين يدى وطلبت إليها أن تهدأ وتستريح ، إذ كان بدنها كله قد اخذته رعشات متوالية كانت تهزه هزا ، ولكنها ظلت تحدق ببصرها فى المرآة ، لا ترخى عينيها عنها .. فالححت عليهـا قائلة : « لا يوجد احد هنا البتة . لقد كانت صورتك انت يا مسز لينتون ، وقد عرفتها بنفسك منذ لحظات ! »

فقالت لاهثة : « صورتى أنا ؟.. وها هى الساعة تدق الثانية عشرة ؟.. هـذا صحيح إذن !.. آه !.. ما افظع ذلك ! »

وتشبثت اصابعها بثوبهـا فرفعته حتى غطت به عينيها .. وعندئذ حاولت أن أسترق الخطى إلى الباب وفى نيتى أن ادعو زوجها ، ولكنى أسرعت بالعودة إليهـا إذ اطلقت صرخة ثاقبة ، وكان الشال قد سقط من فوق إطار المرآة ، فصحت بها قائلة :

ـ ماذا جرى ؟.. وما هذا الجبن الآن ؟ استيقظى ، فإنها المرآة .. المرآة يامسز لينتون ، وانت ترين نفسك فيها ، وهأنذا اظهر فيها كذلك ، إلى جوارك ..

وأمسكت بى فى قوة وهى ترتعد فى وجل وذهـول ، وما لبث الفـزع أن انقشع عن أسـاريرها تدريجيـا ، وتحول شحوبها إلى تورد الخجل وهى تتنهد ، قائلة :

ـ أواه ياعزيزتى ! .. لقد حسبتنى فى منزلى . خيل إلى اننى راقدة فى حجـرتى « بمرتفعات ويذرنج »، وقد اختلط عقلى بسبب ما أعانيه من ضعف ، فصرخت بغير وعى او شعور .. لا تقولى شيئا ، ولكن امكثى معى ، فإنى أخشى النوم ، لأن أحلامى ترعبنى وتفزعنى !

ـ بل إن النوم العميق سوف يفيدك يا سيدتى ، وارجو ان تكون آلامك هذه مانعة لك من الصيام مرة أخرى ..

فعادت تقول فى مرارة ، وهى تعصر يديها وتفركهما :

ـ آه ، ليتنى الآن فى فراشى الصغير بالمنزل القديم ! .. وهذه الرياح تزفزف بين اغصان الشربين بجوار نافذتى .. الا دعينى احسـها واستنشقها يا نللى ، فانهـا تنحـدر من البرارى راسا . دعينى ارشف منها مرة واحدة !

وفى سبيل مرضاتها وإراحتها ، أمسكت بمصراع النافذة وواربته بضع ثوان ، فاندفع منه هواء مثلج ، جعلنى أبادر إلى غلقه والعـودة إلى مكانى .. وكانت عنـدئذ ترقـد فى سـكون ، لا تتحرك ولا تتكلم ، وقد سبح وجهها فى بحر من الدموع . كان الارهاق البدنى قد طغى على هياجها النفسى ؛ ولم تعد كاثرين الفضوب الثائرة أكثر من طفل باك ذليل ..

ودبت فيها الحياة لتسألنى بغتة :

ـ كم مضى من الوقت منذ حبست نفسى هنا ؟

ـ كان ذلك مساء الاثنين ، ونحن الآن فى ليلة الخميس ، أو بالأحرى صباح الجمعة !

ـ ماذا ؟ .. الاثنين والجمعة من الأسبوع نفسه ؟ .. هذه المدة القصيرة فقط ؟

ـ إنها طويلة بما فيه الكفاية لمن لا يعيش إلا على الماء القراح وحدة الطبع !

غمغمت قائلة فى ارتياب : « حسنا ، إنها تبدو ساعات كليلة متثاقلة ، ولا بد أن تكون أكثر من ذلك .. فانى اذكر ما حدث لى فى البهو بعد أن تشاجرا ، حين راح ادجار يستفزنى فى قسوة فانطلقت أعدو هاربة إلى هذه الحجرة وقد تملكنى اليأس . وما كدت أوصد الباب ، حتى اكتنفتنى ظلمة حالكة السواد ، وتعثرت فسقطت على الأرض .. وما استطعت ان أبين لادجار كيف كنت مقبلة حتما على نوبة شديدة حادة ، وكيف أن الغضب سوف يفضى بى إلى الجنون ، لو أصر على التمادى فى مضايقتى ومعاندتى ! .. فلم تعد لى اية سيطرة على لسانى ، أو عقلى ، ولعله من جانبه لم يستشف آلامى وعذابى ، التى لم تدع لى من حاسة التفكير إلا القدر الذى يدفعنى إلى محاولة الفرار منه ومن صوته !.. وقبل أن استعيد حواسى بالقدر الذى يسمح لى بان أرى واسمع ، كان الفجر قد انبثق .. وسوف أخبرك يا نللى بما كنت أفكر فيه ، وما كان يلف ويدور فى راسى ،

حتى خشيت على عقلى أن يذهب بددا . كان يخيل إلى ـ وانا ملقاه على الأرض ، وراسى مستند إلى رجل المائدة ، وعيناى لا تكادان تستشفان ذلك المربع الرمادى الذى يتوسط النافذة ـ اننى كنت فى فراشى الذى تعرفينه هناك ، تلك الخزانة ذات الفتحات المربعة ، المصنوعة من الخشب البلوط ، وان قلبى كان يتقطع من حزن عظيم لم اتذكر سببه عندما استيقظت وقتئذ ، وإنما رحت أكد فكرى ونفسى لأكتشف سره وكنهه .. ولكن أعجب ما فى الأمر أن السنوات السبع الأخيرة من حياتى غدت كلها كأنها صفحة بيضاء ، حتى خيل إلى انها لم تكن البتة !.. لم يكن لها يوما وجود !

ترقب الجزء الثانى من (مرتفعات ويذرنج)

فى غمرة هذا الهذيان المحموم الذى اندفعت فيه بطلة القصة المدللة التعسة « كاثرين ايرنشو » ـ أو « مسز لينتون » ـ ينتهى الجزء الأول من الأجزاء الثلاثة لهذه الترجمة الكاملة للصراع الأدبى الخالد (مرتفعات ويذرنج) .

وفى الجزء التالى ، نتابع مطالعة هذه القصة الإنسانية الرائعة ، فنرى ما يكون من أمر التصدع الخطير الذى أحدثه هيثكليف فى العلاقة بين الزوجين « كاثرين » و « ادجار » !.. ثم نتابع المطاردة العنيفة التى يشنها هيثكليف على العذراء الغريرة « ايزابيلا » ، والعداء القاتل الذى يكنه الأول لغريمه القديم «هندلى» ! .. الخ .

* * *



عزيزى القارئ :

من عجب أن الشقيقات الثلاث من أسرة «برونتى» تشابهن فى كل شىء تقريبا : تشابهن فى نبوغهن الأدبى ، وهزالهن البدنى ؛ وقصر أعمارهن ، كما تشابهن فى خلودهن بعد الموت! .. وهكذا اقترن اسم كل منهن برواية من روائع الأدب الإنسانى : وكان نصيب صغراهن « آن برونتى» من هذا الإنتاج رواية (أجنسى جراى) ، التى تروى قصة مربية للأطفال ، وإن كان نصيب هذه الرواية أقل من نصيب (جين إير) و (مرتفعات وذرنج) . أقول إنهن تشابهن فى ضعف صحتهن ، وقصر أعمارهن ، بل وفى إصابتهن بنفس المرض الذى قضى على ثلاثتهن بالتعاقب ـ وهو مرض السل أو التدرن الرئوى ـ فماتت به « شارلوت » فى سن التاسعة والثلاثين (١٨١٦ ـ ١٨٥٥) . وماتت به «اميلى» فى سن الثلاثين (١٨١٨ ـ ١٨٤٨) .. ثم ماتت به «آن» فى سن التاسعة والعشرين (١٨٢٠ ـ ١٨٤٩) ! والواقع أن فواجع أسرة «برونتى» لاتقف عند هذا الحد ، ولعل هذه الفواجع هى المسئولة عن الجو القاتم الذى تتسم به رواياتهن جميعًا . فقد كانت أسرة برونتى تتألف فى الأصل من ثمانية أفراد : الأب ، وهو قسيس كنيسة بجهة (هاروث) بانجلترا .. وزوجته ، ثم أطفالهما الستة ، وكانوا خمس بنات وولد ، هم بالترتيب : ماريا ، و إليزابيث ، و شارلوت ، و برانويل (وهو الابن الذكر) ، ثم إميلى ، وأخيراً «آن» . وكانت تفصل بين كل من الأطفال الستة والذى يليه نحو سنة واحدة فقط ، فلما ماتت الأم كانت ابنتها الكبرى «ماريا» فى سن السابعة ، والصغرى «آن» فى عامها الأول ! وهكذا صارت «ماريا» وهى بعد فى سن السابعة بمثابة الأم للصغار الخمسة الآخرين ! وبعد أربع سنوات ألحق الاب ابنتيه الكبيرتين «ماريا» و«إليزابيث» بمدرسة داخلية ـ هى المدرسة الرهيبة التى وصفتها شارلوت فى رواية (جين أير) باسم «لووود» .

حلمى مراد